تاريخ الخليج

تأليف

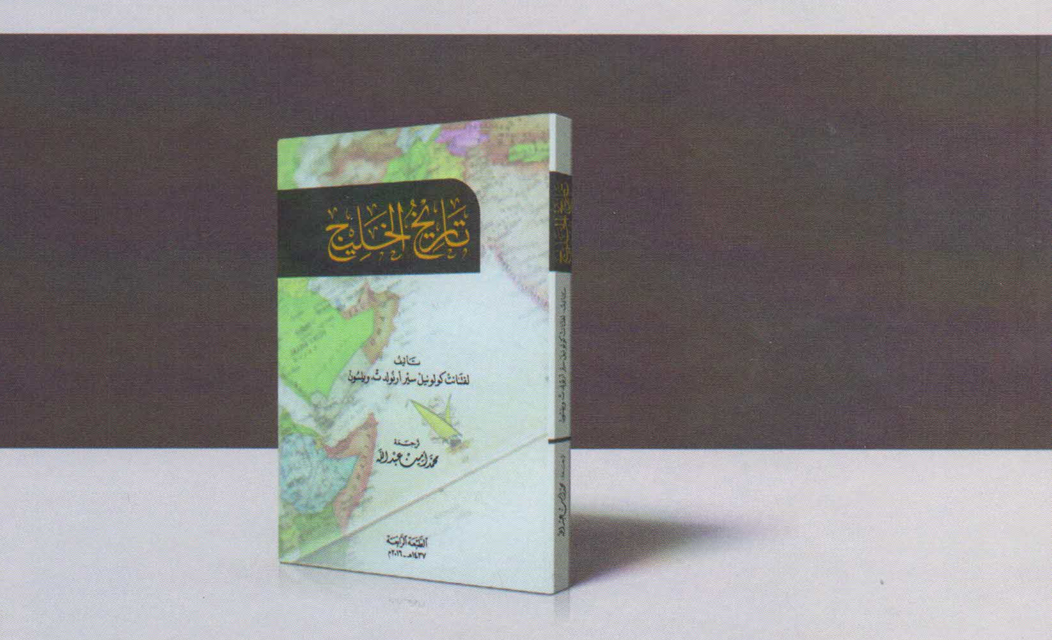
لفتنانت كولونيل سير أرنولد ت. ويلسون

ترجمة

محمد أمين عبد الله

الطبعة الرابعة

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



جمع المؤلف كتابه من أعمال المؤلفين السابقين، ولخص فيه الوجود الأوربي خاصة والبريطاني في منطقة الخليج العربي، وذلك لكي يتسنى لزائري المنطقة معرفة مراحلها التاريخية وثقافة وسلوك أهلها.


تاريخ الخليج

الطَّبعَة الرَّابعَة
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

سلطنة عُمان - ص.ب.: ٦٦٨ مسقط، الرمز البريدي: ١٠٠
هاتف: ٢٤٦٤١٣٠٠ / ٢٤٦٤١٣٢٥، فاكس: ٢٤٦٤١٣٣١
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

«إن الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هي على مسؤولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عُمان».



تأليف

لفتنانت كولونيل سير أرنولد ت. ويلسون

تقديم

الرايت أونورابول آي. إس. أميري

ترجمة

محمد أمين عبد الله


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

على الرغم من إدراك المؤلِّف لصعوبة المهمَّة التي أَخذها على عاتقه في تأليف هذا الكتاب، إلا أنه لا يعزو إلى نفسه أية ميزة خاصَّة في تحقيق هذا العمل. فيما عدا إقامته الطويلة بالمنطقة التي امتدت ثمانية عشر عامًا استطاع خلالها وبحكم منصبه بأن يقيم علاقات ودِّية وصِلات وثيقة بمختلف الأفراد في كافة المُدُن والموانئ الواقعة على ضفاف الخليج.

كما لا يَنسب المؤلِّف إلى شخصه أية بادرة أساسية في تأليف الكتاب إذ أن الجزء الأكبر منه قد قام المؤلِّف بجمعه وإعداده من أعمال عدد من المؤلِّفين السَّابقين.

وينتهز المؤلِّف هذه الفرصة ليُعْرِب عن جليل تقديره للمساعدة القيِّمة التي تلقَّاها من زميله المستر أج. دبليو. ماردون من رجال إدارة التعليم في مصر سابقًا الذي يُعتبر المسؤول الأول عن إعداد الفصول الخاصَّة بالفترة التاريخية الأُولى وبالعصور الوسطى التي وردت في الكتاب أساسًا كما كتبها المؤلِّف وكذلك عن الببليوغرافيا التي سوف تبرئ المؤلِّف من أية مسؤولية بل من تهمة اللورد كرزون لبعض الكتَّاب «الذين لا يقرأون عادة ما كتبه غيرهم من كبار المؤلِّفين والكتَّاب الذين سبقوهم، أو أنهم يقرأونه لمجرد اختلاسه أو نشره كعمل من أعمالهم. أو الكتَّاب الذين

يسيئون فهم ما يقرأون أو يَعْمَدون إلى تحريفه أو يُخطئون في تفسيره كما يحلو لهم».

ومن ثم فليس في نيَّة المؤلِّف أن يستبدل أو يضيف إلى الحقائق التاريخية التي تناولها الكتاب.

لقد حاول المؤلِّف بأن يكتب وإن لم يكن بالمستوى المطلوب، التاريخ الإقليمي للمنطقة بهدف تمكين شعوبها من الإلمام بتاريخ المنطقة القديم اتباعًا لحب الاستطلاع الذي يشكِّل المادَّة الخام لحسِّهم الوطني وللعلوم التاريخية.

إن دراسة الخطوط الرئيسة للتاريخ دون إخضاعها للتطبيق العملي على الأوضاع التي تعيشها الشعوب قد يُلقي ظلالًا قاتمةً على عملية استيعابنا الصحيح للتاريخ.

إن من واجبنا أو بالأحرى في وسعنا سواءً فيما يختص بالخليج أو أية منطقة أخرى أن نتعلَّم وأن نستفيد من أخطاء الأجيال التي سبقتنا. فإذا نجحنا في ذلك فإنه يمكننا أن نتطلع بمنتهى الثقة في المستقبل.

إن غاية المؤلِّف هي أن يتسنَّى للذين يذهبون إلى الخليج سواءً حبًّا في الاستطلاع أو من أجل العمل أو الذين يحتكُّون بمشاكله بحكم عملهم، أن يدرسوا مراحل تاريخه، ذلك التاريخ الذي لعبت بريطانيا دورًا بارزًا فيه منذ أن هزم دريك ودمرت رياح القدر الأرمادا الإسبانية.

أجل، إن في كل ميناء من موانئ الخليج بل في كل جزيرة من جزره يرقد رجال منا كان لتضحياتهم الفضل في وجودنا في الخليج وفي ممارستنا للتجارة، تمامًا كما جعل عمل الأجيال منا في البحر وعلى الأديم من هذه المملكة «إنجلترا» الأرض الغالية علينا بما هي عليه اليوم.

وتقديرًا لأولئك الرجال وباسم الذين يؤمنون بأن الإمبراطورية البريطانية ما تزال بعــون الله أعظم عنصر مــن عناصر الخير في العالم، وباســم الذين يؤمنون مثلي بأن الدور البريطاني في الشــرق لم يصل إلى نهايته بعد، ألَّفت هذا الكتاب.

أرنولد ويلسون

تقديم

على الرغم من المسحة الشـاعرية التي تحيط باسم الخليج إلا أن الذين احتكُّوا بهذه المنطقة لا ينظرون إليهـا من هذه الزاوية، فهي منطقة تحيط بها شـواطئ كئيبة معتمة وتهب عليها رياح شـديدة الحرارة وتسطع في أرجائها شمس محرقة.

أما أسباب الحياة فيها فتكاد أن تكون معدومة والطبيعة قاسية عليها كما أن الإنسـان فيها لم يفعل شـيئًا للتخفيف من قسـوتها، وسـكانها قليلون ومستوى الحياة فيها في أدنى درجاته.

أما مناطـق العمران فقليلة فيهـا كما تندر فيها الوسـائل الصحيَّة وقُراها ليست أكثر من أكواخ من الطِّين.

الذي يصادف أن يزورها تبدو له منطقة نائية معزولة عن مواطن الحضارة في العالَم[1]. غير أن المظهر خدَّاع فـي كثير من الأحيان، وبالطبع فقد لَعبت هذه المنطقة التي نعتبرها نائية ومعزولة دورها فـي تاريخ العالم لعدة قرون فقد ردَّدت أرجاؤها صدى إيقاع جيوش الإسكندر، كما شهدت إمبراطوريات

---

(١) يلاحظ أن هذا الوصف قد سجَّله المؤلِّف منذ نحو أربعين سنة.

تقوم وتسقط، وصراعات بين دول الغرب البحرية في مياهها وعلى مقربة من شواطئها.

وكما كانت منطقة الخليج تقع على الطريق المؤدي للهند فقد استأثرت باهتمام البريطانيين على امتداد فترة المائة عام الأخيرة، ولفترة تربو على قرن من الزمان ظلَّت بريطانيا الدولة المهيمنة في مياه الخليج.

ويعود الفضل أساسًا في بقاء هذا الممر البحري مفتوحًا أمام الملاحة والتجارة العالمية وتحمَّل البريطانيون مسؤولية هذا الممر فقد كنا نحن الذين نتولى حمايته ونحن الذين أقمنا المناورات على شواطئه والعوامات والكابلات في مياهه، كما يعود الفضل إلينا أيضًا في وضع حدٍّ للقرصنة وتجارة الرقيق وتجارة الأسلحة. كما أننا تمكنَّا من حمل زعماء القبائل العربية بأن تعيش في سلام مع بعضها البعض كما عقدنا معاهدات معها بقيت سارية المفعول عددًا من السنين.

وفي ١٥ مايو من عام ١٩٠٣م وقف اللورد لندسداون في مجلس اللوردات البريطاني ليعلن: «بأننا نعتبر قيام أية دولة بإنشاء قاعدة بحرية أو حامية في الخليج تهديدًا خطيرًا للمصالح البريطانية، وبالتالي فمن حقِّنا أن نقاوم مثل هذا الإجراء بكل الوسائل المتاحة لنا».

وفي سنة ١٩٠٧م عاد السير إدوارد جراي فأكَّد هذا الموقف ولا يزال الوجود البريطاني قائمًا حتى هذه اللحظة[١].

وقد عرَّض نشوب الحرب العظمى المصالح البريطانية في الخليج كما في مناطق أخرى لأخطار جسيمة فعلى رأس الخليج كان الأتراك يقفون لنا

(١) أي: منذ نحو خمسين سنة إذ استقلت كل دول الخليج في السنوات العشرين الأخيرة.

بالمرصاد ثم لمـا انضمُّوا لعدونا اضطررنا لاتخاذ إجـراء فوري حفاظًا على مصالحنا وعلى جُهد عشرات السنين وتضحياتنا.

ومن هذا المنطلق أرسـلت بريطانيـا الحملة المعروفـة بحملة (D) إلى البصرة في خريف عام ١٩١٤م فقد كانت لتلك الحملة أهدافها فقد أمْلَت علينا الظروف القاسية أن نتخذ هذا الإجراء.

لقـد انجرفنا، والحق أقـول، إلى الدخـول في تجارب غريبـة وتحمّل مسـؤوليات جديدة ربما نـأى عنها غيرنا غيـر أن تلك الخطـوة كانت في جوهرها حتمية إذ لم يكن لنا مفر منها.

إن سـجلنا في الخليج قد يصمـد لأدق الاختبارات، وأننـا لم نفعل ما فعلناه من أجلنا وحدنا وإنما من أجل كل شـعوب الدنيا، كما أننا لم نطالب بتسـهيلات خاصَّة أو امتيازات اسـتثنائية. لقد رضينا بأن نضـع إمكانياتنا وجهودنا في حلبة المنافسـة الحرَّة مع الـدول الأخـرى، وأن نلتزم بقبول نتائجها أيًّا كانت. ولقد أصبح في مقدورنا الآن أن نسـتعرض جهد قرن من العمل بروح شجاعة وضمير نقي.

هذا عن الماضي؛ ولكن ما هو الأمر بالنسبة للمستقبل؟ وهل مِن المقدَّر للخليج في السـنوات القادمة أن يلعب نفس الدور الذي لعبه في السـنوات التي مضت؟

إنني من المؤمنين بـأن أهمية الخليج سـوف تزداد ولن تقـل إطلاقًا، فالشرق الأوسـط الآن في طريق الانفتاح وفي كل مكان منه تستجد ظروف وتتوفَّر فرص للنمو والتطور.

إنه يقال لنا بـأن الفرصة تكمن في الاتصـالات الجوية ومن خلال هذه الاتصالات مع الشـرق يمكن أن تشكل شـواطئ الخليج صِلة هامَّة، وهذا

عامل جديد يُضاف إلى الموقف وإن كنا في هذه اللحظة لا نستطيع أن نستشف طبيعة تلك التطورات القادمة.

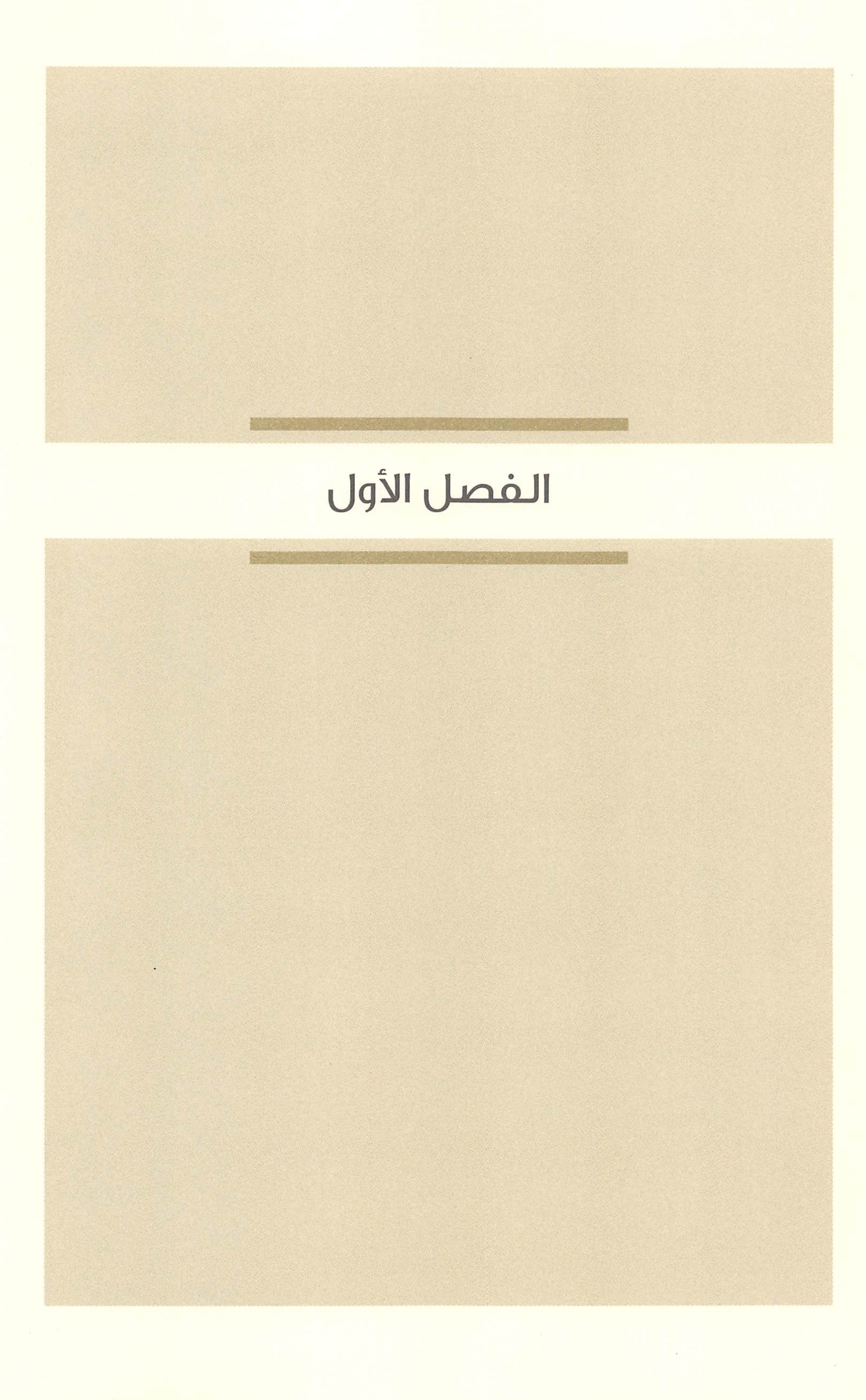
ولكن إذا كان لا بد لعملنا هذا أن يستمر، فعلينا أن نعتمد منذ الآن كما اعتمدنا في الماضي على ملكاتنا ومواهبنا.

وإني لأودُّ لو يسمح المقام بأن أنوِّه بتلك المجموعة من الرجال البريطانيين الأوفياء الذين جادوا بأرواحهم من أجل هذه الأهداف في هذه المنطقة القاحلة الجافة من العالَم.

إنهم نفس الرجال الذين شيَّدوا هذا البناء الذي يقوم الآن حجرًا فوق حجر، فهل سينجلي المستقبل عن مجموعة جديدة من هؤلاء الرجال ليسيروا في خطاهم؟ بالنسبة لي فإني لا أشك مطلقًا في ذلك فالإمبراطورية البريطانية لها أن تتوقع دائمًا مَعينًا لا ينضب من هؤلاء الرجال.

ومن بين الشخصيات البريطانية المعاصرة التي خدمت في الخليج يعتبر السير أرنولد ويلسون ألمعهم. فقد استطاعت قلَّة من الرجال أن تكوِّن خبرة عن الشرق الأوسط ككل والخليج بوجه خاص. كما أن قلَّة منهم هي التي استطاعت أن ترسم صورة صادقة، وأن تقدِّم للقارئ الإنجليزي القصَّة الكاملة لما حقَّقه مواطنوهم في هذا المجال. وإني على ثقة تامَّة من هذا وأنا أقدِّم هذا الكتاب لهم.

آي. إس. أميري



الفصل الأول



نظرة تاريخية وجغرافية

إن كتلة الأراضي التي تتألف منها شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وفارس كما نعرفها اليوم، بدأت في اتخاذ شكلها هذا منذ العصور الميوسينية، غير أنه في تلك الفترة من التاريخ، كان الجزء المنفصل من البحر الأحمر لا يزال مرتبطًا بمنطقة البحر المتوسط على امتداد تشكيلاته الرَّاهنة.

وفي بداية العصور التاريخية القريبة، التي قد يقدَّر بأنها انتهت منذ نحو مليون سنة، انفصل حوض البحر الأحمر من البحر المتوسط ثم اكتسحته مياه المحيط الهندي، ثم في نحو منتصف تلك المرحلة التاريخية تكوَّن خليج من المنطقة البحرية التي تمثِّل الآن البحر المتوسط وامتد حتى مدينة تدمر.

وفي مستهل المرحلة الميوسينية - كان البحر المتوسط الكبير يشمل الحزام الجبلي الجنوبي لمنطقة كردستان الحالية. وقد بدأ انحسار ملحوظ للبحر في أعقاب ذلك مما نشأ عنه بحيرات متبعثرة من الملح والجير، ثم عاد ذلك البحر في منتصف المرحلة الميوسينية فاحتل جزءًا كبيرًا من محيطه السابق، إلا أنه في نهاية تلك المرحلة تم انفصال نهائي فيما بين المحيط الهندي والبحر المتوسط. وفي بداية العصور الميوسينية. كان الخليج

محصورًا ضمن شق ضيق على امتداد السهل الساحلي الحالي لفارس؛ ولكنه لم يكن امتداده يجاوز حدود لارستان، ثم إلى الشمال الغربي وعلى امتداد سفوح الحزام الجبلي الحالي فإن تلك المنطقة المنخفضة، كانت تتميز بمورد هائل من المياه العذبة والبحيرات المويلحة، حيث تتجمع على شكل كتل، وتلال الرمال حيث تصل كثافتها في بعض المواقع إلى ١٥,٠٠٠ قدم كدليل على العمق العمودي لتلك المنخفضات.

إن حركات الالتفاف الكبرى التي تشكِّل سلسلة جبال زجروس قد تمَّت خلال العصور التاريخية القريبة، حيث وصلت أقصى حدّتها في نهاية تلك الحقبة.

وقد اندفعت عملية الضغط من الشمال الشرقي، بحيث تحوّل موقع الأجزاء المنخفضة لبحيرات بختياري إلى الجنوب الغربي كنتيجة لتلك الضغوط، وبالتالي تكوَّن عنها ما نعرفه الآن بالخليج وبلاد ما بين النهرين.

أما مقدم شبه الجزيرة العربية فقد كان كتلة صلبة لم تتأثَّر بالموجات المندفعة من تلك الالتفافات. أما عُمان فهي تشكِّل استثناء: إنها جزء غريب على التركيب الجيولوجي لشبه الجزيرة، فقد تشكَّلت بصورة قوية في منتصف العصر الطباشيري، هذا على الرغم من أن بروزها الهائل قد تم في فترة لاحقة.

إن الضغط الهائل المتولد عن عملية تكوُّن الجبال، قد أفرز ظواهر ثانوية غريبة في منطقة الخليج.

ففي المرحلة الكامبرية من تاريخ الأرض (أي: أقدم مرحلة جيولوجية نشأت عنها الحياة كما نعرف) تكونت طبقة ملحية شديدة الكثافة بقيت على امتداد العصور اللاحقة مدفونة داخل الصخور.

إن الملح يتحوَّل بفعل الضغط إلى مادة لَدِنة، ويمكن أن يسيل ويتحرك كما يتحرك الثلج بكتلة، ثم إن الضغط المتولِّد من حركة تكوُّن الجبال قد امتص ذلك الملح من مكامنه داخل بطن الأرض، وبالتالي فقد ارتفع ذلك الملح إلى الأرض في مواضع كثيرة من الكرة الأرضية على شكل أسطوانات يتراوح قطرها من ٤ إلى ٦ أميال، ولهذا فإن جزر هنجام وهرمز ولاراك وأبو موسى وكثير غيرها نرى أنها تكون على المنطقة الأساسية جبالًا هائلة من الملح يصل ارتفاعها إلى أربعة آلاف قدم، كجبل «كوهي ناماك» الواقع في داشستان ولارستان. أما الصخور البركانية وغيرها من المعادن كالنحاس فهي غير موجودة في هذه البقاع وهي نماذج للطبقات السُّفلى التي أفرزها الملح في عملية ظهوره من جوف الأرض.

في الوقت الذي كانت تلك الظواهر الطبيعية تأخذ مجراها في جنوب غربي فارس كان هناك من ناحية أخرى نشاط بركاني هائل داخل فارس الوسطى وشبه الجزيرة العربية. فقد حدثت انفجارات كبيرة للأحجار البركانية وربما استمرت على امتداد العصور التاريخية القريبة، أو قد نقول حتى العصور التاريخية المعروفة بدءًا من دمشق حتى مكة وهي منطقة تتميز في عصرنا الحاضر بظهور موجات من الحمم التي يقذف بها سطح الأرض من وقت إلى آخَر.

وإذا افترضنا وجود الإنسان الأول في الخليج فإن بقاياه في أكثريتها قد غطتها الرواسب البحرية والنهرية المتتابعة أو دفنتها في ثنايا الطمي؛ لأننا لم نعثر على أية آثار للرجل الأول في هذه المنطقة قبل مرحلة ما بعد العصر الحجري.

غير أن هذه الآثار لم تكتشف بعد، وأنه على الرغم من أن القطع الصوانية التي تم جمعها في بلجيكا كمخلفات عن العصر الميوسيني لم

تتأكد حقيقتها بعد إلا أن تلك المخلفات الحجرية التي لفظتها ضفاف وادي النيل، تحمل ملامح أصدق عن تلك المرحلة.

كما أن بعض العناصر التي اكتُشفت في شيلي (قد تعود في تاريخها إلى ٤٠٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد) قد تم العثور عليها فوق سطح الأرض في إيران وشبه الجزيرة.

وعلى أية حال فلا توجد أدلة على وجود إنسان العصر الحجري في شليا أو سوسيانا. فالأدوات المصقولة من الحجر التي عثر عليها في سوسا وبرشهر، لا يمكن أن نعزوها إلى فترة تسبق مرحلة ما بعد العصر الحجري.

ومع ذلك فعلى شواطئ المحيط الهندي وعلى امتدادها لا بد أن تكون قد مرّت بعصر حجري. ويرى بعض المؤرخين أن عصرًا خشبيًّا أو محاريًّا قد سبق العصر الحجري الأول. وفي هذه البقعة وقد لا يكون في غيرها كان الإنسان الأول قد استخدم المحار المستورة، كما شكل الخشب لحاجاته، وبالتالي فإنه يبدو محتملًا بأن مثل تلك الأدوات استخدمت مع استبعادنا للأدوات الحجرية أو الحديدية؛ لأنه عندما أقلع نيروشيس بسفينة عبر الخليج عام ٣٢٥ ق. م، لم يكن لدى القبائل التي مر بها على ساحل بلوشستان أدوات حديدية ولا نسيج لصنع الملابس فيما عدا الجلود.

وعندما كتب (أريان) عن القبائل التي تستوطن المنطقة الواقعة بين كراتشي ولاومارا الحديثة قال: كان لديهم رماح طولها ستة أذرع إلا أن أطرافها لم تكن من الحديد وإنما من الخشب المسنون الذي يتم معالجته بالنار، ولم يكن لديهم حديد، وأن جلود السباع وبعض أنواع الأسماك الكبيرة كانت تستخدم لصنع الملابس، وأن الذين تم أخذهم من أولئك السكان كان الشعر يغطي سائر أجسادهم ورؤوسهم، ولهم أظفار حادة وطويلة كأنها أظلاف أو مخالب الحيوانات المتوحشة.

إن هذا الوصف في مجمله هو صورة صحيحة لطبيعة الحياة للإنسان الأول في هذه المنطقة منذ العصور التاريخية القديمة التي استمرت في بعض الحالات حتى يومنا هذا. كما لا يمكننا أن نفعل أو نشك في أن بعض أساليب الصيد البدائية لا تزال قائمة حتى اليوم. وأن سكان جزيرة سقطرى في عُمان لا يزالون حتى الآن يستخدمون نوعًا من قوارب الصيد البدائية ويسمونه الرمس، وهو يُصنع من ثلاثة جذوع طولها ٦ أقدام ويُخاط بالحبال ويكون الجذع الوسطي أطول من بقية الجذوع.

ويعتبر القارب الشاشة الذي يستعمله سكان ساحل الباطنة في عُمان من أهم الآثار القديمة، وهو يُصنع من عيدان النخيل، كما يدخل في صناعته ألياف شجر جوز الهند، ويبلغ طول هذا القارب نحو ١٣ قدمًا ويتسع لرجلين على الأكثر. وعلى الرغم من هشاشة هذه الأنواع في القوارب إلا أنها مرنة ومطاطة وتستعصي على زبد الأمواج وتستخدم لصيد الأسماك ولأعمال الاتصال بالسفن الراسية داخل الميناء بعيدًا عن الشاطئ. أما الهدري وهو قارب يستقطع من إحدى الأشجار، فهو كثير الاستعمال.

وهذه القوارب كما ذكر نيورشوش كلها تجري بالمجاذيف بنفس الطريقة التي يشق فيها الحفارون الأرض بالفؤوس. وهناك شبه في عادات الأكل التي نتجت بفعل الضرورات الاقتصادية بين الهنود والفرس والعرب من ناحية وبين الأوروبيين في اعتمادهم على الصيد.

آل عُمان وبالتالي كل الخليج لا تزال منطقة بكرًا للاكتشافات التي تهدف إلى دراسة وجود الإنسان الأول فيها، ولا توجد مهمة تعوِّض العلم الباحث أكثر من التوصل إلى إيضاح لبعض المشكلات التي سوف يتعرض لها في هذا الكتاب.

إنه على سواحل هذا الخليج قد التقت ثلاث سلالات للإنسان البدائي

الدرافيديرن، والأورو ـ الأفريقيون والحاميون والمنغوليون. وأنه لما يدعو إلى الاعتقاد أن القبائل المنتشرة عبر المنطقة الواقعة بين كراتشي وأورمارا الجديدة إلى الغرب، التي أشار إليها أريان هي من سلالة الدرافيدريين، هي من الوجهة السلالية هندية الأصل.

أما المجموعة الحامية فهي التي تقطن السواحل العُمانية، كما أن النسحوح وهم قبيلة صغيرة من أصل زنجي، وهي التي تسبق في أصل تاريخها السلالات السامية لشبه الجزيرة العربية لا تزال تقيم في كهوف بمنطقة رأس مسندم.

وجميع هذه السلالات لها أصول أفريقية مشتركة، إلا أنه عندما استوطن النوع الدرافيديري من تلك السلالات مدينة مكران، وانتشرت الفروع الحامية منه عبر ساحل عُمان فإنها قد تطورت ضمن طابعها العنصري الخاص، ومن ثم أصبحت أجناسًا مستقلةً.

فالدارفيديون سكان مكران قد فقدوا بالفعل سماتهم الزنجية الخاصّة، أي: خلوّ أجسادهم من الشعر، أما الحاميون العُمانيون فقد ظلوا محتفظين ببعض تلك الخصائص؛ أي: الصلعة الوبرية والشفة المقلوبة. أما المنعزليون فقد وفدوا بعد ذلك من آسيا القلب، وظلُّوا على ما يبدو منعزلين حتى مرحلة ما بعد العصر الجليدي. وقد ظهروا على المسرح كجنس منظم ومثقف وربما عاصروا بداية الحضارة كما نعرفها في العراق، وإن كان عدد كبير من العلماء يرى أن حضارة سامية بدائية قد سبقت ظهور هؤلاء.

إن الأجناس الزراعية كانت دائمًا تميل إلى امتصاص الأجناس المدنية، وعلى الرغم من أن المؤثرات بقيت ظاهرة المعالم على امتداد ساحل مكران، إلا أنها كادت أن تكتسحها مجموعات الغزاة البلوش، كما أن أحفاد

جوكتان الذين كانوا يستوطنون ميشا «وهي كلما اتجهت غربًا إلى سفار؛ أي: (ظَفَار) جبل يقع على الشرق». كذلك فقد كان الساميون من أبناء الأراضي الزراعية، ولهم مواشيهم الخاصَّة بهم، كالأغنام والإبل والبغال، وهي من سكان شبه الجزيرة العربية، أما الخِرَاف وفي النهاية الخيول فقد تم اقتناؤها في فترة لاحقة في كلتا الحالتين من الشمال.

ولهؤلاء نوع متميِّز من التركيب اللغوي ولا يشاركهم فيه إلا من بعيد المجموعات الحامية، وأمزجة وملامح أكثر تجانسًا واستمرارًا من أية أجناس أخرى.

قبل أن نخرج من هذه الساحة المتغيرة للتصورات إلى ميدان آخر أكثر غموضًا من ميادين التاريخ، وإن كانت الأدلة بشأنه أكثر توافرًا، فإن من الواجب أن نشير باختصار إلى التغييرات المناخية المحتملة، التي لاحظنا أنها كانت العامل الرئيسي والمؤثِّر في تحديد تطور وحركة الجنس البشري.

تلقي الأبحاث الحديثة ثقلًا أكبر على العوامل الجغرافية في هذه الحركة كتوزيع الأرض والمياه وارتفاع الأرض وانخفاضها، والأحوال الأخرى التي تهيىء الجو لسقوط الثلوج في مناطق أو فصول معينة أكثر مما تعتمد على التفسيرات الفلكية كدوران الأرض أو ضبط الفصول التي كانت من الأمور المألوفة قديمًا.

ومن المؤكَّد على كافة المستويات أن أقسى المراحل الجليدية قد وقعت في فترات الأعراف؛ أي: الفيضانات، وأن الفتور المتكرر في تلك المراحل قد تزامن مع أعظم فترات بروز سطوح الأرض، ومع وجود مناخات حيوية استوائية جافة أكثر منها دافئة؛ نظرًا لأن جفاف المناخ، مهما كانت شدة برودته يعجل بسقوط ثلوج قليلة.

إن المراحل الجليديـة الأربع التي مرت بها أوروبا يناسـبها المراحل المطرية الأربع التي مرَّت بوادي النيل، كما أن الكثافة النسبية لأقصى فترة جليدية مـرت بها أوروبـا تماثل المراحـل الجليدية التي مـرَّت بالعالَم الجديد.

وبالنسـبة إلى الخليج فإن هذا الموضوع لم يلقَ الدراسـة، وإن كان من المحتمل على ما يبدو ظهور مراحـل مطرية مماثلة فيه علـى امتداد منطقة السفوح الواقعة على الشمال الشرقي للعراق.

وعلى طول نهر الفرات إلى الغرب توجد آثار لمناطق نهرية لا تزيد على ثلاثة، ويبلغ ارتفاع أعلاها تسـعين قدمًا نسبيًّا. وفي مناطق أخرى من ساحل الخليج وعلى مدار ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية توجد شواطئ مرتفعة وقد تم تحديدها بشـكلٍ دقيقٍ، وتقـع على ارتفاعات تتـراوح من مائة إلى مائتي قدم عن سطح البحر.

وتعتبر المراحل المطرية التي انتهت بالفترة الواقعة في مسـتهل التاريخ المدوَّن السبب في ظهور السـهول الطموية في منطقتي جنوب غرب فارس والعراق. وحتى الفترة التي أصبحت فيها بقايـا الفيضانات ثابتة على امتداد المنحدرات الجنوبية لسلسـلة جبال زجروس، امتدت مساحة منطقة الخليج وإن لم يكن بصـورة متواصلة إلى نقطة لا تبعد عن منبـع نهر الفرات الذي يصب في سفوح جبال كردستان.

كل هـذه المناطق كانت آهلة بالسـكان خلال الجـزء الأكبر من العصر الجليدي، وثمة أدوات قد عُثر عليها في إيران وفي شبه الجزيرة العربية وبين الأحجار التي تضمّ هياكل الحيوانات الضخمة على طول ساحل بحر قزوين تدل على أن تلك المناطق كانت آهلة بالسكان بشكلٍ واسعٍ.

لقد أدَّى انحسار الفيضانات إلى كوارث، وطبيعي أن هذا الانحسار في الجنوب قد تم بسرعة فائقة، وما أن انتهت الفترة الجليدية حتى تدفقت السيول محدثةً شقوقًا عميقةً في الرواسب السطحية لمنطقة شبه الجزيرة العربية وبعثرت أكوامًا هائلةً من الأنقاض بمنطقة الزبير في العراق.

ومن قمم زجروس تدفقت موجات مماثلة من السيول بسرعة أَقوى حاملة معها كميات هائلة من قطع الأحجار الثقيلة التي تكون الآن سفوح سلسلة جبال زجروس ابتداءً من خانقين في العراق حتى مشارف بوارسجون، وهذه العملية لا تزال مستمرة حتى الآن، وإن كانت بشكل مخفَّف.

وفي أواخر المرحلة المطرية تقريبًا؛ أي: ما يقرب من نحو ٧٠٠٠ عام تدفقت على إيران والعراق وسواحل الخليج جحافل من أقوام ذوي رؤوس طويلة لعلها جاءت من آسيا الوسطى، وواضح من مخلفات تلك الأقوام من الأسلحة والخزف ونوعية الحياة كما كشفت عنها بقايا استحكاماتهم العسكرية أن ثقافتهم قد تكون أقدم من أي ثقافة تم اكتشافها في هذه المنطقة.

وبظهور هؤلاء يبدأ التاريخ المدوَّن لهذه المنطقة بالرغم مما يكتنفه من غموض، ونحن لا نعرف ما إذا كان ذلك الجنس قد نقل معه أو استوعب ثقافة أقوام أخرى أكثر بدائية منه في هذه المنطقة؛ ولكن بما أن هذا الجنس لم يعرف شيئًا عن النخلة، وبما أن زراعة أشجار النخيل تعتبر المدخل في حياة حضارية مستقرة وتتطلب رعاية دائمة وماهرة هي التي تميِّز الحضارات القديمة، فمن الجائز الاعتقاد بأن سكان الدلتا الأوائل قد زرعوا تلك الأشجار لبيئتهم وتوصلوا إلى صنع نوع من الأسمدة الصناعية قد تكون النخلة هي شجرة الحياة بالنسبة لهؤلاء السكان كما ورد ذكرها في سفر التكوين.

هكذا يذكر ويلكوكس: لقد كانت تلك الشـــجرة وبصورة مؤكدة العامل الأساســـي الأول في حياة الإنســـان البدائي ليس في تلك المرحلة التاريخية فحسب وإنما لسنوات عديدة فيما بعد.

الفصل الثاني



الخليج في العصور التاريخية الأولى

معرفتنا عن التاريخ المبكر للخليج والمناطق التي تحيط بضفافه تقوم على مجرد الافتراضات، وهي تعتمد على الأساطير في معظمها وعلى الاستنتاجات المستمدة من كتب التاريخ القديم التي انتقلت إلينا من مصادر متعددة كالاصحاح القديم والنقوش الأثرية والألواح القديمة، ومن تلك المصادر أخذت المعلومات تخرج شيئًا فشيئًا إلى حيِّز الوجود، كما ساهم في توفير هذه المعرفة الاستنتاجات السلالية ودراسة جماجم وعظام الأجناس الأُولى والحديثة.

من الواضح كل الوضوح أنه قد حدث في فترة مبكرة من التاريخ لعلها ١٠٠٠٠ عام أن استوطنت شواطئ الخليج ثلاثة عناصر من الجنس البشري هي الدرافيديون الذين استوطنوا ساحل مكران التي اندمجت فيما بعد داخل ممالك الفاتحين البلوش والساميين الذين استوطنوا ساحل شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد حلُّوا محلَّ الأجناس الحامية الأصلية من الأورو - أفريقيين أو الزنوج البدائيين أو أنهم امتصوهم، ثم العيلاميين الأصليين الذين أقاموا عند رأس الخليج وامتدوا إلى الشرق حتى بوشهر.

أما المقصود بالساميين عمومًا فإنهم تلك المجموعة من الأجناس الذين عرفوا فيما بعد بالآراميين (السوريين... إلخ) أي: سكان الشمال، والبابليين

والآشوريين؛ أي سكان الشرق، والغرب، أي: سـكان الجنوب، والفينيقيين والعبريين والموباتيين؛ أي: سكان الغرب، وكانت هذه الأقوام قد استوطنت المنطقة الواقعة فيمـا بين جبال طـوروس وجبال أرمينيا وإيـران والخليج والمحيط الهندي والبحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط.

ولقد سُـمِّيت تلك المنطقة بحق منطقة الهلال الخصيـب؛ لأنها خلفها وتقع الصحراء بواحاتها ونباتاتهـا القليلة أمامها، ويمتد قرن هذا الهلال على طول البحر المتوسط والمشارف الشرقية للخليج امتدادًا إلى بوشهر.

وليس من قبيل التعميم أن يوصف تاريخ منطقة جنوب غربي آسـيا بأنه كان صراعًا طويلًا امتد عبر الأجيال بين سـكان الجبال الشـمالية وسـكان الصحراء للسيطرة على الهلال الخصيب.

وأما المقصود بالعيلاميين فهم سكان عيلام الذين استوطنوا قبل الفترات التاريخية المعروفة سهول جنوب غرب فارس ابتداءً من سوسة حتى بوشهر. والمعروف بوجه عام أن هذا الجنس يمتّ بأصله إلى آسـيا الوسطى، ثم من هناك امتدوا إلى سهول إيران وسوريا ومصر قبل ٤٠٠٠ عام قبل الميلاد.

وهناك بعض الأدلة على أن المستوطنين الأوائل لمنطقة أنوا في تركستان الروسية وسوسة تجمعهم أصول مشتركة، ومن ثم فمن الواضح على ما يبدو أن هناك فترة زمنية طويلة عاشـتها حضارة ما قبل التاريخ في آسيا الوسطى وعيلام.

وتشـير البحوث التي أجراها بيزار بأن الجبل القائم بالقرب من سبزاباد في شبه جزيرة بوشهر كان مأهولًا بالسكان في تلك الفترة البعيدة من التاريخ مما يصحُّ معه الافتـراض بأن تلك الحضارة قد امتـدت إلى منطقة أبعد في الشرق وربما إلى بندر عباس والمناطق الخصبة في دلتا نهر ميناب.

بعد العيلاميين جاء دور السومريين وهم جنس لهم رؤوس طويلة، ويتحدث بلغات متقاربة؛ لكن العلاقة بينهم وبين العيلاميين الأصليين الذين سبقوهم تقوم على الافتراضات، وإن كانت هناك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأنهم فرع متأخِّر من شعوب آسيا الوسطى وأنهم وصلوا إلى الخليج قبل ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد وأنهم جاؤوا إليها من سهول آسيا الوسطى.

وعلى أية حال فإن موضوع أصل الشعوب التي استوطنت سواحل الخليج في العصور القديمة ليس بأي حال موضوعًا له صِلة بهذا البحث، وربما اكتفينا، إذا عرفنا بأن المعلومات التي كوَّناها عن العصور القديمة بأن الأجناس السامية قد استوطنت الساحل العربي ومملكة عيلام، وهي المنطقة التي كانت تشكِّل سهول جنوب غربي فارس والأراضي التابعة للسومريين.

أما الآن فعلينا أن نكتشف إلى أي مدى كان الخليج يشكِّل وسيلة الاتصال والتبادل بين الشعوب؟

إن النقوش الآشورية التي تعود إلى الفترة الممتدة من العصور الأولى حتى الفترة الأخيرة تشير إلى وجود جزيرة تسمى نيدوكي باللهجة الأكادية أو تلمان أو دلمون باللهجة الآشورية، وهذه التسمية قد تعني أو لا تعني البحرين، وقد جاء ذكرها في إحدى اللوحات وتتحدث عن ملك يُدعى سرجون العظيم (٢٨٧٢ ق. م) ويحتمل أن يكون هذا الملك قد وصل إلى شواطئ البحر الأسود أو كما نسميه الآن الخليج، وإلى بلاد ذوي الوجوه السوداء، وأن هذا الملك قد أخضع لسلطته كُلًّا من ميدوكي وأحد الموانئ البحرية الواقعة في هذه المنطقة.

وقد ورد في إحدى اللوحات التي عُثر عليها في تلك المنطقة ما يشير إلى استمرار تلك الغزوات، كما تشير إلى أن خليفة الملك سرجون نارام سن

قد شـنَّ غزوًّا على أبيراك وعلى ملك ماجان، ولفظ ماجان مشتقة من اللفظ السوماري ما شب، وقد أطلقت عليها هذه التسـمية؛ بسبب ارتباط سكانها بالبحر وبالملاحة البحرية، بينما تشـير إحدى اللوحات التي يرجع تاريخها إلى عهد ملك أروْ ـ دنجي (١٤٥٠ ق. م) إلى وجود صناعة للسفن في ماجان.

وتخلط النقوش السـومارية باسـتمرار بين ماجان وملوخة، ولعل الثانية تقع على السـاحل الجنوبي للخليج إلا أنه مع توسُّـع الملاحين القدماء في نشاطهم الملاحي أخذت السُّـفن تدور حول الساحل العربي، بحيث وصلت إلى البحر الأحمر.

وهكذا أخذ اسما ماجان وجارتها ملوخة ينتشر تدريجيًا ناحية الغرب إلى أن أصبحت ملوخة تعني بالنسبة للآشوريين الحبشة، وتُعتبر قطع الديورايت والجرانيت والرخام الضخمة بأشكالها العمودية اللامعة التي ما تزال ملقاة أو مبعثرة فوق روابي أبو شـهرين جنوبي أور، تعتبر النصب التذكارية بالنسبة لمملكة ماجان أو ربما لإحدى البلاد الواقعة علـى الطريق إلى ماجان، وإن كان هناك احتمال بأن تكون تلك القطع قد وصلت عن طريق نهر الفرات من المناجم البركانية في كردسـتان، بينما يحتمل أن تكون أحجار الديورايت قد أحضرت من جبل سنام بمنطقة الزبير في العراق.

إنه من الواضح أن تلك القطـع الصخرية لم تأت مـن مصر؛ نظرًا لأن صخور الديورايت السـوداء التي اشـتهرت بها مملكة ماجـان تختلف في جيولوجيتها عـن ديورايت مصر، وإن كان الإنسـان لم يتوصـل إلى معرفة أصلها الحقيقي بصورة مؤكدة حتى الآن.

وقد سُـمِّيت ماجان بمنجم النحاس، كما يذكر أحد النقوش السـومارية بأنها كانت مصدر الديورايت أيضًا بينما يشير جيديا ملك لاجاش (٢٦٠٠ ق.م)

إلى الأخشــاب التي كانت ترد من ماجــان وملوخة وجوبــي وديلمون، كما اشتهرت هذه المناطق بوفرة الأغنام والمواشي.

وفي الملاحم والأســاطير الســومارية كان آلهة مملكــة ماجان نندولا، ومعنى اللفظ (ملك الأغنام والمواشــي)، ومن هنا فإن الإشــارة إلى ماجان كمصدر للنحــاس إنما يثبت أن تلــك المملكة كانت تضــمُّ داخل حدودها الجبل الأخضر في عُمان، حيث كانــت توجد مناجم النحاس، وهذا يتيح لنا على ما يبدو اعتبار ماجــان مرادفة لعُمان؛ نظرًا لأن النحــاس، والديورايت والدويليرايت والمواشي كلها موجودة في عُمان.

أما بالنسبة للأخشاب فمن المحتمل أنها كانت ترد إلى ماجان من الهند، ثم تُعيد ماجان تصديرها من هنــاك كما هو حادث في الوقت الحالي، كذلك توجد هناك صلة بين بلح ماجان وبلح ديلمون وملوخة، كما تشــير إلى ذلك اللوحات والنقوش التي عثر عليها في تلك المناطق.

ويُعدُّ البلح في الوقت الحاضر من منتجات عُمان الرئيسية وتمور مسقط تحظى بشــهرة واســعة في الأقطار الأوروبية. وفي بداية حكم نارام سن تم غزوه لماجان واســتولى عليها، ثم أطلق اســمه على إحدى المدن التي ورد ذكرها في إحدى السجلات الكنسية من أســرة دنجى بعد مرور أربعة قرون على وفاة نارام سن.

وقد عرفنا أيضًا أن سكان ماجان كانوا من الســوماريين الأوفياء، وكانوا يؤدُّون الجزية لحكام سومر بانتظام، كما كانت تلك المنطقة تشتهر بنوع من الحجر يسمى جج (الســومارية) وشمتو (بالآشــورية) التي يعتقد أنها تعني شــوهام بالعبرية، وكان الجوديون يحضرون الديورايت من ماجان، وقد عُثر في إحــدى النقوش لمنطقة تلــو ورد فيها عن بناء ســفينة للآلهــة بو وإلى

رحلات بحرية إلى ماجان وملوخة، وهكــذا يتضحُ لنا بأن الرحلات البحرية البعيدة المدى عبر ساحل شبه جزيرة العرب كانت مألوفة خلال نصف القرن الأول من الفترة الألفية الثالثة.

كما لم تكــن التجارة البحرية خلال تلك الحقبة مقصورة على ســواحل شبه الجزيرة، وعلى حدٍّ ما أورد أحد النقوش فقد كانت السفن التابعة للملك جوديا تجلب من أراضي الآلهة والإله تنجرسو منتجات من كل الأصناف من ماجان وملوخة وجوبي ومن أقطار أخرى غيرهــا، فمن ملوخة كانت تجلب الأخشــاب اللازمة لبناء المعابد ومن جوبي كانت تجلب شــجر كوبيو ومن ماجان كانت تجلب أحجار الديورايت.

ومن الكتابات الواردة في هذا الشأن يمكننا أن نستنتج أن سفن جوديا لم تكن ترتاد أقطارًا أخرى، وإنما كان يتم إعادة تصدير تلك البضائع من ماجان، ثم من ميناء إلى ميناء آخَر من الموانئ التي ذكرناها.

وعلى أية حال فلا بد أنه كانت هناك حركــة مواصلات عن طريق البحر أو عن طريق البر فيما بين السواحل الشمالية للهند ودلتا شط العرب في فترة سابقة من التاريخ؛ لأنه قد عُثر على أحد الأختام في منطقة كش بالقرب من بغداد، وكان الذي عَثر عليه هو المستر ماكي، وذلك فيمــا بين عام ١٩٢١م و١٩٢٣م وكان هذا الختم شــبيهًا للأختام الكثيرة التي عُثــر عليها في منطقة شمال الهند من جانب الســير جون مارشــال، ولا يدل هذا الاكتشاف على وجود مواصلات منتظمة فحسب بل على وجود حضارة مشتركة تُعد من أَقدم الحضارات القديمة مما مكن الإنسان من معرفتها اليوم.

كذلك فلا ينبغي أن نغض الطرف عن أولئــك الملاَّحين البارعين الذين يعود إليهم الفضل في تلك الحركة التجارية العظيمة، فعلى حدِّ رأي الدكتور

ثيودور بنت أن أولئك الملاحين هـم الفينيقيون، وأن الفضل يعود إليهم في بناء تلك الأضرحة التي عُثر عليها فـي جزيرة (البحرين) التي يُعتبر وجودها وأصلها من أمتع المشكلات الأثرية أمام الدارسين.

كان الفينيقيون من الساميين، ومن حيث اللهجة تختلف لغتهم عن اللغة العبرية، وهي تقرب إلى الآشـورية، وعلى أية حال فربما لا يجوز أن ننسب الفضل إليهم في اختراع الكتابة وإن كانوا كتجار وملاحين قد سـاهموا بقدر في نشـر هذه المهنة في الأجزاء الغربية من تلك المنطقة، ومن المعروف أن الآشوريين كانوا من عام ١١٠٠ قبل الميلاد يستوردون أوراق البردي من مصر إلى مستوطناتهم على الساحل السوري.

ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك قوة بحرية أخـرى للمانويين، وذلك قبل أن يرد ذكر في التاريخ عن الفينيقيين، ولهذا فإن الذين نُطلق عليهم هذا الاسم هم مجرد وَرَثة لنظام تجاري أقدم.

أما عن حجم ذلك التبادل التجاري ومداه، فإن هذا الموضوع يخرج عن نطاق بحثنا، وإنما نسـتعين في ذلك على الافتراضات، إلا أنه قد أصبح من المؤكد بأن عالم الساميين لم يكن عالمًا متقوقعًا أو منعزلًا.

وقد جاء ذكر للتجـارة الفينيقية فـي مؤلَّفات حزقيل عـن مدينة طيرة. ويجمع الكتَّاب العبريون والإغريق على أن الفينيقيين أقوام يتَّصفون بالمهارة وملاَّحون شجعان، وكانوا يقومون برحلات تجارية بعيدة المدى، ثم يعودون منها بمنتجات تلك البلدان لكي يبادلوها بدورهم مع جيرانهم الأكثر تطورًا.

ومما يبعث على الأسف أنه لم يتخلَّف شيء لنا من تراثهم الأدبي، كما أن رحلاتهم البحرية التي كانوا يقومون بها لم يتوصل أحد إلى تحديد مداها في اتجاهاتها الحقيقية على وجه اليقين، أما القـول بأنهم كانوا يذهبون في

رحلاتهم إلى البحار الشرقية فهذا قول يحيط به الشك، وهم ينسبون لأنفسهم تراثًا تاريخيًّا يمتد إلى ما قبل ثلاثين ألف عام أو يزيد.

وعلى أية حال فقد ذكر هيرودوتس بأن مدينة طيرة قد شُيدت بنحو ٢٣٠٠ عام سابقة، غير أنه من الصعب تأكيد هذا الرأي، كما يذكر نفس المؤرخ بأن الفينيقيين قد زعموا بأنهم جاءوا من الخليج، غير أنه لا توجد أدلة تؤكد صحة هذا الرأي.

كما أن هناك رواية أخرى منسوبة إلى جوستين وهو يربط الفينيقيين بالبحر الميت، ويذكر سترابو بأن مواطني جره كانوا بوجه عام يحملون معهم البضائع العربية والطيب عن طريق البر، غير أن أريستوبوليس يذكر العكس؛ أي: أنهم كانوا يسافرون كثيرًا إلى بابل على صنادل، ثم من هناك يبحرون عبر الفرات إلى ثابساكوس، ثم يعودون فينقلون تلك البضائع عن طريق البر إلى شتى أنحاء البلاد، كما كانوا يبحرون إلى جزر فيما بعد مثل: تيروس وأرادوس، وتوجد فيها معابد تشبه معابد الفينيقيين.

وإذا كان علينا أن نصدِّق سكان هاتين الجزيرتين فإنهم يقولون بأن جزرهم ومُدنهم تحمل نفس أسماء المدن والجزر الفينيقية، وأن تلك الجزر تبعد عن تريدون مسيرة عشرة أيام بالبحر تقريبًا كما تبعد مسيرة يوم واحد في الخليج.

وهكذا فإن كل من هيرودتس وسترابو يبينان بوضوح وجود أماكن للأنشطة التجارية وفينيقيين في شواطئ الخليج.

أما بليني فإنه يصف شاطئ الخليج كالآتي:

«إننا سوف ننبري الآن إلى وصف ذلك الساحل (أي: ساحل شبه الجزيرة العربية) فبعد أن نتخطى منطقة شراكس التي تم اكتشافها لأول مرة من قِبل

الملك ابيفانس نصل أولًا إلى المكان الذي كان يوجد فيه مدخل نهر الفرات سابقًا نهر سالوس ورأس شالدون، وابتداءً من هذا المكان حيث يوجد البحر وعلى امتداد الساحل لمسافة تمتد ٥٠ ميلًا فإنه يشكِّل سلسلة من التيارات أكثر مما يشكِّل بحرًا عاديًا.

ثم يأتي نهر أشينوث وتليه منطقة صحراوية تمتد نحو مائة ميل إلى جزيرة تسمى أشارا، ثم يأتي بعد ذلك خليج كابيوس الذي تعيش على ضفافه قبائل الجالوكس والجاتيني، ثم يلي ذلك خليج جرا الذي تقع عليه مدينة جره بقطر خمسة أميال وهي تضمُّ أبراجًا شُيِّدت بقطع مربعة من أحجار الملح».

«وعلى بُعد خمسين ميلًا من الساحل تقع منطقة أتين في الجزء الداخلي، كما تقع أمام مدينة جره جزر تايلوس؛ ولكنها تبعد أميالًا بعيدة عن الشاطئ، وقد اشتهرت بغزارتها من اللؤلؤ، وفيها بلدة تُسمَّى بنفس الاسم، وتوجد بالقرب منها جزر صغيرة تُسمَّى جزر أرادوس وتقع بعيدة عن رأس الخليج على بُعد نحو اثني عشر ميلًا ونصف».

أما المقابر الموجودة في البحرين التي سبق أن أشرنا إليها فإنها تمتد إلى بضعة أميال من نقطة قريبة من أبي علي، وهي قرية تقع على الجزء الشمالي من الجزيرة على الجنوب الغربي من ميناء المنامة وتبعد نحو ستة أميال وتضمُّ منطقة واسعة من المرتفعات تبلغ مساحة أكبرها من أربعين إلى خمسين ياردة عرضًا ومن أربعين إلى خمسين قدمًا علوًّا وقد قام بفتح هذه المقابر ودراستها الكابتن ديوراند عام ١٨٧٩م، وثيودور بنت عام ١٨٨٩م، ثم في ١٩٠٧م من قبل بريدو وكلها تظهر تشابهًا كبيرًا في التصميم.

ومن بين المقابر التي اكتُشفت التي تقع أمام الجهة الغربية تلك التي تتكوَّن من طابقين وقد بُنيت بأحجار متداخلة، والدور السفلي فيها أكثر علوًّا

من الدور العلوي، وعلى جانبي الممر المؤدي إلى الجهة الشرقية أُقيمت غُرف صُمِّمت لتضمّ المقابر التي صفّت واحدًا فوق الآخَر، أما سقف الممر فقد شُيِّد بأحجار مفرطحة متعارضة عبر الحائطين، وقد طُليت بنوع من الطلاء الخشن المحبب، وعلى جانبي المقابر توجد فتحات صغيرة يمكن وضع قضبان خشبية فيها لتُستعمل في تقديم القرابين والهدايا للآلهة، وقد ظهر في أحد التلال التي قام بفحصها ديورنت بأن مساحة الغرف فيها سبعة أقدام طول وستة أقدام عرض وخمسة أقدام ونصف ارتفاع، كما عُثر فيها على حجر أسود عليه كتابات آشورية وقام بفك رموزها السير هنري رولنسون.

وحتى الآن لم تنكشف الأدلة عن الأصل التاريخي لهذه المقابر، وإن كان قد تم العثور على عظام آدمية وحيوانية منها جمجمتان وقطعة صغيرة من عجل ذهبي وأجزاء من صناديق مستديرة وتميمة ذهبية وكميات من الأواني الخزفية السليمة والمكسوة وعليها نقوش غريبة وخطوط سوداء، لم يعثر على أية كتابات أو لوحات ولهذا فإن هذه الأواني والأدوات لا تقدم أساسًا مضمونًا لتكوين فكرة أركولجية.

وقد توصَّل المستر ماكي الذي أعاد الفحص عام ١٩٢٤م على ما يبدو - إلى أن تلك المنطقة كانت على الأرجح مقبرة مقدسة، وكان يوتى إليها بالموتى لدفنهم هناك: طبيعة الأواني وحالة العظام ووجود رفات الذكور بأكثرية وعدم وجود منطقة سكنية، كل ذلك يوحي إلينا بهذه الاستنتاجات.

إن تصميم المقابر يشبه إلى حدٍّ مثير تصميمات الفينيقيين لمقابرهم، وقد لاحظ ذلك سترابو أيضًا، وهو يقول في هذا المعنى إن جزيرتي طيروس وأرادوس تضمُّ معابد تشبه معابد الفينيقيين؛ لأن الفينيقيين هم الذين كانوا يستخدمون الغرف المزدوجة، وهناك مقبرة مبطنة من طابقين تشبه تلك

المقابر، وقد عُثر عليها في مقبرة امرت في فينسيا وفي سردينيا وفي قرطاجة، كما أن التشابه في أسـماء المناطق ـ مثل تيلوس وطيروس (كما سماهما كل من سترابو وبليني) في الخليج وصور وأرفاد على سـاحل فينسيا أمر يدعو إلى الملاحظة، غيـر أن الأمر يختلف في رأي رولنسـون بالنسـبة لأصلها المشترك.

فإذا اعتمدنا علـى هذه الآراء وحدها فيكون ثيـودور بنت قد اعتبر هذه المقابر مقابر فينيقية دون أن يقوم بالمزيد من التحقق من هذه النتيجة، وفي هذا المعنى يرى الدكتور دي جي هو جارت:ـ

«أن الدليل على كون تلك المقابر فينيقية الأصـل لم تعد له أهمية على الإطلاق على ضوء ما أسـفرت عنه البحوث التي أُجريت مؤخرًا، وقد بُنيت هذه الآراء على أساس بعض قطع العاج في المتحف البريطاني التي كان قد عَثر عليها لايارد في منطقة غمـرود، وقد اعتبرت من الآثـار الفينيقية على أساس الاعتقاد الذي كان سـائدًا في ذلك الوقت بأن الفينيقيين كانوا الشعب الوحيد القادر على إبداع تلك الفنون».

غير أنـه قد تبيَّن لنـا الآن بأنه من المحتمل أن يكون سـكان الشـمال السوري هُمْ الذين صنعوا تلك الأدوات أو أنهم الآشوريون، ولقد تجمع الآن من الأدلة ما يؤكِّد أن الفينيقيين ليسوا هم الذين صنعوا تلك الأدوات.

وينبني على ذلك أن الاعتقاد بأن الفينيقيين هم الشعب الوحيد الذي كان يمارس النشاط التجاري في تلك المرحلة من التاريخ أو أنهم هم الذين كانوا يقطنون منطقة الخليج غير أكيدة أو على الأقل مشكوك فيها.

وعلى أية حال فإنه من المؤكد أن بعض المراكز التجارية الهامَّة قد برزت في عدد المناطق من السواحل العربية منذ أقدم عصور التاريخ، وأن هناك ما

يحمل على الاعتقاد بأن التجارة البحرية كانت من بين النشاطات القائمة خلال الفترة الرابعة الأولى قبل عصرنا.

تجارة بابل في الخليج:

أما القول بأن البابليين قد امتلكوا ملاحة بحرية نهرية خاصَّة بهم فإن هناك عددًا من المصادر يؤيد هذا القول، ويجمع المؤرخون القدماء في وصف البابليين بأنهم قوم مغرمون بالوجاهة، وأنهم قد اعتادوا على مجموعة من المواد والحرف الصناعية التي لم يكن في مقدورهم توفيرها إلا بالدخول في علاقات تجارية مع شعوب أخرى التي كان يوجد بعضها في مناطق نائية عنها.

ومما لا نشك فيه أن بعض تلك المواد كان يتم استيرادها بالطرق البرِّيَّة والبعض الآخَر عن طريق البحر. وكنتيجة لموقع بابل المختار فقد أصبحت الدولة الكبرى في منطقة آسيا الغربية، وربما تكون قد اعتبرت العاصمة الكبرى للتجارة الدولية في آسيا.

ونظرًا إلى موقعها بين نهر الأندلس والبحر المتوسط فقد كانت السوق الطبيعية لتلك المنتجات النفيسة التي كان ينتجها الشرق، وكان الغرب يتهافت على اقتنائها، كما كانت لها ميزة أخرى وهي قربها من الخليج أهم طريق تجاري كانت تستخدمه الشعوب الملاحية في الاتجار، لا سيما إذا أخذنا في اعتبارنا قرب بابل من النهرين العظيمين دجلة والفرات.

وحين ننتقل إلى المرحلة التالية أو ما يمكن أن نُسمِّيها بالمرحلة البابلية الجديدة فيمكن اعتبار موضوع النقل البحري عبر الخليج الهدف في الاهتمامات الملكية، فقد رأى بختنصر الثاني (٦٠٤ ـ ٥٦١ ق. م) أن ينشئ

مرفأً في منطقة المستنقعات كما أنشأ مدينة تريدون الواقعة غربي نهر الفرات، وكان من أهم أهدافه لتلك المشروعات حماية البلاد من غزوات العرب.

ويرى فينسنت بأن هدف الملك بختنصر من هدم مدينة طيرة هو توسيع تجارة الهند والخليج إلى بابل، ومن هناك إلى دمشق وسوريا، وهو يستشهد بما كتبه أبيدينوس عن المشروعات التي أنجزها بختنصر بالقرب من بابل، فقد أنشأ هناك قناتين وأقام سدودًا كبيرةً لحصر مياه الفرات داخل السد.

كما بنى مدينة تريدون لصدِّ غارات العرب عن المملكة، ويقول كذلك بأن هذه المدينة بسبب موقعها عند مدخل نهر دجلة كانت سوقًا هامَّةً، وحتى عهد الملك نيروشيس كانت تلك العاصمة سوقًا للمنتجات الهندية والعربية.

غير أن هناك دليلًا أقوى من ذلك فيما كتبه الكتَّاب الإغريق فأشيلوس في مسرحيته عن الفرس حين أخذ يعدِّد الشعوب التي كان يتألف منها جيش ذلك الملك العظيم قد ذكر «أن بابل التي كانت تزخر بالذهب كانت ترسل أفواجًا من رجالها على متن السفن لكي يظهروا مهارتهم في رمي النبال».

أما آراء الكتَّاب المؤرخين الآخَرين والموجودة في عدد من المؤلفات فإنها تتناقض مع بعضها البعض، ورغم ذلك فهي كلها تُجمع على إبراز مدينة بابل كمدينة هامَّة إذ كانت مركزًا لاستقبال السلع والمنتجات القادمة من الجنوب (من شبه الجزيرة العربية والهند) عن طريق الخليج، ومن آراء هؤلاء يمكن أن نستنتج مسار وحجم تلك التجارة بل قد تكون لمحة باهتة عن طبيعتها.

ومن بين الآراء التي أشرنا إليها ما كتبه سترابو عن مدينتَي جره وتايلوس، فجره على حدِّ رأيه كانت من مدن الكلدانيين وكانت لها تجارة مزدهرة وتبادل مستمر مع بابل، ويؤكِّد لنا أجاثرسيدس بأن الجره كانت من أغنى سكان العالَم، ويعود الفضل في ذلك إلى اتجارهم في المنتجات العربية والهندية التي كانوا ينقلونها إلى الغرب عن طريق القوافل وإلى بابل عن طريق البحر.

وكان اللبان والتوابل هي أهم البضائع التي كانوا يستوردونها عن طريق جره، وكانوا يستهلكونها بكميات كبيرة، كما يحتمل أن يكون القطن من المنتجات التي كانت رائجة في تلك المناطق؛ نظرًا لأننا إذا اعتمدنا على ما أورده فيو فراستوس في هذا الشأن فقد يكون في جره مزارع واسعة لأشجار القطن، وأن أجزاءً كبيرةً من أراضيها كان ينتج القطن.

وعلى حدِّ رأي بليني فقد كانت جزيرة تايلوس أكثر تلك الجزر إنتاجًا للقطن، ويضيف فيو فراستوس في حديثه عن تايلوس فيقول:

«يوجد في تلك الجزيرة أنواع من الخشب كان يُستعمل في بناء السُّفن، وهذا النوع له خاصية مقاوَمَة التخشُّب تحت الماء، بحيث يمكن أن يَبقى فترة تَزيد على مائتي عام، أما خارج الماء فإنه يتلف بسرعة».

«ومن المؤكَّد على أي حال أن هذا الخشب هو خشب التيك، وكان يُستورد إلى تايلوس من الهند ولا يمكن أن يكون من إنتاج الجزيرة إطلاقًا».

أما عن مدى حجم النشاط الملاحي الذي كان يمارسه البابليون أنفسهم في مياه الخليج فلا يزال يلفّه الغموض، وعلى أية حال فإنه من المؤكد لدينا أنه بظهور الإمبراطورية الفارسية اختفت كل المعلومات التي تشير إلى أولئك القوم كشعب من الشعوب التي ساهمت في التجارة البحرية للخليج تاركة

المجال فسيحًا لبروز دور الملاحين العرب، بل إنه يمكن القول بأن الملاحة في مياه الخليج من الناحية الفعلية كانت بيد العرب طوال تلك الفترة، ومن هنا فمن المعتقد بأن دور البابليين والآشوريين كان دور الوسطاء التجاريين الذين كانوا يستقبلون البضائع والمنتجات التي يأتي بها العرب.

الفرس والخليج:

أُصيبت حركة الملاحة في الخليج بنكسة حادة إبان القرنين السَّادس والرَّابع قبل الميلاد على عهد أسرة الأخمينيين للإمبراطورية الفارسية، وأنه ليبدو لنا بأن التفسُّخ في أوصال تلك الإمبراطورية قد بدأ في عهد بختنصر عندما تحوَّل تجَّار مدينة طيرة عن طريق الخليج إلى طريق البحر الأحمر، وفضلًا عن ذلك فقد كان الفرس يدركون دائمًا ولأسباب واضحة كيف كانت تتعرض أقاليم البحرية للتدمير في الأساطيل الأجنبية.

ولقد كانت عاصمة بابل ونهر الفرات ومدينة سوسة على نهر دز وهو فرع من ذلك النهر محطتين تجاريتين لكثير من الأقطار؛ نظرًا لأنهما تقعان على نهر صالح للملاحة وكان همزة الوصل للأقاليم والممتلكات الخاضعة لهم.

ولا توجد دولة بحرية هامَّة بالمعنى الحديث للكلمة يمكن لها أن تقبل لنفسها ذلك الوضع، ولقد كانت عصابات القراصنة من المغامرين التي كان يعج بها الخليج لم تكن تكف عن النهب والسَّلب في تلك الأقاليم.

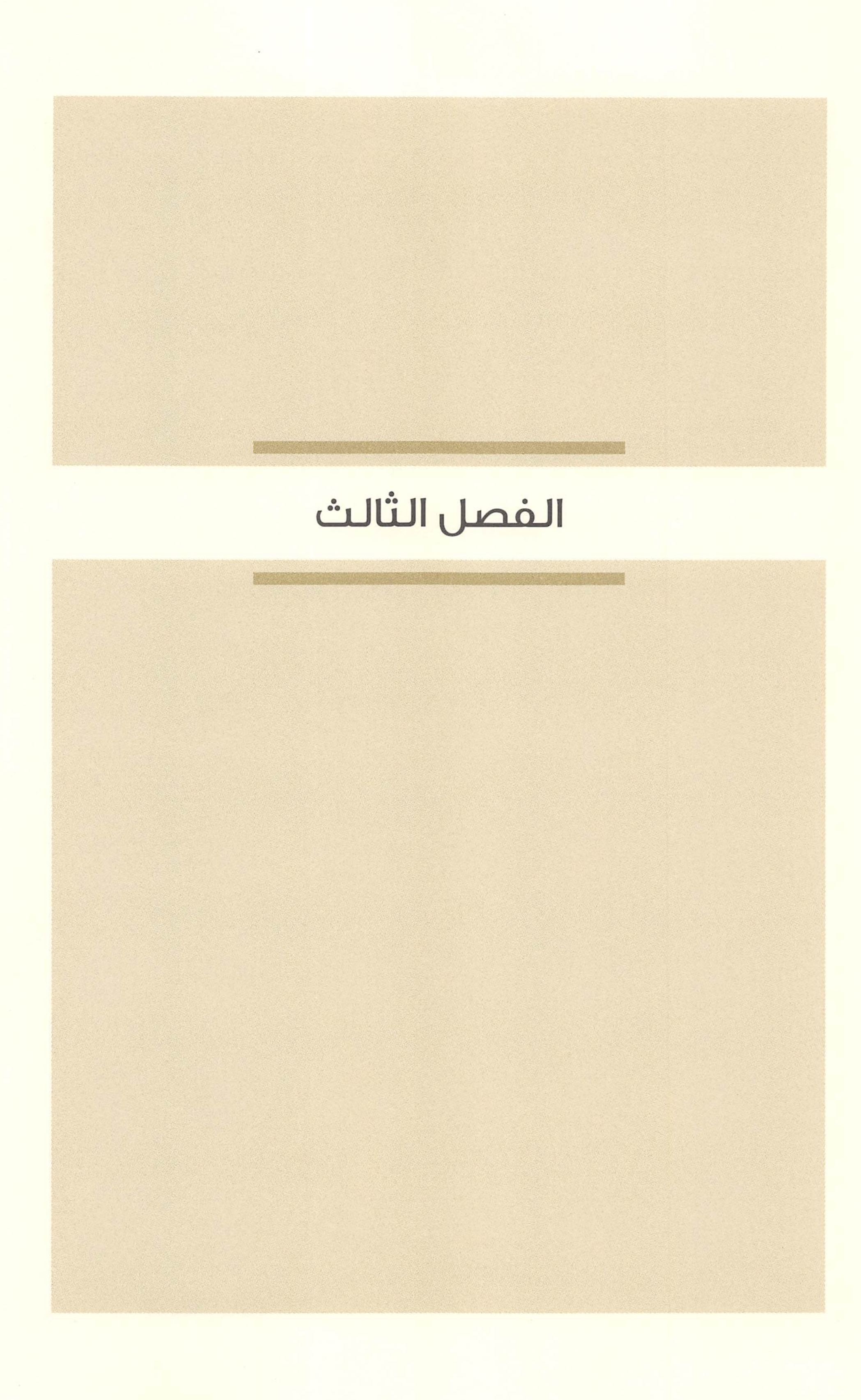
ودرءًا لاعتداءات السُّفن المعادية، فقد قرَّر الفرس كما يَذكر المؤرِّخون الأوائل إغلاق نهر قارون وهو أكبر أنهار الفرس في وجه الملاحة، فقد تمَّت هذه العملية بوضع الأحجار الضخمة عبر النهر على هيئة سدود، وقد بقيت تلك الأحجار في مكانها حتى مجيء الإسكندر الذي حاول إزالة تلك

الأحجار بعد عودته من الهنـد إدراكًا منه بأهمية التجـارة والتبادل التجاري لمنطقة الخليج، غير أن الإسكندر توفي قبل أن يتم المشروع.

وعلى أية حال فإنه من المؤكَّد من الوجهة العملية بأن تلك السـدود قد أُقيمت لغاية واحدة وهي الري كما هو حاصل الآن في الجزء الأسفل من نهر الفرات. لقد بقيت تلك السـدود في نهر قارون حتى نهايـة القرن الثامن إلا أنها قد زوِّدت بفتحات لعبور المراكب الصغيرة، وعلى أي حال فلا يبدو أن الفرس كانوا معرَّضين بأي تهديد يأتي من البحر.

وأنه على الرغم من أن تجارة بابل البحرية قـد انخفض معدلها في ظلِّ الفرس إلا أنها لـم تتوقف نهائيًا، ولهـذا فمن المحتمل أن يكون النشـاط الملاحي قد عاد ولـو مؤقتًا إلى مياه الخليج مع فتوحات الإسـكندر الأكبر خلال الجزء الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

وابتداءً من ذلك التاريخ تجمَّعت لدينـا الأدلَّة القاطعة عن حركة التبادل الملاحي فيمـا بين موانئ الخليج والهند وشـرقي أفريقيـا، إلا أنه في عهد سـيطرة الرومان كانت إمبراطوريتهم تحتل الصدارة في المياه الشرقية، وكان البحر الأحمر هو الطريق الرئيسي للاتصالات بين الشرق والغرب وقد احتفظ بذلك المركز حتى سـقوط الإمبراطورية الرومانيَّة في مستهل القرن السادس بعد الميلاد.



الفصل الثالث



الخليج في العصور الوسطى

كانت عُمان من النواحي الجغرافية والسياسيَّة والتاريخيَّة أكثر أجزاء شبه الجزيرة العربية عُزلة، وبالنسبة لاتصالات عُمان بالأقطار العربية الأخرى فقد ظلَّت لقرون عديدة أشبه بجزيرة يفصلها البحر من ناحية والصحراء من الناحية الأُخرى، كما يُعتبر سكانها العرب في المستوى الحضاري كسائر العرب الآخَرين بوجه عام.

ومسقط هي المدينة الوحيدة من مدن عُمان التي انفتحت على العالم كله، كما أنها الميناء الوحيد الذي تزوره وتغادره السفن، كما أن الحكم التركي لم يمتد إلى عُمان ولا حتى في عهد سليمان الكبير.

ومن ناحية أخرى فإن الخلفاء المسلمين الأوائل لم يمارسوا السيادة على عُمان لفترات طويلة، فقد بقي حُكَّامها قرونًا عديدةً حُكَّامًا مستقلَين سواءً في عهد الأئمة أو في عهد السلاطين ولم يخضعوا لأحد، وسكان عُمان بوجه عام عرب مسلمون، وهم ينحدرون من قبيلتين عربيتين رئيسيتين هما قبيلة قحطان وعدنان، وقد ظلَّتا هاتان القبيلتان على عداء إحداهما مع الأُخرى فترة من الزمان.

بهذا التوضيح يلخِّص زويمر تاريخ عُمان كبلد لعب دورًا بارزًا في تاريخ

الخليج. أما تاريخ عُمان القديم فيكتنفه الغموض، والإشـارات التي وردت عن هذا التاريخ في مؤلَّفات الكُتَّاب الكلاسيكيين لا تَجود بمعلومات وافية عن الأوضاع السياسيَّة في عُمان في العصر القديم، ذلك أن هذه المعلومات تختصر على الجوانـب الجغرافيـة والتاريخية، وتتناول الأجزاء السـاحلية لعُمان.

وحتى المؤرخين العرب البارزيـن لا يقدِّمون بيانـات وافية عن تاريخ عُمان سوى بعض الملاحظات العارضة، وهذه الملاحظات تتناول الأحداث قبل استقلال عُمان في ظلِّ الخلافة الشرقية وخلالها. ولم تتوفَّر لنا معلومات تاريخية يُعتد بها إلا في كتاب «كشف الغمة».

ومع ذلك فلا يمكننا الآن تحديد أبعاد التاريخ العُماني القديم، وإن كان من الممكن الآن بوجه عام أن نقول بأن عُمان كانت تضمُّ مساحة أوسع مما تضمُّـه الآن، وأن حدودها قد امتدت غربًا إلى اليمن وامتدت شـبه الجزيرة العربية.

وتكاد معرفتنا عن أوائل السـكان الذين اسـتوطنوا عُمان أن تعتمد في معظمها على الروايات المتناقضة فمن هنا فهي معلومات باهتة ومتقطعة، إلا أنه من الطبيعي أن يرتبط تاريخ عُمان بتاريخ شبه الجزيرة العربية.

ويتراءى لنا أن سـكان عُمان الأوائل ينحدرون من السـلالة الأوروبية ـ الأفريقية (الحامية) كما يبدو أيضًا أن أولئك السكان قد تفرَّقوا أو قد امتصتهم هجرات سامية كبرى خرجت من الشمال وكانت تتألَّف من سلالتين رئيسيتين هما القحطانيون أي: (أبناء قحطان) الذين استوطنوا اليمن، والعدنانيون (أي: النزاريون) الذين استوطنوا ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب.

وحسب الروايات التي يتناقلها عرب عُمان أنفسهم فإن العُمانيين ينتمون إلى تلك السـلالتين، ويقول القحطانيون إنهم هم أول من اسـتوطن عُمان،

بينما جاء العدنانيون إليها في مرحلة لاحقة من التاريخ، وأن هؤلاء أقل نقاءً من حيث أصلهم العربي. ويبدو لنا أن موجات عديدة من موجات الهجرة إلى عُمان من تلك السلالتين قد تعاقبت على عُمان.

وكان أول اليمنيين الذين استوطنوها هم اليعاربة من الأصل القحطاني، بينما تنتمي الموجة الأخرى من المهاجرين إلى الأزد (وهم يشكِّلون النسبة الكبيرة من سكان عُمان الحاليين) والوجوب هم أحفاد كهلان، وكانوا في الأصل يستوطنون اليمن أيضًا.

ويُعزى تفرق الأزد في أرجاء عديدة من شبه الجزيرة العربية إلى انهيار سد مأرب الأمر الذي اضطرهم إلى مغادرة سبأ والاتجاه ربما نحو الشرق، غير أن تلك الواقعة ينبغي اعتبارها مجرَّد سبب عارض في استيطان العُمانيين لعُمان.

أما قبل تلك المرحلة من التاريخ فقد كانت عُمان كما تذكر الروايات تخضع القحطانيين اليمنيين، ويقال إن يعرب الذي هو من سلالة قحطان قد استطاع أن يفرض سيطرته على جنوب شبه الجزيرة العربية كلها بما في ذلك عُمان وحضرموت.

لقد حدث ذلك في فترة تسبق التاريخ الميلادي بمقدار من ٧٠٠/ ٨٠٠ عام. وقد خرج من سلالة يعرب عدد كبير من أئمة عُمان ابتداء من عام ٦٢٤م إلى ٧٤١م، وقد خلف يعرب نجله يشجب ثم حفيده عبد شمس جد حمير (مؤسِّس أسرة حمير) وكهلان ولم يتأكَّد تاريخيًّا مَن هو الذي خلف حمير مباشرة، هل كان أخوه كهلان أو نجله وائل أو حفيده شمَّر، إلا أنه قد اتضح أن وائل قد حكم عُمان كذلك اعترف شمر بسيادة الفرس على عُمان الأمر الذي يؤكِّد أن الفرس كانوا يسيطرون على عُمان خلال تلك المرحلة، لعلَّها في عهد سيروس العظيم وذلك عام ٥٣٦ قبل الميلاد.

ثم أمكن طرد الفرس من عُمــان بعد ذلك بمعاونة المهاجرين الجُدد من اليمن من قبيلة الأزد، وهذه المجموعة مــن الأزد بزعامة ناصر نجل أزد هي التي توجَّه أفرادها إلى عُمان فيما بعد وسُمُّوا بأزد عُمان.

وبعد مضي ســبعين عامًا على ذلك الحادث استقر قسم من تلك القبيلة في البحرين التي كانت تشــمل في ذلك الوقت مســاحة واسعة من أراضي شرقي شبه الجزيرة بالإضافة إلى الجزيرة المعروفة الآن بذلك الاسم.

كما أنه من المحتمــل أيضًا أن يكون بعض مجموعــات من الأزد قد نَزَحت إلى عُمان من أراضي نجد إلا أن تاريــخ هجرتهم غير مؤكَّد، وإذا شــئنا الدقَّة فقد تكون تلك المجموعة من ســلالة حطمة بن أنمار بن نزار بعد معد بن عدنان الــذي يُعتبر من ســلالة ابر (البطريك ابر) من نســل إسماعيل، ويعتقد أنهم من أصل عدنان أو نزار وهو اللقب الذي يعرفون به في عُمان. وبمضي الوقت وصل مهاجرون جُدد إلى عُمان من كل من نجد واليمن.

لقد تحدّثنا بإسهاب في هذا الشــرح الوجيز عن سكان عُمان، وبيَّنَّا أنهم قد وفدوا إليها مــن مناطق مختلفة في فترات تاريخيــة مختلفة غير أن هناك أمرًا واحدًا لا يأتيه الشــك وهو أن أزد اليمن كانوا الفئة المسيطرة والحاكمة في عُمان حتى نهاية القرن السادس عشر. وقد ذكر البلاذري في سياق حديثه عن فترة قريبة على ظهور الإســلام بأن الأزد هم سكان عُمان الأصليين إلى جانب جماعات أُخرى كثيرة غيرهم.

وفي نحو هذه الفترة سيَّر ملك فارس أنو شــروان (خسرو الأول) جيشًا عرمرمًا إلى اليمن بقيادة وهرز فأخضعها وضــمَّ حضرموت والمهرة وعُمان والبحرين إلى الإمبراطورية الفارسية.

غير أن هذه الأقاليم، على أية حال لم تبق وقتًا طويلًا تحت حكم الفرس إذ سرعان ما ظهر في شبه الجزيرة العربية الرسول محمَّد ﷺ الذي أَسلمت له اليمن ونجد فبَعَث النبي ﷺ برسول إلى عُمان وكان يحكمها يومئذٍ جيفر وعبد نجلي الجلندى، وقد دعاهم الرسول للدخول في الإسلام ونَبْذ الوثنيَّة وقد استجاب الحاكمان العُمانيان لدعوة الرَّسول بسرعة.

وفي عهد أبي بكر الصِّدِّيق أعلنت عُمان وحضرموت والبحرين الثورة، فأرسل أبو بكر بعض القوَّاد المسلمين إلى عُمان ونجح في نهاية الأمر في إعادة الأمور إلى نصابها، كما يذكر البلاذري أن عمر بن الخطَّاب خليفة أبي بكر قد عيّن في سنة ١٥ بعد الهجرة (٦٣٦م) عثمان ابن أبي العاص حاكمًا على عُمان والبحرين مما يحمل على الاعتقاد على أن عُمان كانت تخضع لحكم الخليفة الإسلامي في تلك الفترة.

وعلى أية حال فإن سلطة الخليفة على عُمان كانت على ما يبدو سلطة اسمية، واحتفظت بطابعها هذا إلى أن تولَّى الخليفة الأموي عبدالملك سنة ٦٥هـ أي (٦٨٤م) فأرسل عدَّة حملات عسكريَّة إلى عُمان وتمكَّن أخيرًا من فرض سيطرته عليها، وعيَّن على عُمان حاكمًا اختاره بنفسه.

وبمرور الوقت تم تعيين بعض العُمانيين في وظائف أدنى كجمع الزكاة، وأخيرًا عُيِّن جناح بن عبادة من قبيلة النهاوية واليًا على عُمان.

وقد استفاد العُمانيون من ذلك الوضع فقاموا في سنة ٧٥١م بتعيين حاكم من بينهم وهو الجلندى بن مسعود ومنحوه لقب الإمام. أما الحكام الذين سبقوا الجلندى فلم يكونوا يحملون أي لقب على ما يبدو، ومن المحتمل أن تكون النزعة لدى العُمانيين إلى الاستقلال بدافع العقيدة؛ نظرًا لأن الإباضيين قد أصبحوا في تلك الفترة الفئة الأقوى.

منذ ذلك الوقت أي: منـذ عهد الجلندى وإلى نهاية القرن الثاني عشـر باسـتثناء فترة اعتراضية تقدر بنحو ٢٦٠ عامًا أي: ابتداءً من ١١٥٤م تمكَّن بنو نبهان من الاسـتيلاء على الحكم وإنشاء أسرة الملكيين أو الملوك النبهانيُّون الذين شمل حكمهم الجزء الأكبر من داخلية عُمان.

ومنذ ذلك الوقت ظلَّت عُمان تخضع لحكم سلسلة من الأئمة المنتخبين الذين كانوا يجمعون بين السـلطة العسكريَّة والسياسـيَّة والدِّينيَّة، وكان يتم انتخابهم غالبًـا من قبيلة الأزد وبني هناءة، والكنود مـن قبيلة اليعاربة، وقد ظلَّ الأئمـة يحتفظون بالعاصمـة في داخليـة عُمان كنـزوى وإزكي وبهلا والرستاق وجبرين.

وإذا استثنينا ما وقع من أحداث خلال تلك الفترة، فقد كانت فترة تتميز بالصراعات القبلية والسياسيَّة للاسـتيلاء على الحكم، مما لا يسمح المجال هنا بسردها. (وقد ورد تفصيل هذه الأحداث في كتاب كشف الغمة) غير أن في بعض تلك الأحداث مواقف هامَّة تقتضي الإشارة إليها.

خلال إمامة الوارث قام الخليفة هارون الرشـيد (٧٨٩/ ٨٠٩م) بمحاولة غير ناجحة لفرض سيطرته على عُمان، كما بذلت خلال حكم غسان محاولة لقمع نشـاط إحدى الجماعات التي كانت تُمارس القرصنة بشكلٍ واسعٍ في المياه العُمانية، وكانت تتخذ في شمال نهر الأنديس قاعدة لها، والإشارة إلى هذا الحادث لها أهميتها إذ أنها تكشـف عن مقدرة العُمانيين ومهارتهم في البحر والشؤون الملاحيَّة.

ووسط هذه الفوضى أصدر الخليفة العباسي المعتضد بالله (٨٩٢/ ٩٠٢م) أَصدر أمره إلى عامله في البحرين محمَّد بن نـور بأن يغزو عُمان، ويقال إن محمَّد بن نور نفَّذ تلك الأوامـر بجيش قوامه ٢٥ ألـف مقاتل معظمهم من

قبائل نزار وطيء، وقد غادرت عُمان أعداد كثيرة من الأسر العُمانية والتجأت إلى هرمز والبصرة وشيراز بينما أخذ محمَّد بن نور يمارس الحكم بقوة الحديد والنار، كما ارتكب فظائع لم يسبق لها مثيل ضدَّ السكَّان، ودمَّر قنوات المياه وأَحرق الكتب وعاث خرابًا في البلاد.

وعند عودة محمَّد بن نور إلى مقره في البحرين ترك حاكمًا آخَر مكانه؛ ولكن هذا الحاكم راح ضحية انتقام الشعب وغضبه على ما ارتكبه محمَّد بن نور من فظائع.

وبعد هذا الحادث تولَّى الحكم في عُمان وبالتتابع ما لا يقل عن سبعة أئمة تم انتخابهم خلال فترة امتدت ثلاثين عامًا؛ ولكن أهل عُمان ظلُّوا يدفعون الجزية على فترات متقطعة للخلفاء. وبعد ذلك تعرَّضت عُمان إلى غزو واحد من قوات الخلفاء أو من المحتمل أن تلك القوات قد استدعيت من جانب العُمانيين للمساعدة في تسوية الخلافات التي كانت قائمة بين العُمانيين.

أَما بعد تلك الفترة وبالأَخص في العام الألف بعد الميلاد وعلى أثر تفكُّك الإمبراطورية العباسيَّة لا نقف على معلومات عن تدخّلات جديدة في شؤون عُمان من جانب الخلفاء.

وهكذا عاد العُمانيون إلى ممارسة أسلوبهم في الحكم بهدوء تام إلا أَنه عند انتصاف القرن الثاني عشر استولى النبهانيُّون على الحكم في عُمان وأخضعوا أكثرية المناطق لسلطتهم إلى أن عادت الإمامة مرة أخرى في عام ١٤٢٤م، إلا أنه من ناحية أخرى واصل النبهانيُّون ممارسة نفوذ كبير على امتداد قرنين تقريبًا، ولم تتداع قبضتهم على الحكم إلا في عام ١٦٢٤م عندما بدأ الأئمة اليعاربة حكمهم للبلاد.

وحسب ما ورد في كتاب «كشف الغمة» تعرضت عُمان أثناء حكم الملوك النبهانيُّون لغزوتين من فارس إحداهما قام بها سكان شيراز، وذلك في عام ١٢٦٥م والأخرى بعد الأولى بقليل، وقام بها الأمير محمود بن أحمد الكوشي حاكم هرمز، وكانت في ذلك الوقت محمية من أصل عربي داخل مقاطعة كرمان، وينتمي هؤلاء الغزاة إلى الأصل المغولي، وكانوا يومئذٍ سادة فارس كلها وقد رد الغزاة على أعقابهم في المرة الثانية وإن كان ملوك هرمز استمروا في الادعاء بالسيادة على الأجزاء الساحلية حتى القرن السادس عشر.

وهذه الفترة تمثل حقبة انتقالية في تاريخ عُمان، وذلك بظهور البرتغاليين في الخليج. وهنا تأتي روايتنا لتاريخ عُمان المبكر إلى نهايتها، بحيث نعود إلى التقاط هذا الخيط عندما نتحدَّث عن قصة نشاط البرتغاليين في مياه الخليج الذي يرتبط به تاريخ عُمان وحتى القرن السابع عشر ارتباطًا لا انفصام منه.

ولم يبق لدى المؤرِّخين ما يذكرونه إلا قليلًا من المعلومات والأَدلَّة عن حملات الغزو المتتالية التي قام بها الفرس على عُمان.

وعلى أية حال فمن المحتمل جدًّا أن يعود الفضل في بناء قنوات المياه الجوفية التي تغطي أراضي عُمان الزراعية إلى الفرس، وهذه القنوات تشبه القنوات التي في الأحساء، كما تشبه السدود الحجرية التي تم العثور عليها على ساحل الباطنة في عُمان، كذلك من المحتمل أن تكون الخبرة الزراعية للفرس قد ساهمت في تطوير أساليب الزراعة في عُمان، بحيث أظهر العُمانيون براعة فائقة فيها. أما بالنسبة للغة الفارسية والمذهب الفارسي والفلسفة الفارسية فلم يبق في عُمان أي أثر لها.

• البحرين

خلال القرون الأُولى من عصرنا هذا كانت البحرين (وهو الاسم الذي يُطلق الآن على هذه الجزيرة) التي تقع على الضفَّة الوسطى للجانب العربي من الخليج تُعرف باسم الحجر وهو الاسم الذي استمدته من اسم المقاطعة الرئيسيَّة التي كانت تضمُّ عددًا من المدن والقرى الصغيرة كان يُسمى أكبرها بالحجر، كما كانت تضمُّ أيضًا المنطقة المعروفة الآن باسم الأحساء، إلا أن التاريخ الأول لهذه المنطقة قد تبعثر إلى حدٍ كبيرٍ.

ولا توجد لدينا معلومات أكيدة عن المستوطنين الأوائل للبحرين فأول من ألقى بعض الضوء على تاريخها هو الطبري الذي عاش في القرن التاسع، وقد ذكر هذا المؤرِّخ ما يأتي:

«في عهد الملوك الاشكانيين (من القرن الثالث قبل الميلاد حتَّى القرن الثالث بعد الميلاد) لم يكن للعرب أي وجود في العراق، فيما عدا عرب قبيلة معد بن عدنان وهم سلالة الذين أخذهم الملك بختنصر أَسرى من الجزيرة العربية. أما بقية العرب فقد كان معظمهم في الحجاز أو في الصحراء أو في مكة أو في اليمن، حيث كانوا يعانون من مشكلة الغذاء ومن الحروب والصراعات الداخلية؛ ولهذه الأسباب فقد نَزَح عدد كبير من ملوك وسادة العرب والحجاز من مواطنهم، ولكنهم لم يجرأوا على دخول العراق خوفًا من الملوك الاشكانيين، ومن ثم فقد استقرُّوا في البحرين واليمامة، وكانت اليمامة تقع في صحراء تضمُّ عددًا كبيرًا من المناطق تُسمَّى إحداهما الحجر والأُخرى الأحساء، بالإضافة إلى سبعة أو ثمان مُدن أُخرى يحتلَّها الآن القرامطة».

ويعزو كوسين دي بيرسفال تاريخ تلك الأحداث إلى سنة ١٩٠ بعد

الميلاد تقريبًا، وهو يعطـي قصة خيالية إلى حدٍّ ما ربما اسـتقاها من كتاب الأغاني، وهو يتفق في الخطوط الرئيسية مع الطبري ويقول دي بيرسفال:

«كان على رأس تلك المجموعة من الأُسر مالك وأخوه عمر وابن أخيهما زهير وقد وصلوا في عام ١٩٠ بعد الميلاد إلى منطقة الحجر، وكانت تشـكِّل المنطقة الرئيسية للبحرين غير أن سكانها الفطنين حاولوا منعهم من الاستيطان مما اضطر القادمين إلى قتالهم وطردهم من مواطنهم ليحلوا محلهم.

ولكن قبـل أن يقـوم الأزد بطرد السـكَّان الأصليين استشـاروا إحدى الكاهنات وكانـت تُدعى زرقـاء اليمامة وكانـت ابنة زهير وشـقيقة مالك فأجابتهم زرقاء بأن هذا المكان سـيكون لكم إلى أن يأتـي طائر بحلق في قدميه وسيقف على نخلة ثم يطير وهو يغرِّد فاتبعوه إلى الحيرة إلى الحيرة».

وربما استمد هؤلاء المهاجرون لقب تنوخ أو التنوخيين من هذه الرواية، وقد انضمَّت إليهم جحافل أُخـرى من العرب من بينهم أحفـاد الكنود من الحجاز وهم فرع مـن قبيلة إياد، كما انضمَّت إليهـم فصيلة من الأزد الذين كان يتزعمهم مالك، وهؤلاء الأزد هم جزء من أحفاد العرب الذين نزحوا عن أرض مأرب مع عمرو موزيقيـا، غير أنه لا يعرف المـكان أو المنطقة التي قَدموا منها إلى البحرين، والبعض يرى أَنهم جماعة انفصلوا عن الأزد الذين كانوا يسـتوطنون بطن المر في تهامة بينما يعتقد البعـض الآخَر أنهم قدموا إليها من عُمان التي كان الأزد قد أقاموا فيها مستوطنات.

كل هذه العناصر ذات الأصول والانتماءات المتباينة قد شـكَّلت تحالفًا فيما بينها، وتعهدوا بـأن يناصروا بعضهم البعض، وأن يكونـوا يدًا واحدةً، ومنذ ذلك الوقت أصبحوا يُعرفون بالتنوخيين.

بعد أن أقام التنوخيون بضع سنوات في البحرين شاهدوا ذات يوم بومة،

وكانت قدماها مذيلةً بحلقٍ ذهبيةٍ، وكانت تقف على إحدى شجيرات النخيل ثم طارت وهي تطلـق صوتًا حادًا، عندئذٍ تذكَّروا ما قالتـه لهم العرَّافة زرقاء اليمامة، ومن ثم بـدءوا رحلتهم متعقبيـن ذلك الطائر الذي سـار بهم إلى العراق. وقد نزلوا في نفس المكان الذي نزل فيه مالك وأَسَّس فيه لأول مرة مدينة الحيرة. ويبدو أن هـذه القصَّة التي ذكرها صاحـب الأغاني هي أقدم قصة تتناول أصل التنوخيين.

وهناك مؤرِّخون آخَـرون لهم رأي أكثـر منطقية من قصـة الطائر حول استقرار تلك القبائل في العراق، وهم يعتقدون أن هذا الحادث قد وقع خلال إمبراطورية الأرساسـين أو ملوك الطوائـف، وكانت هـذه الإمبراطورية قد أخذت تتفكك وتنهـار بفعل الثورات والحروب المدمِّـرة، وكان العراق في ذلك الوقت من المناطق المعرَّضة للغزو.

وهكذا أدرك عرب البحرين أن الظروف في العـراق قد أصبحت مواتية للاسـتيلاء عليها خصوصًا وأن العراق كانت أخصب وأغنـى من البحرين، ومن ثم فقد عقـدوا العزم على تنفيـذ تلك المغامرة، وهكـذا انقضوا على العراق في موجـات عارمة متعاقبة وتمكَّنوا من طرد سـكانها الأرمانيين من عاصمـة حكامهم كلدة، وحلُّـوا محلَّهم، ويقال إن أغلبية هـؤلاء العرب قد أقاموا في منطقة الأنبار الواقعة على نهر الفرات والقريبة من الفالوجا.

ونعرف من الطبري أنه في عهد الملك أربوشير (بداية القرن الثالث) كان يحكم البحرين ملـك يُدعى سـتيرون، وكان يقيم داخل قلعـة منيعة. وفي أعقاب حمـلات الفتح التي قادها أربوشـير واسـتولى فيها علـى الأقاليم المحيطة بفارس أرسل جيشًـا إلى البحرين وتمكَّن ذلك الجيش بعد حصار دام عامًا واحدًا من الاستيلاء على الحامية وعلى ما كان فيها من ثروات، ثم عاد إلى فارس بعد أن عيَّن نجله شهبور الأول حاكمًا عليها.

وإذا عُدنا إلى بداية الشطر الأول من القرن الرابع نرى أنه خلال حكم الملك شهبور الثاني وقبل بلوغه سن الرشد أي (عام ٣٠٩ ـ ٣٢٥م) قامت القبائل العربية في البحرين بشنٍّ غارات متتالية على أراضي شهبور. غير أن شهبور هاجمهم وتمكَّن من إبادة عدد كبير منهم، فلجأ بعضهم إلى العراق بينما عاد بعضهم إلى ديارهم الأصلية.

ولما كان شهبور ينوي الاستيلاء على هذه المناطق في وقت لاحق، فقد قام بالزحف بجيشه على الخليج، وقام بعملية إنزال على ساحل القطيف، وقد تمكَّن من الاستيلاء على منطقة الحجر وإبادة معظم أفراد قبيلة عبد قيس، كما شنَّ حملات انتقام رهيبة على قبائل الخطم وتميم. وبعد أن سئم شهبور من عمليات التنكيل والإبادة طلب من أفراد جيشه بأن يغرسوا الرماح في أجساد خصومهم وأن يربطوهم بالحبال ويجرُّوهم أسرى إلى بلاطه. وقد اكتسب شهبور بتلك الأعمال الوحشية في تاريخ الشرق لقب «ذو الأكتاف».

أما الفترة الثانية التي برزت فيها البحرين فهي الفترة التي توافقت مع ظهور الإسلام في بداية القرن السابع، ويومئذٍ كانت دعوة الرسول ﷺ تمتد شرقًا بسرعة حتى أن الرسول ﷺ قد بعث في السنة التاسعة من بدء الرسالة (أي عام ٦٢٢م) برسول هو العلاء بن الحضرمي للاتصال بالمنذر زعيم قبيلة عبد قيس وكان يومئذٍ واليًا على البحرين بالنيابة عن خسرو الثاني ملك فارس وذلك لدعوتهم للدخول في الإسلام.

وقد استجاب أهل البحرين للدعوة وكانت قبيلتا عبد قيس وبني بكر في مقدمة القوى البارزة التي اعتنقت الإسلام، وقد ظلُّوا معتصمين بالدين الإسلامي حتى خلافة أبي بكر.

وفي أعقاب وفاة المنذر ارتدّ أهل البحرين عن الإسلام بعد أن وجدوا

أنفسهم معزولين، غير أن شخصًا يُسمَّى جارود استطاع إعادة بني قيس إلى رحاب الإسلام.

وأما بنو بكر فقد استمروا في ارتدادهم بل حاولوا تنصيب ملك من بينهم، وقد أوفد أبو بكر العلاء أحد قوَّاده من الحضارمة لقمع التمرُّد، وقد تمكَّن جيش هذا القائد من إخضاع نجد واليمامة في نفس الوقت حتى وصل إلى موطن حلفاء الإسلام في المنطقة الواقعة بين اليمامة والبحرين.

وكان قائد التمرّد قد نصب نفسه حاكمًا على القطيف ومعظم المناطق التي تضمّها منطقة الحجر، كذلك استطاع العلاء بن الحضرمي أن يستولي على منطقة جواثة بعد حصار طويل، وفي تلك الأثناء توفي قائد التمرّد مما مكّن القائد الإسلامي من الاستيلاء على منطقة دارين في الخليج وعدد كبير من الأَسرى والغنائم، وبذلك تم له فرض سلطة الخليفة على المنطقة.

وقد تخلَّف العلاء الحضرمي في البحرين بعد أن عيّنه الخليفة أبو بكر واليًا عليها، وأما الجيش فقد عاد إلى المدينة. وبعد ذلك خضعت البحرين لسلطة الخلفاء الأمويين، وفي عهد العباسيين ألحق البحرين بعُمان واليمامة، وظلَّت حتى ظهور القرامطة فاغتصبوا السلطة.

في عام ٦٣٩م تقريبًا قام العلاء بن الحضرمي بمحاولة غير ناجحة لضمِّ المناطق الشرقية إلى الخلافة، وجهَّز حملة عسكريَّة عَبَر بها الخليج لإخضاع فارس وقد ترك السُّفن بغير حماية وتوغَّل بجيشه داخل البلاد دون أن يلقى مقاومة في البداية، غير أن معركة عنيفة نشبت عند التقاء جيش المسلمين بالعدو (الفرس)؛ ولكن المسلمين تعرَّضوا لحصار من جانب الفرس مما حمل القائد على إيفاد مبعوث إلى المدينة طلبًا للنجدة والإمدادات، وقد جاءه القائد عتبة بقوة مؤلَّفة من ١٢ ألف ونزل في الأجزاء الشمالية من ساحل

الخليج وتمكَّنت تلك القوَّة من الالتقاء بالجيش الإسلامي المحاصر، وقد دمَّرت القوات الفارسية وانسحب المسلمون إلى البصرة. وفي الفصل التالي سوف نتناول أحداث الفتح العربي لفارس.

ويحدثنا ابن قرطبة الذي كتب في سنة ٨٦٤م يقول:

«إن القرصنة في تلك الفترة كانت منتشرة على سواحل البحرين، وكان أهل البحرين يمارسون القرصنة، ولم تكن لهم حقول زراعية يعيشون منها بل كانوا يمتلكون الإبل ومزارع النخيل، وكان من بين مدن البحرين وقراها في ذلك الوقت الحجر، والقطيف ودارين، وقد أشار ابن قدامة إلى المناطق الثلاثة الأخيرة وذكر بأن حصيلة دخل الخليفة من كل تلك المناطق بما في ذلك اليمامة وفقًا لجدول الضرائب المعمول به في سنة ٢٣٧ بعد الهجرة هو مبلغ ٥١٠,٠٠٠ دينارًا، ويعلق ابن قرطبة تعليقًا غريبًا عن مناخ البحرين ويقول بأنه يحدث إمساكًا في المعدة، كما يقول بأنه يزرع في هذه المنطقة نوع من التمر يُسمَّى الأَنابيج ويُستخرج منه نوع من الشراب يمكنه أن يغير اللون الأصفر إلى الأبيض».

ويقول ناصري خسرو بأن البحرين تسكنها قبيلة عبد قيس التي نزحت إليها من تهامة، وقد زار خسرو البحرين بنفسه وكان في طريق عودته من الحج عام ١٠٥١م، وكانت البحرين في الأصل مجرد حامية تقع بالقرب من الحجر العاصمة القديمة للإقليم، ويقدِّم المؤلِّف صورة مشرقة ومحببة عن تاريخ المنطقة وأحوالها الاجتماعيَّة.

وأما عن الأحساء فإنه يقول بأن الذي أنشأها أبو طاهر الجنابي زعيم القرامطة، وذلك في عام (٣١٤هـ ـ ٩٢٦م) وأطلق عليها اسم المؤمنية، وكان القرامطة قد استولوا على البحرين في ذلك الوقت وكان يحكمها رئيس من بينهم ويُدعى أبو سعيد.

كذلك يذكر خسرو بأن البصرة كانت أقرب مدينة إلى الأحساء تخضع لسلطة المسلمين وتبعد عنها نحو ١٥٠ فرسخًا. ولم يجرؤ أي أمير من أمراء البصرة على مهاجمة الأحساء ويستطرد خسرو في وصفه فيذكر:

«وتطلق لفظة الأحساء على البلدة وضواحيها والمنطقة التي تحيط بها والقلعة أيضًا وتحيط بالبلدة أربعة أسوار حصينة قوية البنيان، ويفصل الواحد منها عن الآخَر مسافة فرسخ واحد، وبها مصادر للماء كثيرة في إمكان كل واحد منها أن يدير أربعة معامل، وينقل الماء بشكل جيد، بحيث لا يتسرب إلى الخارج.

وفي وسط البلدة مدينة جميلة مزوَّدة بالتحصينات والاستحكامات وبجميع المرافق التي تتميز بها المدن العظيمة ويعسكر فيها أكثر من ٢٠ ألف جندي.

وكان يحكم الأحساء باعتبارها دولة ذات سيادة رئيس يُدعى أبو سعيد وقد أخرج الناس عن دين الإسلام وأعفاهم من أداء الصلاة والصوم وأقنعهم بأنه ملاذهم وملجؤهم الوحيد.

وعندما كان يسأل الأهالي عن الدولة التي ينتمون إليها يجيبون بأنهم أبو سعيديون وقد وعد أبو سعيد أتباعه بأنه سوف يظهر لهم بعد الوفاة، وقد بَنَى له ضريحًا جميلًا داخل المدينة، وكانت أمنيته الأخيرة هو أن يتولى خلفاؤه الستة شؤون البلاد وأن يحكموا الناس بالعدل والمساواة، كما أمرهم بأن يحافظوا على وحدتهم إلى أن يظهر لهم.

وحتى هذا اليوم يقيم ورثة أبو سعيد في قصر منيف هو مقر الحكم وفي داخل القصر أرائك يجلس عليها أبناءه الستة ويديرون منها شؤون الحكم ويصدرون المراسيم والأوامر بصورة جماعية ويعاونهم في ذلك شبه مجلس

وزراء يجلس أفراده في المقاعد الخلفية ويتم الفصل في كل القضايا بالتشاور فيما بينهم.

ويقول خسرو إني عندما كنت في الأحساء كان لدى الأمراء ٣٠ ألف عبد زنجي أو حبشي وكانوا يستخدمون في إدارة الزراعة والحدائق ولم يكن الأهالي يدفعون أي ضرائب وكل من يجد نفسه من المواطنين في حالة من الدَّين أو الفقر يقدم له المعونة المالية بدون فوائد إلى أن تتحسَّن ظروفه.

وكل غريب يزور الأحساء ويُجيد حرفة تجارية تقدم له مساعدة مالية لاستغلالها في تلك الحرفة إلى أن يضمن لنفسه موردًا يعيش منه، كما يمكنه شراء ما يلزمه من معدات وأدوات لحرفته إذا رغب في ذلك، كما أنه لا يسدد السلفة التي صُرفت له.

وإذا تعطل معمل أو إذا كان صاحبه عاجزًا عن القيام بالإصلاحات المطلوبة يصدر الوالي أوامره لبعض الخدم والعبيد لإجراء الإصلاح المطلوب دون مطالبة صاحب الحرفة أو البيت بدفع تكاليف الإصلاحات، كما كانت بعض المصانع في الأحساء مملوكة للدولة، وكانت عمليات طحن الدقيق تؤدَّى مجانًا للمواطنين، والحكومة هي التي تتحمّل أجور العمَّال والصيانة.

وكان الأمراء يلقَّبون بالسادة والوزراء بالمستشارين.

ولم تعد توجد في الأحساء مساجد لأداء فريضة الجمعة كما لا تقرأ الخطبة، وقد تم بناء مسجد لحساب أحد المواطنين الفرس يُدعى علي بن محمَّد، وكان هذا الفارسي متمسّكًا بمناسك الدِّين وقد أَدَّى فريضة الحج أيضًا، وقد جمع هذا الرجل ثروة ضخمة وكان يقدِّم المساعدات المالية للحجَّاج الذين يأتون للأحساء.

أما المعاملات التجارية فقد كانت تتم عن طريق قِطع من الرصاص

توضع في سلال أو أكياس ويضمُّ كل كيس ٦٠٠٠ درهم، وعند إجراء إحدى الصفقات فإنهم يعدون بعض تلك الأكياس للتأكُّد، وهذه النقود محظور تصديرها للخارج.

وكانت الأحساء تنتج نوعًا فاخرًا من الفوط تُصدَّر إلى البصرة، ولا يمنع الأجانب من أداء الصلاة وعندما يتقدم المواطنون إلى رجال الدولة يخاطبهم الأمراء بلهجة تتسم بالرقَّة والاحترام.

وسكان الأحساء لا يتعاطون المسكرات، وقد وضع جواد عليه سرج عند باب ضريح أبي سعيد لكي يمتطيه عند بعثه من الموت، ويقال أنه قال لأبنائه قبيل وفاته: إذا عدت إليكم ولم تعرفوني فاضربوني فإن كنت ذلك الشخص فإن ذلك يعني أنني عدت إلى الحياة؛ وقد أمر أبو سعيد بذلك حتى لا ينتحل شخصيته شخص آخَر.

وأثناء حكم الخلفاء في بغداد قام أحد حكام الأحساء القرامطة بهجوم على مكة واستولى عليها، وذبح الحجاج أثناء طوافهم للبيت الحرام، كما انتزع الحجر الأسود من مكانه وحمله إلى الأحساء، وقال أنصاره: صحيح أن الكعبة هي مكان لجذب الناس من كل أنحاء الدنيا؛ ولكنهم لا يعلمون أن الذي كان يجذب الناس إلى الكعبة هو علو شأن محمَّد ﷺ ومجده، وقد بقي الحجر الأسود في الأحساء فترة طويلة؛ ولكن الناس لم يذهبوا إليه، وفي النهاية أُعيد الحجر الأسود إلى مكانه مقابل فدية.

وفي الأحساء يباع كل أنواع لحوم الحيوانات كالبقر والخراف، وغيرهما ولكنهم يعرضون رأس الحيوان المذبوح وجلده أمام اللحم حتى يعرف الناس نوع اللحم الذي يشترونه، وكان الناس في الأحساء يربُّون الخراف حتى تسمن لدرجة لا تستطيع معها الحركة وعندئذٍ يتم ذبحها وأكلها.

وإذا تركنا الأحساء وتوجهنا شرقًا فإننا نصل إلى البحر بعد مسيرة سبعة فراسخ، وإذا ركبنا البحر يمكن الوصول إلى البحرين التي لا تبعد إلا خمسة عشر فرسخًا عن الأحساء، ولفظ البحرين تشمل أيضًا اسم بلدة هامَّة يحيط بها مزارع النخيل، كما يتم صيد اللؤلؤ في البحرين، ويذهب نصف اللؤلؤ الذي يستخرج إلى أمراء الأحساء أنفسهم.

أما إذا اتجهنا جنوبًا فإننا نصل إلى عُمان على ساحل شبه الجزيرة العربية، وتبلغ مساحة عُمان ٨٠ فرسخًا مربعًا، وتحيط بها الصحراء من ثلاث جهات، وهي بلد حار المناخ وينمو فيها شجر جوز الهند، أما إذا اتجهنا شرقًا من عُمان فإننا نصل إلى ساحل مكران وساحل قيس، وإذا واصلنا السير جنوبًا فإننا نصل إلى عدن، أما إذا سرنا في الاتجاه العكس فإننا نصل إلى إقليم فارس.

الأحساء مليئة بأشجار البلح إلى الحدِّ الذي يقدم البلح كعلف للحيوانات لتسمينها.

وإذا تركنا الأحساء واتجهنا شمالًا فإننا نأتي إلى إقليم يسمى القطيف وفيه مدينة بهذا الاسم، وفي هذه المدينة تنمو أشجار النخيل بكثرة.

وحدث أن هاجم أحد الأمراء العرب الأحساء وتمكَّن من احتلالها بعد حصار دام عامًا واحدًا، وقد استولى على كميات هائلة من الغنائم، إلا أنه فشل في إخضاع أهلها، وحين التقى بي سألني عن مجرى الأفلاك، والنجوم، وذكر: «أن غايتي هي الاستيلاء على الأحساء ولا أدري إذا كنت سأنجح في هذا المسعى أم لا، وقد أجبته بما أعتقد أنه الإجابة الصحيحة».

«وفي رأيي أن البدو في الصحراء لا يختلفون من حيث الديانة عن سكان الأحساء، وكلامي هذا هو حصيلة ملاحظاتي الشخصية ورأيي لا يستند على

الكلام الفارغ؛ لأنني اختلطت بهم وعشت معهم شهورًا عديدة، ولم أقدر على شرب اللبن الذي كان يقدمه لي البدو، وعندما رفضت شرب اللبن وطلبت ماء بدلًا منه أجابوني عندما تجد الماء اطلبه؛ ولكنه لا يوجد ماء لدينا».

وبعد مرور قرن من الزمن على هذا التاريخ كتب ناصري إدريس الذي لم تكن له معرفة شخصية بالمنطقة؛ (وبالأحرى بأي جزء يقع على الشرق من آسيا الصغرى) كتب عن المنطقة؛ ولكنه لم يضف جديدًا عن تلك المعلومات وإن كان قد ذكر بأنه في زمانه كان من الصعب الانتقال بطريق البحر من صحار في عُمان إلى البحرين (والمسافة بينهما تساوي مسيرة عشرين يومًا) ويرجع ذلك إلى حالة الحرب والصراعات المستديمة بين القبائل العربية، بحيث كان يتعذَّر على الناس الانتقال من منطقة إلى أخرى أو نقل أمتعتهم.

ثم مضى هذا الكاتب يتحدَّث عن البلاد الواقعة شمال القطيف وتقيم فيها قبيلة عمر بن ربيعة، ويقول: بأن من بين مناطق البحرين منطقة الهجر والقطيف والأحساء وخواته أو خاته، حيث يصنع نوع من النصال يُعرف بالنصال الخاتيه، كما يقول أيضًا:

«بأن الجزيرة الرئيسية في البحرين اسمها أوال ومساحتها ستة أميال مربعة وعاصمة هذه الجزيرة هي البحرين، وهي مدينة مكتظة بالسكان وتتميز أرضها بالخصب وتنتج البرسيم والبلح بوفرة، كما أن فيها مصادر كثيرة للمياه العذبة بعضها كالشلالات الصغيرة، وفيها طاقة لإدارة الرحى، ويحكم الجزيرة حاكم مستقل، وكل سكان جانبي الساحل راضون عن حكمه وعدله وتقواه، وعندما يموت الحاكم يخلفه شخص آخَر ويتحلَّى بنفسه صفات الفضيلة والنزاهة».

ويذكر الأمير والجغرافي السوري أبو الفداء (١٣٢١م) الذي استمد معلوماته من مؤلَّفات المؤرِّخين الذين سبقوه بأن البحرين قريبة لنجد، ولهذا السبب تسمَّى الهجر. ويبدو أن الأحساء في عهده قد تضاءلت أهميتها؛ لأنه ذكر: «بأنها بلدة صغيرة وخالية من الأسواق وقد حدد موقعها على بعد مسيرة يومين غرب جنوب القطيف تقريبًا».

وقال أيضًا: «إنها محاطة بأشجار النخيل من جميع الجهات تمامًا كغوطة دمشق. أما النخيل في القطيف فإنها تنمو على الساحل وإن كانت أقل من نخيل الأحساء، كما أن فيها مناطق محدّدة لاستخراج اللؤلؤ، وقد أخبره أحد مواطني القطيف بأن القطيف لها أسوار مزودة بأربعة منافذ وخندق، وفي وقت المد يرتفع الماء إلى محاذاة السور، وأما في الجزر فإن جزءًا من الأرض يبرز من تحت الماء، وكانت تقع كما يقول: في طرف خليج تستطيع السفن أن تلجأ إليها بحمولاتها في فترة المد».

أما معلومات ابن بطوطة عن البحرين فهي أكثر دقة من معلومات أبو الفداء على الرغم من أنه يخلط بين الإقليم والبلدة، وكان ابن بطوطة قد زار المنطقة وهو في طريقه إلى الحج، وعبر مياه الخليج من سيراف.

يقول ابن بطوطة: «إن البحرين مدينة جميلة وكبيرة بحدائقها وجداولها وأشجارها، ويحصل السكان على الماء بسهولة إذ يكفي أن يحفر الإنسان بيديه فينبع الماء من باطن الأرض، وتزخر المدينة بحدائق الليمون والرمان، كما ينمو فيها القطن، ودرجة الحرارة عاليةً جدًّا، وتهب عليها العواصف الرملية فتطمر المنازل أحيانًا، وأما الاتصال البري بين عُمان والبحرين فمقطوع على ما يبدو، ولهذا فلا يمكن الوصول إلى البحرين إلا عن طريق البحر.

وأما القطيف فإنها بلدة جميلة وكبيرة ومليئة بأشجار النخيل وتقيم فيها القبائل العربية.

وقد مرَّ ابن بطوطة بالأحساء وقال عنها بأنها بلدة يتداول فيها الناس المَثل القائل (كمن يحمل بلحًا إلى الهجر)؛ نظرًا لأن أشجار النخيل فيها أكثر مما توجد في أي بلدة أخرى حتى أنهم يطعمون الحيوانات منها، وسكانها عرب ينتمون في أصلهم إلى قبيلة عبد قيس بن الأقصى.

الفصل الرابع

"إن سيف الرب وجيدون قد خدم البرتغاليين تمامًا كشعار للاحتلال والاستيلاء غير أنه من خلال إهمالهم المريع لمتطلبات السلم؛ وبسبب افتقارهم إلى الموهبة الضرورية في ممارسة الاستعمار، فإنهم عجزوا عن الاحتفاظ بمستعمراتهم..."

اللورد كرزون في كتابه:
«فارس والمسألة الفارسية»



وصول البرتغاليين إلى الخليج

المرحلة الأُولى:

قبل أن نتناول هذه المرحلة من تاريخ الخليج بشيءٍ من التفصيل أرى أن نعود قليلًا إلى الوراء. وقبل أن تولي الإمبراطورية الرومانية الأدبار كان الفينيقيون يزاولون أهم نشاط تجاري مع الأقطار الأخرى. وبعد سقوط القسطنطينية حقَّقت فينيقيا السيادة على اليونان مما ضاعف من ثروة الجمهورية ونفوذها وجعلها من غير منافس في منطقة الشرق الأدنى.

وقد زاول الفينيقيون في القسطنطينية قسطًا هامًّا من التجارة وبالأخص في المنتجات الشرقية، غير أن إمبراطور بيزنطة وقد شعر بالغيرة من تعاظم إمكانيات وثروة القسطنطينية أرغمهم على الانسحاب منها، ولهذا فقد تحقق لجنوا، وبيزا قسطًا من تجارة تلك المدينة. بعد إخراج الفينيقيين من القسطنطينية وجهوا اهتمامهم إلى مصر وتمكَّنوا عن طريقها من إنشاء تجارة منتظمة مع الشرق من ميناء الإسكندرية وزوزينا؛ وبذلك العمل استطاعوا في مدة قصيرة أن يحتكروا التجارة البحرية للشرق، كما أن أهل جنوا من جانبهم قد ساهموا بقسط وافر في إحياء النشاط التجاري مع الإمبراطورية البيزنطية، وكسبوا لأنفسهم تجارة التوابل البرية مع الشرق الأقصى. غير أن استيلاء أهل جنوا في النهاية على امتيازاتهم، قد حمل حكومة بيزنطة على طلب

مساعدة الأتراك والفينيقيين الذين تمكَّنوا من إقصائهم. ومن ناحية أخرى فإن نفوذ أهل جنوا في الشـرق بدأ يضمحل وذلك قبل أن يضمحل نفوذ فينيقيا التي كانت في تلك الفترة تتحكَّم في تجارة الشرق.

وفي أواخر القرن الخامس عشـر تقريبًا بدأ التفوُّق التجاري لفينيقيا في التدهور وذلك قبل أن يبدأ الأتراك زحفهم، مما اضطر الفينيقيين إلى التخلِّي لهم عن امتيازاتهم التجارية في الشرق، ومن ثم فقد أغلقت القنوات التجارية العديدة لهم مع الهند بصورة تدريجية وأكيدة.

وبعد اسـتيلاء الأتراك على القسـطنطينية لم يبقَ للفينيقيين سوى نشاط تجـاري محدود مـع الهنـد الشـرقية، وكان ذلك يتـم عن طريـق موانئ الإسكندرية والبحر الأحمر، غير أن ذلك النشاط كان عرضة لمؤامرات حكَّام مصر من المماليك، كما أن البابا كان يعارض ذلك النشاط.

والضربة القاضية التي سُدِّدت إلى تجارة الشـرق الفينيقية جاءت نتيجة اكتشـاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند الأمر الذي مكَّن السـفن البرتغالية لجلب المنتجات الشـرقية الهامَّة بأسـعار تقل كثيرًا عن تكاليف الطريق القديم.

ففي عام ١٤٨٦م التف بارثلميو دي ياز حول رأس الرجاء الصالح، غير أن هذا الملاَّح لم يكن يدرك في ذلك الوقت أهمية تلك العملية.

وفي عام ١٤٩٧م أقلع فاسكو دي جاما من لشبونة إلى الهند التي وصلها في عام ١٤٩٨م، وعاد إلى لشبونة في عام ١٤٩٩م.

لقد كانت تلك الرحلة عملًا حاسمًا في تاريخ العالَم، فهي بالنسبة للبرتغال قد مهَّدت لها الطريق إلى إقامة الإمبراطورية البرتغالية في الهند والشرق، وهي إمبراطورية عاشـت أربعة قرون حافلة بالأحداث، وقد أضفى ذلك الاكتشـاف

الهيبة على البرتغال ورفع من شأنهم، ومنذ ذلك الوقت أطلق ملوك البرتغال على أنفسهم (سادة الفتح والملاحة) وقد بارك البابا لهم هذا اللقب.

وفيما بين (١٤٨١ ـ ١٤٨٧م) أي: قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، أرسل دوم جوا الثاني عددًا من البعثات والحملات محاولًا بذلك تحقيق رغبته في اكتشاف البلاد التي كانت تجيء منها التوابل، وفي إحدى تلك الحملات كلف جوا بيريز دي كافيلهو (الذي اقترن اسمه باسم الفونسو دي بيفا) بقيادة البعثة وقد خرج هؤلاء ١٤٨٧م وعبروا نابولي ورودس إلى القاهرة التي التقوا فيها ببعض العرب الذين كانوا ينوون السفر إلى عدن، فانضموا إليهم وخرجت القافلة إلى الطور ثم البحر الأحمر، ومن هناك أقلعوا بالسفن إلى عدن.

وفي عدن افترق كافلهو وبيفا عن رفاقهما فركب الثاني سفينة تابعة لأحد العرب أوصلته إلى كانانوز، ومن كانانوز توجه إلى كليكوت، وفي كليكوت اكتشف وجود الفلفل والزنجبيل، وكان يزرع قريبًا من تلك البلدة، كما عرف أن القرفة والقرنفل كانا يستوردان من مناطق بعيدة عن كليكوت. من كليكوت توجه كافلهو إلى جوا، ومن جوا أبحر إلى جزيرة هرمز.

وبعد أن جمع كل المعلومات عن التجارة في هذا الميناء الفارسي ركب السفينة إلى زيلا وباب المندب ومنه إلى الساحل الأفريقي حتى وصل إلى سفالة، وبعد أن استوعب تمامًا طبيعة النشاط التجاري في مياه الشرق عاد إلى القاهرة، ومن هناك بعث إلى الملك دوم جوا بتقرير مفصَّل عن جميع البلدان التي زارها وانطباعاته عنها.

وقد عاد كافلهو إلى هرمز وعدن مرة أخرى وأقام فترة في الحبشة وإلى هذا الحد تنتهي قصة هذا البرتغالي.

إن إعطاء صورة شاملة للإمبراطورية البرتغالية في الهند هو موضوع يخرج عن هذا البحث، وإذا كنا لا نريد أن نغض الطرف كلية عن النقاط الهامة في هذا التاريخ، فإنه حريٌّ بنا أن نتناول الأحداث التي لها صلة مباشرة بالخليج. فقبل أن يظهر البرتغاليون على المسرح في الخليج كان عرب (عُمان واليمن) يتحكَّمون في التجارة البحرية للشرق، وكانت هذه التجارة تدر ثروات ضخمة لأصحابها لقرون عديدة، وكل ما فعله البرتغاليون هو أنهم انتزعوا تلك التجارة من أيدي أولئك العرب وتمكَّنوا من الاحتفاظ بها لفترة تزيد على ٣٠٠ عام.

وكان دوم فرنسيسكو دي الميدا أول حاكم عام ونائب للملك دوم مانويل الأول ملك البرتغال في الهند، وكان هدفه مجرد إنشاء مراكز تجارية في الهند لمزاولة الأعمال التجارية البحتة غير أن أفونسو دي البكويرك الذي خلفه في السلطة لم يكن من نفس الرأي، وقد أبحر هذا في النصف الثاني من سنة ١٥٠٦م لكي يقنع الميدا برأيه، كما أنه كان قد أبحر إلى آسيا مبكرًا في عام ١٥٠٣م، وبالتالي فإن طموحات أفونسو دي البكويرك هي التي مهَّدت الطريق لإنشاء إمبراطورية برتغالية في الشرق.

كما كان البكويرك يوجِّه اهتمامًا خاصًّا إلى إقامة التحصينات والقلاع العسكرية في كل مكان يوجد للبرتغال مركز تجاري فيه، ولم يكن الهدف مقصورًا على حماية التجارة البرتغالية فقط، وإنما كان الهدف هو أن يتمكن البرتغاليون من تدعيم النفوذ البرتغالي في تلك المناطق وإخضاع حكَّامها وشعوبها لسيطرتهم، بل إرغامهم في النهاية على الاعتراف بالسيادة البرتغالية، وكان إعجاب هذا القائد البرتغالي بالإسكندر الأكبر شديدًا.

كُلِّف داكنها بمسؤولية القائد العام للأسطول البرتغالي الذي شكل من ١٤ سفينة الذي أقلع في سنة ١٥٠٦م، وقد تولى القيادة فيه البكويرك، وزوِّد

بالتعليمات اللازمة بالتوجُّه إلى سقطرى عن طريق الرأس، وأن يقوم في سقطرى ببناء حامية تستخدم كمركز لتموين الأسطول البرتغالي الذي كان يقوم بحصار البحر الأحمر والعمل ضدّ الفينيقيين والمصريين، وكان يتعين عليه بعد بناء الحامية بأن يتوجّه بقسم من ذلك الأسطول إلى الهند بأن يترك بقية الأسطول للبكويرك للقيام بهجوم على عدن وجدة ولإعاقة تجارة العرب في المنطقة.

وقد أبلغ البكويرك سريًّا بأنه سوف يُعيّن حاكمًا على الهند بدلًا من الميدا، وذلك عند انتهاء مدة خدمة الميدا في نهاية السنوات الثلاث.

وأثناء الرحلة هبّت زوبعة فرّقت الأسطول البرتغالي، إلا أن قطع الأسطول عادت فالتقت عند موزمبيق فيما عدا قطعتين كان يقود إحداهما روي بريرا وهو الذي اكتشف مدغشقر التي كانت تُسمى سانت لورنسو.

وقد نشأ خلاف في الرأي بين البكويرك وداكنها حول أهداف الحملة (حيث أصر الأخير على أن يتجه الأسطول أولًا إلى رأس الغضروفي ولإنشاء الحامية في سقطرى).

وعلى كل فقد وضع داكنها الجانب الأكبر من الأسطول تحت تصرف البكويرك بعد أن منحه سلطات كاملة على بقية القباطنة وسمح له بالمضي إلى وجهته. وبعد أن استولى داكنها على جزيرة سقطرى سلّم ستًّا من السفن برجالها وعتادها ومؤنها إلى البكويرك أما هو فقد أبحر إلى الهند.

وجه البكويرك اهتمامه أولًا إلى الإدارة الداخلية للجزيرة إلا أنه أدرك بعد ذلك عدم جدوى جزيرة سقطرى للغرض الذي اختيرت من أجله، ولما لم تكن لديه قوات كافية لاحتلال عدن وفقًا للتعليمات التي لديه، اتجه إلى الشمال الشرقي وترك انونسو دي نورنها كقائد للحامية، وكان البكويرك

مصمّمًا على الاستيلاء على هرمز التي كما بيّنّا في الفصل السابق، كانت السوق الرئيسية لمنطقة الخليج. وتصور أنه لو نجح في احتلالها فإن ذلك سوف يخوله سلطة مطلقة على طريق الخليج كما ستكون نصرًا أكبر للبرتغاليين من مجرد فرض حصار مؤقت على البحر الأحمر.

بعد مغادرة الأسطول جزيرة سقطرى في العاشر من أغسطس مرَّ بجزر كوريا موريا، ثم رسا الأسطول على شاطئ رأس الحد، حيث التقى هناك بـ٣٠ أو ٤٠ مركب صيد قادمة من هرمز وغيرها من مناطق فارس الساحلية، فقام بحرقها ثم غادرها متجهًا إلى الغرب ورسا عند قلهات، وكانت قلهات يومئذٍ محطة لتموين السفن القادمة من الهند ومحمية لمملكة هرمز.

وقد أبدى سكان قلهات استعدادهم لدفع الجزية للبرتغال. وقد تمون الأسطول ثم دفع ثمن المواد التموينية التي حصل عليها.

منذ وصول الأسطول إلى قريات استقبل فيها بصورة لم يكن يتوقعها، فقام البكويرك بمهاجمة البلدة إلا أن قريات قاومته مقاومة عنيفة وإن كان البرتغاليون قد تمكّنوا فيما بعد من فتح البلدة. وقد لقي ٨٠ من السكان مصرعهم بينما خسر البرتغاليون ثلاثة. وقد أمر البكويرك بتدمير البلدة ونهبها بالإضافة إلى حرق ١٤ مركبًا راسيًا في الميناء.

بعد ذلك أبحر البكويرك إلى مسقط التي كانت تعد أقوى المعاقل العُمانية، وكانت مزودة بوسائل دفاع قوية وبقوة من الجنود الذين جاءوا إليها من داخل البلاد بعدما سمعوا عن تدمير البرتغاليين لمدينة قريات.

وعند وصول الأسطول إلى ميناء مسقط حضر بعض عرب مسقط على رأس وفد من حاكم البلاد، وناشدوا القائد عدم تعريض المدينة لأي تدمير، وأبدوا رغبتهم في تبعيتهم للبرتغال ودفع ما يقرره القائد من ضريبة كالتي كانوا يدفعونها لملك هرمز.

غير أن المفاوضات بين الجانبين لم تصل إلى نتيجة، ولما أحس البكويرك بأن عرب مسقط قد أخذوا يستعدون في الخفاء وينظّمون صفوفهم للمقاومة والدفاع عن بلدهم، أصدر أمرًا إلى سفينتين من سفنه بقصف المدينة كتمهيد لشنِّ هجوم عليها، وقد دافع عرب مسقط بعناد شديد إلا أنهم اضطروا للاستسلام في النهاية وناشدوا البكويرك ألا يدمر المدينة أو يحرقها وقد وافقهم على ذلك بشرط أن يدفعوا ١٠,٠٠٠ زرافين ذهب، على أن تصل إليه ظهر اليوم التالي.

ولما لم يصل هذا المبلغ إلى البكويرك أصدر أمره بإشعال النار في البلدة بما في ذلك مساجدها والسفن الراسية في الميناء. وقد أطلق البكويرك سراح بعض الرجال والنساء الذين كانوا أسرى لديه ولم يكن في الإمكان نقلهم، وكان قبل الإفراج عنهم قد أمر بقطع أنوفهم وآذانهم. وقد عاث الجنود البرتغاليون فسادًا في المدينة باستثناء قصور الحكام؛ لأنهم كما ذكر البرتغاليون قد استقبلوا رجالنا بالترحاب.

ويمكن الاطلاع على بعض المعلومات عن أوضاع مسقط السياسيَّة وأهميتها التجاريَّة في السنوات الأولى من القرن السادس عشر (التي دمّرها البرتغاليون عن عمد) من التعليق التالي:

«مسقط مدينة كبيرة وكثيفة السكان ومُحاطة من الداخل بسلسلة من الجبال العالية، وأما على الجانب الساحلي فهي تطل على البحر وميناؤها صغير يشبه حدوة الحصان في شكله، وهو محمي من جميع الجهات من العواصف، وهي المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز، ولا بد أن تمر فيها جميع السفن التي تزاول الملاحة في هذه المناطق؛ وذلك للاحتماء فيه من الساحل المواجه الذي فيه كثير من المياه الضحلة.

ومسقط سوق قديمة للخيول وللبلح، كما أنها مدينةٌ أنيقةٌ جدًّا ومنازلها

جميلة، وتحصل على موادها التموينية من الحنطة والشعير والذرة والبلح من داخليتها، ومن هناك يتم شحن هذه المواد على السفن الكثيرة التي ترتادها، وهي جزء من مملكة هرمز، أما الجزء الداخلي من البلاد فيخضع لحاكم يُدعى ابن جابر، ولهذا الحاكم شقيقان وقسمت السلطة بين جابر وأخويه. وتمتد سلطة ابن جابر إلى عدن، ومن الشمال تمتد إلى ساحل بحر الخليج، ومنه إلى حدود مكة».

بعدما دمر البرتغاليون مسقط غادروها إلى صحار، وكان في صحار في ذلك الوقت حامية ضخمة يتطلب الدفاع عنها ما لا يقل عن ١٠٠٠ شخص، وعلى أية حال فقد غادرها السكان هربًا من البرتغاليين فيما عدا الوالي وبعض كبار الشخصيات الذين قاموا بتسليم البلدة إلى البكويرك، ثم وافق القائد البرتغالي على أن يستمر أهل صحار في الحكم؛ ولكن باسم الملك البرتغالي الملك مانويل بشرط دفع الجزية إلى هرمز.

من صحار اتجه الأسطول البرتغالي إلى خورفكان، وبما أن سكان هذه البلدة هبُّوا لمقاومة البرتغاليين فقد قرّر القائد البرتغالي تدميرها ونهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى الذين أخذوهم تمامًا كما فعلوا بأهل مسقط.

من خورفكان أسرع الأسطول إلى رأس مسندم ومنه مباشرةً إلى هرمز بعد أن أصبحت جميع تلك المناطق تابعة لهرمز، وقد رسا الأسطول على الساحل، وقد خشي البرتغاليون في البداية من نتائج المهمة التي كُلِّفوا بها، وقد زاد خوفهم أكثر من ضخامة المدينة وعدد الجنود الذين تجمعوا على الشاطئ إلى جانب السفن الكثيرة المسلَّحة الراسية على الشاطئ.

وكان الأمر يتطلب من البرتغاليين اتباع الحذر قبل القيام بأي هجوم على المدينة؛ نظرًا لأن هذه البلدة كانت تختلف عن المدن الأخرى التي استولى

عليها البرتغاليون ودمَّروا معالمها وحضارتها وقـد علم البرتغاليون أن هناك تجمعات كبيرة للقوات المسـلَّحة تحتشد على السـاحل. وعند إبلاغ ملك هرمز باقتراب أسـطول البرتغال من البلدة أمر بالاستعداد للتصدي للهجوم، وقد ذكر فارنا سوسا:

«عند وصول البكويرك إلى هرمز كان يحكمها سـيف الدين وهو فتى لا يتجاوز عمره ١٢ عامًـا، وكان يرأس مجلس البلاد عبـده كوجيه عطار وكان عطار شجاعًا وماكرًا فبعد أن عرف بوصول البكويرك بعد استعداداته استولى على جميع السـفن الموجودة في الميناء، كما اسـتأجر بعـض الجنود من الأقليم المجاورة من الفرس والعرب وغيرهم، وهكذا عندما وصل البكويرك كان قد احتشـد في المدينة ما لا يقـل عن ٣٠ ألف جنـدي بينهم ٤٠٠٠ من الفرسـان، وكان هؤلاء خبراء في رمي السـهام، كما كان في المرفأ نحو ٤٠٠ سفينة، ستون منها من الحجم الكبير، وكان فيها ٢٥٠٠ رجل.

بالإضافة إلى تلـك القوة فقد جمـع الملك في الميناء عـددًا كبيرًا من السـفن المسـلحة بالمدافع إلى جانب ٢٠٠ قارب وعدد من زوارق الشاطئ، وكان فيها رماة السهام والمدافع».

دعا البكويرك ملك هرمز إلى إعـلان ولائه لملك البرتغال، وبما أن هذه المحاولة لم تنجح وبالرغم من التفوُّق الهائل في قوات ملك هرمز ومعارضة مسـاعدي البكويرك على القيام بأي عمليات عسكرية ضدَّ هرمز، إلا أنه فتح المعركة بأسطوله الصغير نسبيًا واستطاع أن يحقِّق نصرًا بحريًا كاملًا وإن لم يكن سهلًا.

وهكذا أصبح ملك هرمز تابعًا لملك البرتغال، كما وافق على دفع ١٥٠٠٠ زرافيـن كجزية سـنوية، كذلك عقـدت اتفاقية مع هرمز نصـت على إعفاء

المنتجات البرتغالية من الرسوم الجمركية، ومساواة البرتغاليين في نسبة الرسوم التي تُدفع بالأقطار الأخرى، وقد عمد البرتغاليون إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية، وأصدروا قرارًا بمنع أي سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية، وبذلك العمل كَتَبَ البرتغاليون السطر الأول في سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج.

بعد التوقيع على معاهدة السلام طالب البكويرك سلطات هرمز بتحديد موقع يصلح لإقامة حامية برتغالية، وبعد استطلاع مختلف المناطق تقرر أن تقام الحاميات في (قشم وترمباك، ونابند) وقد وضع حجر الأساس والبرج الرئيسي للحامية؛ في شهر أكتوبر سنة ١٥٠٧م، وقد طلب البكويرك الإسراع في بناء الحامية؛ نظرًا لأنه كان يزمع التوجه إلى البحر الأحمر للقيام بعملية استكشاف، وكان يريد بناء الدور الأول للبرج حتى يستطيع البرتغاليون أن يدافعوا عن أنفسهم ريثما يعود البكويرك إلى هرمز، كذلك أنشأ البكويرك مركزًا تجاريًّا في هرمز، وأخذ يرسل أنواعًا مختلفة من السلع والمنتجات مستهلًا تجارته مع العرب. وقد أصدر تعليمات مشدَّدة بأن يتم بيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغال.

ولما كان شاه إسماعيل ملك فارس قد عاد يطالب ملك هرمز بدفع الجزية المفروضة عليه كل عام، فقد طلب هذا من البكويرك بأن يوضح له ما الذي يجب أن يفعله إزاء هذا الطلب، فكان رد البكويرك هو أن هرمز قد أصبحت تابعة لملك البرتغال وأنه حصل عليها عن طريق الحرب ولهذا فإن على ملك هرمز أن يعلم بأنه في حالة دفع جزية لأي ملك آخَر غير ملك البرتغال، فإن البكويرك سوف يخلع ملك هرمز عن السلطة ويقلد المسؤولية لشخص آخَر لا يخاف من شاه إسماعيل ملك فارس.

وعلى الفور طلب البكويرك من جميع السفن أن تحضر إليه قنابل ومدافع ومتفجرات وطلب من رسول ملك هرمز بأن يبلغ الملك بأن في إمكان البكويرك بأن يرسل كل تلك الأسلحة إلى قبطان شاه إسماعيل، وبأن تلك الأسلحة هي الجزية التي يمكن لمملكة هرمز أن تدفعها إلى شاه إسماعيل، كما ذكر البكويرك لرسول الملك بأنه بعد أن يتم بناء الحامية فإن البكويرك مصمَّم على الدخول إلى مضيق فارس، وبأن يضع جميع المناطق الساحلية الخاضعة لشاه إسماعيل تحت سلطة ملك برتغال، وعندما يصل البكويرك إلى تلك المناطق فإنه يمكن للفرس أن يطالبوا ملك هرمز بالجزية المستحقة عليهم، إذ إنه في تلك الحالة سوف يدفعها بطريقة أفضل.

في عام ١٥٠٨م كان الأسطول البرتغالي لا يزال في هرمز، وقد أخذ الضباط والبحارة يضيقون ذرعًا بأوضاعهم، مما أسفر عن قيام تمرد ضدَّ البكويرك، كما قام بعضهم بالتآمر مع الحاكم المحلي للمدينة، وهكذا تدهور وضع البكويرك وأرغم على صرف النظر عن القيام بالمزيد من الفتوحات مؤقتًا.

وكان وجهة نظر المعارضين أنه سيكون من مصلحة ملك البرتغال بشكلٍ أفضل لو توجه الأسطول إلى رأس الغضروفي وتربص للسفن القادمة من الهند حاملة التوابل والبهارات، بدلًا من أن يضيع الوقت في بناء حاميات قد يستولي عليها العرب عاجلًا أو آجلًا. غير أن البكويرك رأى أن يتوجه إلى الهند، وذلك في عام ١٥٠٨م مصطحبًا القواد والبحارة المؤيدين له، وقد زار أسطوله وهو في طريقه إلى الهند مدينة صحار وجزيرة سقطرى، أما القباطنة الذين عارضوا خطته وتمردوا عليه فقد أبلغوا نائب الملك في الهند بما حدث، وقد أصدر نائب الملك أمرًا بإجراء تحقيق في الموضوع. وعلى هذه الصورة انتهت أول محاولة للبرتغاليين لإثبات وجودهم السياسي في الخليج.

تقلَّد البكويرك منصب الكابتن جنرال ونائبًا للملك في الهند بعد سفر الميدا في شهر نوفمبر سنة ١٥٠٩م، وكان الميدا قد رفض في البداية تسليم السلطة إلى البكويرك. ومن الأحداث التي وقعت في بداية عهده هو فقدان جوا ثم استعادتها، الأمر الذي جعله يصمّم على تحويلها إلى قاعدة للحكم البرتغالي في الهند وقاعدة عسكرية قوية.

وبمرور الوقت أدرك البكويرك بأن وضعه في الهند لن يكون مرضيًّا إذا لم تكن خطوط المواصلات مع حكومة البرتغال منتظمة وفي حالة جيدة، وعلى هذا الأساس بعث برسالة إلى الملك دوم مانويل جاء فيها: «إن أكثر ما يسيء إلى جوا هو على أية حال ما يردده الناس دائمًا بأن الروم قادمون وذلك هو أكبر مصادر الخطر على الهند وأنه يسبِّب بين سكان الهند قلقًا وإحراجًا سواءً كانوا مسيحيين أو هنودًا، وفيما يختص بهذه الإشاعات المدمِّرة، ألتمس من جلالتكم بأنه إلى أن نتوجه إلى البحر الأحمر ونطمئن هؤلاء الناس بأنه لا يوجد شيء اسمه الروم، فإنه لن يكون هناك سلام وثقة لرعايا جلالتكم في هذه المناطق».

بعد هذا الخطاب مباشرة أقلع البكويرك بكامل أسطوله متجهًا إلى الغرب (عدن ومكة) دون أن يظهر أي اهتمام للأحوال الجوية أو إلى تحقيق منجزات جديدة أكثر من مجرد هدم الحامية في سقطرى التي ثبت عدم فاعليتها إلى جانب تحصيل الضرائب من أهل هرمز.

في شهر فبراير سنة ١٥١٣م بعد استلامه تعليمات عاجلة من الملك دوم مانويل بالعمل على الاستيلاء على عدن والتوجه إلى مضايق البحر الأحمر، أبحر البكويرك بأسطول من عشرين سفينة ويضمُّ قوة مكونة من ١٧٠٠ برتغالي و٨٠٠ ملباري أبحر من جوا باتجاه رأس الغضروفي، وقد وصل إلى عدن في الوقت المحدد، غير أن الهجوم الذي شنَّه البكويرك على عدن قد

فشل وسبب لهم خيبة أمل؛ ولكنه أدرك بأن الاحتفاظ بالإمبراطورية البرتغالية في الهند لا بد من أن تتوفر له ثلاثة عناصر:

١ ـ احتلال عدن والاحتفاظ بها وذلك للسيطرة على مضايق مكة.

٢ ـ الاحتفاظ بهرمز في السيطرة الكاملة على مضيق البصرة.

٣ ـ الاحتفاظ بديو وجوا وذلك من أجل فرض السيادة الكاملة على كافة أقاليم الهند.

أما في عدن فلم ينجح البرتغاليون في شيء ما عدا تدمير السفن الراسية في الميناء والاستيلاء على بعض معداتها، وكان البرتغاليين في حاجة إلى تلك المهمات لإصلاح السفن.

بعد ذلك اتجه أسطول البكويرك إلى البحر الأحمر إلا أنه لم يذهب إلى أبعد من كمران، حيث اضطر إلى البقاء فترة بسبب سوء الأحوال الجوية، ومن هناك عاد الأسطول إلى ديو، وفي طريق العودة قام بمحاولة جديدة للاستيلاء على عدن وقد حدث أثناء توقف أسطول البكويرك في كمران، أن انتهز قائده الفرصة لجمع ما يمكن جمعه من المعلومات عن مداخل البحر الأحمر، كما أنهم تفقدوا جزيرة بريم.

عند عودة البكويرك إلى الهند حضر إليه مبعوث من شاه إسماعيل الذي أصبح حريصًا على كسب صداقة الحاكم البرتغالي. وفي تلك الأثناء وصلت إلى البكويرك معلومات أثارت قلقًا عن تحركات كان يقوم بها حاكم عدن، كما تلقى معلومات عن وفاة حاكم هرمز وهو الذي كان خلال حياته يعارض بشدة وجود حامية برتغالية في جزيرة هرمز. ومن ثم قرّر بأن يرسل حملة أخرى بقيادة ابن أخيه بيرو. وخلال صيف ١٥١٣م أقلع بيرو بأسطوله واستطاع الاستيلاء على عدد من مراكب العرب كانت وجهتها البحر الأحمر.

وفي سنة ١٥١٤م وصل بيرو إلى هرمز غير أنه لم يحقق نصرًا يُذكر من خلال المفاوضات التي أجراها بشأن الحامية ودفع الجزية؛ نظرًا لأن ملك هرمز قد اعترف فعلًا بسيادة شاه إسماعيل ملك فارس، وهكذا عاد بيرو أدراجه إلى جوا في سبتمبر ١٥١٤م وقدَّم تقريره إلى عمه البكويرك.

وبموجب هذا التقرير قرّر البكويرك التوجّه شخصيًّا إلى هرمز بأسرع وقت ممكن دون أن يستعد الاستعداد الكافي، وخلال ذلك أعلن بأنه ينوي إرسال حملة إلى مكة. وبتاريخ ٢٠ أكتوبر بعث إلى الملك دوم مانويل برسالة كانت تعبيرًا عن حنكته السياسيَّة وبُعد نظره، ووصف الحالة بالبحر الأحمر كما يلي:

«ينبغي علينا الاستيلاء على عدن والاحتفاظ بها بإقامة حامية فيها. ويوجد في عدن ميناء صالح للعمل في وسعه تقديم الحماية لسفننا في فصل الشتاء. وإن بناء حامية خارج المضيق موضوع لا يفكر فيه أحد؛ لأنه لا توجد هناك مصادر للمياه، وبما أن عدن لا تبعد عن هذه المداخل إلا بمسيرة ثلاثة أيام فإني اعتبرها المفتاح لهذه المضايق، أما بخصوص جزيرة كمران فقد نما إلى علمي أن واحدًا من اثنين هما الروم أو حاكم عدن قد يقيم حامية؛ ولكن هذا الأمر لا أهمية له لأن عندنا حامية أخرى قريبة من جدة في منطقة تسمى فرسان... إن أول خطوة أمامنا بأن نحمي أنفسنا في مصوع حتى نضمن لأنفسنا مصدرًا للتموين».

وفي خطاب لاحق أرسله البكويرك للملك ذكر فيه:

«إنني أزمع التوجّه إلى مصوع وهو ميناء يتبع برستوجو؛ وذلك للاستيلاء على ذلاقه وأرى ما يمكن عمله في جدة، ولا غرو في أن بعض المسائل الخاصَّة بالتجارة يضطرني إلى التوجه إلى هرمز. أما رحلتي إلى

البحر الأحمر فسوف تكون دون شك رحلة مفيدة نظرًا لشحنات التوابل القيِّمة التي ترد إلى تلك المنطقة من الهند كل عام. وبما أني أرغب بأن أقضي على الروم بعد إنشاء علاقات مع بيتر جون. ولكل هذه الأسباب فإني مصمم على التوجه إلى البحر الأحمر أولًا للقضاء على نفوذ السلوان هناك».

بعد أن اطمأن البكويرك على الأوضاع في الهند أبحر في شهر فبراير سنة ١٥١٥م بأسطول مكوَّن من ٢٦ سفينة يضمُّ ١٥٠٠ برتغالي و٧٠٠ ملباري. وقبل تحرّك الأسطول كان السؤال المطروح هو ما إذا كان يتعين على الأسطول أن يتوجه أولًا إلى عدن أو إلى هرمز؟ وأخيرًا صرف النظر عن عدن بعد أن تبيَّن للبكويرك بأن الأوضاع في هرمز كانت أهم وأكثر إلحاحًا لا سيما وأن حاكمها في ذلك الوقت كان سيف الدين الذي كان صنيعة في يد شاه إسماعيل، وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز في أي وقت.

وبعد وصول الأسطول إلى قريات توجه منها إلى مسقط وفي مسقط علم البكويرك بأن هرمز قد أصبحت في حالة ثورة وبأن ملكها أصبح أسيرًا لدى شخص يُسمَّى رئيس أحمد، فقرَّر بأن يُسرع إليها غير أنه على أية حال لم يكن استرداد هرمز يتطلب استخدام الأسطول أو القوة العسكريَّة.

وعند وصول البكويرك إلى هرمز أطلق بعض طلقات تحية للمدينة؛ ولكن هذا الإجراء أشاع الخوف في رئيس أحمد فبادر بالإفراج عن الملك، وبعد مفاوضات طويلة مع الملك استرد البرتغاليون الحامية ورفعوا العلم البرتغالي على مقر الملك. وبعد فترة من وقوع هذا الحادث حضر مبعوث من شاه إسماعيل وتم التوصل إلى اتفاق بين الفرس والبرتغاليين سمح بموجبه لملك هرمز بالاستمرار في ممارسة سلطاته باسم الملك دوم مانويل ملك البرتغال. وهكذا أصبح البرتغاليون السادة في هرمز من حيث الشكل والموضوع.

عيّن البكويرك ابـن أخيه بيرو قائـدًا للحامية وزوّده بتعليمات شـاملة لإنجاز الإجراءات الخاصّة بالحامية البرتغالية وتسـليحها، وبعد تسـوية كل الأمور في هرمز أقلع البكويرك على ظهر السـفينة فلـوردا روزا إلى الهند، وكانت حالته الصحية سيئة بل وأخذت تتدهور يومًا بعد يوم وتوفي في جوا بعد وصوله مباشـرة أي في ١٥١٥/١٢/١٥م. وكانت آخِر رسـالة منه إلى ملك البرتغال قد بعث بها إليه وهو في البحر تتضمَّن ما يلي:

«إن هذه الرسالة التي أبعث بها إلى جلالتكم لم أستطع أن أكتبها بنفسي لأنني في هذا الوقت أعاني من مرض الفـواق وهو دلالة على قرب نهايتي، ولي هنـا ولد واحد أوصي له بالقليـل الذي أملكه، أما أوضـاع الهند فإنها تتحدث بنفسها عن نفسها وعني، وإني أترك المكان الرئيسي في الهند تحت تصرف جلالتكم والإجراء الوحيـد الذي بقي ويتطلـب الإنجاز هو إغلاق المضايق وأملي أن جلالتكم سوف تذكرون دائمًا الإنجازات والمكاسب التي حققتها للهند وأن ترفعوا من شأني».

وهكذا مات أول رجل قدير وضع أُسس أول إمبراطورية أوروبية في آسيا قبل أن يتمكَّن من تحقيق مشروعاته الكبرى، وقد تجلَّت قوة إرادته وسلوكه بالطريقة التي تَمسَّـك بها، التي مكَّنته من التغلّب علـى جميع المعارضين لمشـروعاته لتدعيم النفوذ البرتغالي واحتكار تجارة الشرق، غير أن طريقته القاسية والعنيدة في معاملة خصومه كانت ولا بد تؤدي في النهاية إلى تقوية أُسس الإمبراطورية التي بناها.

خلف البكويـرك كنائب لملك البرتغـال في الهند لويو سـوريز، وكان شـخصية تختلف تمامًا عن البكويرك. وعند وصول لويو لكوشن لم يكسب رضى أي أحد من الناس وعلى الأخص ملك البرتغال؛ وذلك بسبب تحفّظه المصطنـع على عكس البكويـرك الذي اعتـاد ملك البرتغال على كياسـته

ولباقته، ومن ذلك اليوم تغيّرت معالم السياسة البرتغالية في الشرق إذ أنه حتى ذلك الوقت كان المسؤولون يعملون بما تمليه عليهم روح الشرف الحقيقي، وكانوا يعتمدون على قوتهم العسكرية وليس على ثروتهم. أما بعد ذلك فقد اتجهوا إلى التجارة وتحوّل القادة العسكريون إلى تجار، واعتبروا القيادة سبة والكرامة فضيحة، وحسن السمعة مذمة. لقد باشر سوريز أعماله الحكومية وقام بتفقد الحامية وعيّن فيها قادة جُددًا، وأصدر أوامر كان من شأنها مجرد أن تملأ السطور؛ ولكنها لا تساهم إطلاقًا في تحقيق الجوهر التاريخي.

وعلى امتداد القرن السادس عشر مارس البرتغاليون سيطرتهم القصوى، وإن لم تكن هادئة في الخليج. أما هرمز فقد ظلّت بحكم موقعها المتحكم في مدخل الخليج تحتل مركزًا رئيسيًا في نشاطاتهم، وكانت كل تجارة البرتغال مع البصرة وغيرها من موانئ الخليج بما فيها مسقط تمر عن طريق ميناء هرمز.

وعلى الرغم من أن قبضة البرتغاليين على الخليج قد اشتدت مع مضي القرن السادس عشر، إلا أن حجم تجارتهم وأهميتها أخذت تتدهور بصورة مستمرة وإن كانت بطيئة، بل حتى منذ اليوم الذي استولى فيه البكويرك على هرمز. وربما يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى طريقة السلب والنهب والقهر التي كان يسير عليها البرتغاليون وقادتهم العسكريون.

وقد ساهم الوجود البرتغالي في هرمز على احتفاظ حكامها بالسلطة على التوالي؛ ولكنها كانت سلطة شكلية، فقد أرغمهم البرتغاليون على الولاء لملك البرتغال، ولم يكن يسمح لهم بمغادرة الجزيرة من غير موافقة الحاكم البرتغالي. وفي منتصف القرن حاول الأتراك أن يتحدُّوا النفوذ البرتغالي في الخليج والمحيط الهندي، غير أن النجاح لم يحالف الأتراك.

إن الأحداث التي اقترنــت بوجود البرتغاليين فــي الخليج خلال القرن السـادس عشـر تتلخص فيما يلي: في سنة ١٥١٦م أقلع سـوريز من جوا إلى البحر الأحمر للبحث عن أسـطول سـلدان الـذي قيل إنـه كان يعد العدة للاستيلاء على الممتلكات البرتغالية في الهند، وعند وصول سوريز إلى عدن قام حاكم عدن الذي وجد نفسـه أعزل من السلاح ووسـائل الدفاع بتسليم مفاتيح الحامية إلى سوريز غير أن سوريز رفض تسلّمها فكان هذا إجراء غير حكيم من جانبه؛ لأن سـوريز فضل بأن يؤجل الاسـتيلاء على المدينة إلى موعد آخَر، وواصل رحلته إلى جدة ولكنه لم يجد أثرًا لأسطول سلدان.

وفي طريق عودة سوريز استولى على مدينة زيلع، ثم منها عاد إلى عدن لكي يحتلها. غير أنه خلال تلك الفتـرة أعيد تحصين القلاع وتجديدها، فلم يتمكن سوريز من عمل أي شـيء، وغادر عدن متوجهًا إلى بربرة، وفي هذه الأثناء هبّت عاصفة شتّت أسـطوله وفقد عددًا من سفنه نتيجة لذلك، وهكذا انتهت الحملة نهايـة فاجعة. أما في هرمز فقد تطلب الأمر إرسـال تعزيزات إليها بعد وقوع اضطرابات سـببها محاولة السلطات البرتغالية الاستيلاء على الجمارك.

وسرعان ما أصبح موضوع الجمارك مسـألة ذات أهمية أولية. ويبدو أنه في سنة ١٥٢٢م وبناءً على تعليمات صادرة من الملك دوم مانويل عَيّن بعض المسـؤولين البرتغاليين كمشـرفين على الجمارك في هرمـز، غير أن هؤلاء بسـبب معاملتهم الصلفة تسـببوا في قيام ثورة شـاملة في هرمز والبحرين ومسـقط وقريات وصحار، وتعرضت كل تلـك المدن إلـى هجمات ليلية مفاجئـة انطلقت من البر والبحر بنـاءً على طلب من ملك هرمـز. وقد قُتِلَ خلال تلك الاضطرابات عدد كبير من البرتغاليين.

وكان حاكم هرمز يرمي مــن وراء تلك الثورة الإطاحة بالنفوذ البرتغالي،

كذلك تعرضت الحامية البرتغالية في هرمز لحصار عنيف، إلا أن الإمدادات التي وصلت إلى البرتغاليين من مسقط جعلت حاكم هرمز يقطع الأمل في نجاح الثورة؛ ولهذا فقد اتخذ إجراءات انتقامية خوفًا من انتقام البرتغاليين، وإشعال النار في المدينة وظلَّت النيران مشتعلة لمدة أربعة أيام، أما هو فقد هرب إلى جزيرة قشم، وأثناء وجوده هناك اغتيل من جانب سكان جزيرة قشم، وقد حلَّ محلَّه في السلطة محمود شاه البالغ من العمر ١٣ عامًا.

وقد وقعت معاهدة جديدة بين الملك الجديد والبرتغاليين، وقد وقَّع على المعاهدة من جانب البرتغاليين دوم دورت دي منزيس، وجرى التوقيع في ميناء يقع على نهر ميناب وذلك في شهر يوليو سنة ١٥٢٣م، وقد استندت المعاهدة الجديدة على المعاهدة السابقة التي عقدت مع البكويرك التي تعهد والد الحاكم الحالي لهرمز بتسليم هذه المدينة للبرتغاليين متى طلب ذلك ملك البرتغال، وقد نُصَّ في المعاهدة الجديدة على تطبيق تلك المادة.

وقد مهدت الاتفاقية الجديدة لتشديد قبضة البرتغال على هرمز، وبعد أن تم التوقيع عليها سمح القائد البرتغالي للحاكم الشاه بممارسة سلطاته المحلية.

وبعد أن جمع منزيس أرباحًا طائلةً من العمليات التجارية التي كانت تتم عن طريق هرمز عاد إلى الهند في سنة ١٥٢٤م، وعند وصوله إلى الهند فوجئ بتعيين دوم فاسكو دي جاما في منصبه كنائب للملك في الهند.

وفي عام ١٥٢٦م نشبت ثورات محلية جديدة في كل من قلهات ومسقط ضدَّ البرتغاليين وكان يتزعمها رجل يدعى رئيس شرف الدين غير أنه تم قمع تلك الثورات من جانب حاكم الهند البرتغالي في ذلك الوقت واسمه لوبو فاز الذي خرج بأسطول كبير لقمع تلك الثورات.

في سنة ١٥٢٨م عيّن نونر داكنها خلفًا للوبو فاز نائبًا للملك في الهند الذي غادر لشبونة في طريقه إلى الشرق وكان ينوي الاطلاع على الأوضاع العامَّة في المناطق التي توجد فيها مراكز برتغالية بما في ذلك هرمز.

وفي سنة ١٥٢٩م أثناء وجوده في هرمز وصل تفاريز دي سوزا وكان قادمًا من البصرة بعد تقديم مساعدة لحاكمها ضدَّ تمرد قامت به جزيرة الخضر أو عبدان، وكانت أولى الحملات البرتغالية على رأس الخليج، وبما أن حاكم البصرة قد رفض تسليم سبع من السفن التركية للبرتغاليين أو منع الأتراك من ممارسة التجارة في البصرة، قام تفاريز بإشعال النار في منطقتين من البصرة وبعدها انسحب إلى هرمز، وفي نفس العام أرسلت حملة برتغالية إلى البحرين التي تمردت هي الأخرى على هرمز، غير أن نتيجة تلك الحملة كانت بمثابة الكارثة للبرتغاليين؛ بسبب النقص في معداتهم.

وفي عام ١٥٤٢م وبسبب الصعوبات التي كان يواجهها البرتغاليون لتحصيل الضرائب المستحقة على حاكم هرمز التي بلغت متأخراتها حتى ذلك التاريخ ٥٠٠,٠٠٠ دكته، وافق مارتن أفونسو نائب الملك على إعفاء حاكمها من دفع المتأخرات بعد أن اقتنع بعجزه عن السداد، إلا أنه في مقابل ذلك الإعفاء أرغمه على الموافقة على تعيين مشرفين برتغاليين لتحصيل رسوم الجمارك مع احتفاظ الموظفين المحليين بوظائفهم. ومنذ ذلك اليوم لم تبرز مسألة متأخرات الرسوم الجمركية مرة أخرى؛ لأن البرتغاليين كانوا يتولون تحصيلها بأنفسهم، وبذلك الإجراء القهري أصبح البرتغاليون الملاَّك الفعليين لهرمز.

في منتصف القرن السادس عشر تقريبًا بدأ الأتراك يقومون بنشاط متزايد في منطقة الخليج مما دفع بالأمور إلى صراع مكشوف بينهم وبين البرتغاليين، وفي عام ١٥٥٠م سلّم العرب قلعة القطيف إلى الأتراك، فأثار ذلك

استياء شديد لدى حاكم هرمز، كما قام الأتراك بخلع حاكم البصرة، غير أن هذا الحاكم وكان لديه نحو ٣٠ ألف رجل طلب من أفرنسو دافورنها الذي كان نائبًا للموانئ في الهند المساعدة ضدَّ الأتراك مقابل عدد من الامتيازات في البصرة من ضمنها إنشاء حامية لهم في ميناء البصرة، وردًّا على ذلك أرسل إليه بأسطول من ١٩ سفينة فيها ١٢٠٠ رجل بقيادة أنطونيو دي نرنها وذلك لمد يد المساعدة إلى حاكمَي البصرة والقطيف. وقد تمكَّن نورنها من تدمير حامية القطيف وتسويتها بالأرض، وبعدها اتجه إلى البصرة غير أنه لم يحقق هناك شيئًا وعاد منها فاشلًا إلى هرمز حيث اكتشف الخدعة؛ ولكن الأوان قد فات.

وقد قرَّر الأتراك الانتقام من البرتغاليين مما سببوه لحامية القطيف والبصرة فأوفدوا أسطولًا يضمُّ ١٦ ألف رجل، وذلك للرد على عمليات البرتغاليين، وأثناء وجود نورنها في هرمز بعث ببعض السفن البرتغالية لاستطلاع النشاط الذي كان يقوم به القائد التركي بير بك، وكاد هذا الأسطول أن يعتقل ابن بير بك.

ومن ناحية أخرى قام الأسطول التركي بالهجوم على مسقط وتدميرها وأرغم قائد الحامية البرتغالي جوا دي لسبوا على الاستسلام بعد قصف متواصل للحامية البرتغالية استمر ١٨ يومًا، ثم أمر بنقل المدافع البرتغالية إلى سفنه وأسر قائد الحامية ورجاله الذي قُدِّر عددهم بنحو ٦٠ شخصًا، وبعد أن أنهى الأسطول التركي تلك العمليات أبحر إلى هرمز وقام بحركات لاستعراض القوة أمام سواحلها. ويصف الكاتب فاريا واي سوازا نشاط بير بك على النحو التالي:

«جاء أسطول العدو إلى مسقط؛ ولكن تلك الدولة الكبرى استطاعت أن تصمد لمدة شهر تقريبًا إلا أنها اضطرت إلى الاستسلام أخيرًا وقد داس

القائد بير بك على القوانين، كما أسـر قائد الحامية البرتغالي و٦٠ من رجاله ونقلوا إلى السـفن التركية وبعد ذلك غادر بير بك إلى هرمز، وكان مع دي الفارو دي نورنهـا ٩٠٠ رجل في الحاميـة، كما التجأ حاكم البلدة وأسـرته وقاضي المحكمة إلى الحامية من العدوان التركي، وكان الأسطول التركي قد أَعد نفسـه لحصار طويل واستولى على ٤٠ مركبًا شـراعيًا كانت في الميناء. وبعد رسو الأسـطول التركي نزل رجاله إلى البر وأقاموا معسكراتهم فيها ثم أخذوا في بناء تحصيناتهم ونصب المدافع التي اسـتخدموها بشـدة متناهية وبدون توقف لمدة شهر واحد.

وكنتيجة للخسـائر الفادحة التي تكبَّدها الأتراك فقـد أمر قائدهم رجاله بنهب المدينة، وبعد ذلك أبحر إلى قشـم التي كان لجـأ إليها عدد كبير من أهالي هرمز، وفي قشـم اسـتولى الأتراك على كميات هائلة مـن الغنائم ثم انسحبوا».

لقد أدرك نورنها نائب الملك في الهند الأخطـار التي باتت تهدِّد النفوذ البرتغالي في الخليج كنتيجة حتمية لنشاط القائد التركي بير بك؛ ولهذا جهز أسطولًا كبيرًا وقرَّر أن يقوده شخصيًا وذلك لإنقاذ هرمز، وأقلع الأسطول في شهر سبتمبر سـنة ١٥٥١م، وعند وصوله إلى هرمز ظهر له بأن الخطر التركي قد زال عنها فعاد إلى جوا.

وفي سـنة ١٥٥٢م قُطعـت رأس بير بك فـي القسـطنطينية؛ لأنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه، وقد حلَّ محله قائـد آخَر يُدعى مراد بك وهو نفس الشخص الذي كان مسؤولًا عن ضياع القطيف من يد الأتراك. لقد خرج مراد بك بأسطول من ١٥ سـفينة والتقى بالأسـطول البرتغالي وكان يقوده ديجو نورنها بالقرب من ساحل فارس، ونشـبت معركة حامية بينهما لم تسفر عن غالب أو مغلوب. وبعد عام من ذلـك التاريخ عاد البرتغاليـون فالتقوا مرة

أخرى بأسطول الأتراك الذي كان بقيادة علي الشلبي وذلك في منطقة قريبة من مسقط. وقد نجح البرتغاليون في إبادة الأسطول التركي تقريبًا وإعادة توطيد سيادتهم على الخليج.

عاد الأتراك إلى محاولتهم لاحتلال الموانئ العربية على الخليج وأعدّوا أسطولًا من سفينتين وسبعين صندلًا، وكانت تحمل ١٢٠٠ فرد من الأتراك الإنكشاريين.

لقد قام هذا الأسطول بشنِّ هجوم على البحرين، غير أن النجدة التي وصلت إلى البرتغاليين من هرمز القريبة من البحرين أسفرت عن فكِّ الحصار عن القلعة وإرغام الأتراك على تسليم ما لديهم من أسرى وأسلحة ومعدات وخيول بالإضافة إلى غرامة ١٠,٠٠٠ دكة، بعد ذلك انسحب الأتراك إلى البصرة.

وفي سنة ١٥٨١م نجح الأتراك في احتلال مسقط احتلالًا مؤقتًا بقيادة علي بك الذي كان قد خرج من مخا ومعه أسطول من ثلاث سفن، وعند وصول الأسطول إلى مسقط شنَّ هجومًا مفاجئًا على البرتغاليين الذين لم يكونوا مستعدين إطلاقًا مما أثار الفزع في صفوفهم ففروا إلى داخل البلاد، وبعد انسحاب علي بك عاد البرتغاليون إلى مسقط؛ ولكنهم وجدوا المدينة مدمَّرة ومنهوبة.

كان حكّام إقليم لار في الأزمنة السابقة أقوى من ملوك هرمز إلا أنه في عهد سيطرة البرتغال على الخليج انقلب الوضع إلى العكس. ويقول المؤرخ فاريا سوزا:

«حاول حكَّام لار دائمًا أن يظهروا تفوُّقهم على ملوك هرمز كما كان الوضع في السابق، أما الحاكم الحالي فيبدو أنه مصمِّم على احتلال

موجستان وأرسل جيشًا جرَّارًا تمكَّن من الاستيلاء على بعض المناطق، كما ضرب حصارًا على هرمز ومنع دخول المؤن إليها من المناطق المجاورة.

وبمساعدة عسكرية قوية من البرتغاليين قام حاكم هرمز بالزحف على حامية شامل وكانت قوية الاستحكامات ويصعب اختراقها، لا بسبب شجاعة المدافعين عنها وإنما بحكم موقعها الطبيعي، ولقد تمكنت القوات المتحالفة بعد قتال مرير من احتلال القلعة وبذلك انتهت عملية استثمار هرمز».

في سنة ١٥٨٦م سيَّر البرتغاليون حملة بقيادة ميلو طوم بيرو على ممباسا، حيث كان يوجد فيها الأتراك، وبعد أن قاموا بتدمير المدينة عادوا إلى هرمز، وفي هرمز توفي القائد، وبعد وفاته توجَّه خليفته إلى مسقط لإقامة حامية فيها شبيهة بالحامية الموجودة في هرمز.

في أواخر القرن السادس عشر تقريبًا وقعت تغيرات في أوضاع البرتغاليين في الشرق كنتيجة لوصول سفن لدول أوروبية أخرى التي وصلت لتشارك البرتغاليين في الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من تجارة الشرق، فقد ظهر الهولنديون في مياه الهند الشرقية، كما بدأت إنجلترا هي الأخرى تتحرك في نفس الاتجاه. وعلى الرغم من أن الهولنديين قد بدأوا في سنة ١٥٩٦/ ١٥٩٧م يوجهون اهتمامهم إلى الهند الشرقية، إلا أنهم لم يكونوا قد ظهروا حتى ذلك الوقت في مياه الخليج، بل إنه حتى قبل ذلك التاريخ أي: سنة ١٥٨٣م كان الشاب الهولندي المشهور جان هوجين فان لنشوتن قد أقلع من لشبونة في رحلته التاريخية إلى الشرق.

أما بالنسبة إلى إنجلترا فإن شركة الهند الشرقية لم تكن قد ظهرت إلى حيِّز الوجود حتى ذلك الوقت، ومن ثم فإن الاحتمالات التجارية في الشرق لم تكتشف إلا من قبل بعض الإنجليز كان أبرزهم هو جون نيوبري الذي

غادر إنجلترا ووصل إلى هرمز في عام ١٥٨٠م، ثم عــاد إلى إنجلترا في عام ١٥٨٢م، وبعد ستة أســابيع من عودته غادر نيوبري إنجلترا مرة أخرى يصحبه رالف فيتش وغيره وقد وصلوا هرمز في سنة ١٥٨٣م ثم عادوا إلى إنجلترا في سنة ١٥٩١م، وربما كانت أهم بعثة رسمية إلى المياه الشرقية هي بعثة لانكستر في عام ١٥٩١م غير أن التاريخ التفصيلي لتلك النشاطات سوف نشير إليه في الفصول التالية للكتاب.



الفصل الخامس

"من عادة المؤرخين أن يُقيِّموا أفكار الإنسان كما يشاءون ويصنفوها كما لو كانت عينات في مختبر أحد علماء الطبيعة، ويقولون بأن ذلك الشيء إنما وقع إرضاءً لغرور الإنسان وهذا الشيء من أجل أهداف قومية وآخَر بسبب دوافع دينية، ولكن في حقيقة الواقع ينبغي أن نتأكد أنه لم يكن حقيقة..."

جاردينير



الصراع بين الإنجليز والبرتغاليين

نستعرض الآن سير الأحداث التي تمخضت عن انتقال السيطرة على الخليج من البرتغاليين إلى دول أخرى. ففي جهود إطار عباس الثاني الكبير الذي تولى الحكم سنة ١٥٨٧م لدعم مركزه، فقد كان من الطبيعي أن ينظر بغيرة إلى القوى التي اغتصبت هرمز.

ويقول اللورد كرزون بأن البرتغاليين كانوا مهووسين ومستبدين ومجردين من الروح التجارية الحقيقية. وبدلًا من أن يتكيَّفوا مع مصالح فارس فقد داسوا على تلك المصالح وأرغموا فارس على أن تشتري متطلباتها من البرتغاليين بالأسعار التي كانوا يقررونها بأنفسهم، وأن يتنقلوا ببضائعهم على السفن البرتغالية، غير أن هذه السياسة قد جلبت عليهم النقمة.

لقد صمم عباس على استرداد هرمز من البرتغاليين واقترح على حاكم لار أن يقدّم طلبًا بهذه المعنى إلى البرتغاليين بحجّة أن حاكم فارس دائن له، حيث امتنع عن دفع الجزية، وكان دفع الجزية قد توقف في الواقع منذ احتلال البكويرك لهرمز، كما نشب خلاف حول تجارة الحرير الفارسية.

ولما كان البرتغاليون رافضين الاعتراف بحقوق الفرس على الجزيرة، اضطر عباس إلى عقد اتفاقية غريبة مع جيمس ملك إنجلترا لاسترداد هرمز،

ولكي نفهم الأهمية الحقيقية في الاتفاقية المذكورة فإنه لا بد لنا من الرجوع للوراء بنحو ربع قرن لمناقشة الأحداث التي أدّت إلى عقد تلك الاتفاقية.

بعثة شيرلي:

في سنة ١٥٩٨م وصل إلى بلاط شاه عباس رجلان إنجليزيان كانا شقيقين ومن أُسرة بارزة في إنجلترا، وعند وصول الشقيقين إلى قزوين ومعهم حاشيتهم المؤلَّفة من ٢٦ فردًا، وكانوا قد وصلوا في موكب تحيط به الأبهة والمظاهر، ومثلوا أمام شاه عباس باعتبارهم فرسانًا قد سمعوا بمكانته العالية وشهرته، وأنهم قد جاءوا ينشدون التشرّف بالخدمة لدى بلاط العاهل الفارسي، واستقبلهم الشاه جميعًا.

إن السير أنطوني شيرلي لم يزعم بأنه يمثِّل أي جهة رسمية، غير أن السبب الأساسي في مجيئه هو محاولة إقناع الشاه على إقامة علاقات مشتركة مع الدول الأوروبية المسيحية بهدف العمل ضدَّ الأتراك بالإضافة إلى إقامة علاقات تجارية مع إنجلترا.

وبعد أن برهن الزائر على صدق نواياه للشاه بطرق عديدة، كما ثبت ذلك من الجهود التي بذلها ذلك الرجل لتعليم الفرس شؤون الحرب وفنونها، كُلّف هذا المبعوث في النهاية بعدد من المهام لدى الدول الأوروبية. وتُعتبر وثائق الاعتماد التي أصدرها شاه عباس إلى السير أنطوني شيرلي، كما يذكر جون مالكولم نوعًا فريدًا في مجال التمثيل الرسمي، وكانت موجهة إلى ملوك أوروبا المسيحية الذين دعاهم العاهل الإسلامي إلى إقامة علاقات صداقة، وقد جاء في تلك الوثائق:

«لقد حضر إلينا في هذه الفترة السعيدة، رجل بارز (السير أنطوني شيرلي) وقد جاء إلينا بمحض إرادته قادمًا من أوروبا إلى هذه المناطق فيا

أيها الأمراء ممن تؤمنون بالسيد المسيح نفيد بأن المبعوث مكلَّف بعقد اتفاقيات صداقة بيننا وبينكم، ومن جانبنا فقد فوضناه في تحقيق تلك الرغبة، ولم يسبق قبل الآن أن تقدَّم أحد لهذا الغرض ولإزالة سوء التفاهم بيننا وبينكم غير هذا الشخص الذي تقدم إلينا بمحض رغبته وإرادته، وإنني أبعث برفقته أحد رجال دولتي.

إلى أن يقول: وقد توطدت العلاقة بيني وبين هذا الشخص إلى الحدِّ الذي كان يتناول طعامه معي طوال إقامته بيننا حتى أصبحنا وكأننا أخوان؛ ولهذا فعند وصول هذا المبعوث أيها الأمراء فيمكنكم أن تكلفوه بكل ما يقوله لكم فهو مفوض مني شخصيًا، بعد أن يكون هذا المبعوث قد قطع البحر وخطا بالمثول بين يدي ملك موسكو العظيم (الذي تربطنا به صداقة قوية تصل إلى مستوى الأخوة) نرجو أن يُستقبل هذا المبعوث بصورة لائقة من جانبكم، ولما كانت هناك صداقة عظيمة بيننا وبين موسكو؛ لذا فإننا نوفد هذا المبعوث إلى بلدكم آملين أن تسمحوا له بحرية التنقّل دون عوائق».

وفي نفس الوقت أصدر الشاه عباس مرسومًا يمنح امتيازات هامَّة للتجار الأوروبيين ممن كانوا يرغبون في التعامل مع فارس، وقد ضمن المرسوم ضمانًا تامًّا لجميع التجّار فيما يتعلّق بسلامتهم وأموالهم أو في ممارسة شعائرهم الدينية، والامتيازات والحصانات التي منحها العاهل الفارسي للتجار الإنجليز التي أُدخلت عليها تعديلات بمضي الوقت، قد تمتع بها كافة الأجانب المقيمين في فارس على امتداد فترة الـ٣٠٠ عام الماضية.

وعلى عكس الامتيازات الأجنبية التي كانت ممنوحة للأجانب في تركيا، فإن الامتيازات التي منحها حاكم فارس لم تحدث أي إحراج إطلاقًا للحكومة الفارسية فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية، وذلك في المناطق الشمالية من فارس، حيث كان المسؤولون الروس قد اعتادوا قبل الثورة

الروسية، ووفقًا للمعاهدات القديمة أو لأسباب أخرى على المطالبة بامتيازات غير معقولة لعملائهم الكثيرين جدًّا في تلك الأقاليم. إن تلك الامتيازات التي تبدو من الناحية النظرية على الأقل مرحلة جديدة في العلاقات الأوروبية الفارسية تُعد أمرًا بالغ الأهمية.

وبموجب الاعتماد الذي منح للسير أنطوني شيرلي فقد غادر فارس إلى أوروبا عن طريق موسكو. ولم تظهر أي نتيجة تُذكر على الأقل بشكل مباشر لمهمته؛ لأنه بعد أن زار عددًا من الدول الأوروبية وصل إلى مدريد حيث بقي هناك إلى أن توفي سنة ١٦٣٠م ولم يعد إلى فارس بعد ذلك، غير أن شقيقه روبرت شيرلي بقي مع الشاه بعد سفر أخيه وعيَّنه الشاه قائدًا لجيش فارس، وقد أظهر روبرت شيرلي دورًا بارزًا في العمليات الحربية التي شنَّها الشاه عباس بنجاح ضدَّ إمبراطور القسطنطينية فيما بين سنة ١٦٠٢/ ١٦٢٧م، وكان يأمل في تحقيق حلمه في إبادة الأتراك وتحقيق اللقاء بين أحلامه وأحلام الدول الأوروبية.

عندما لم يتلقَ شاه عباس أي أخبار أو معلومات من مبعوثه السير أنطوني شيرلي أو عمّا حقّقه في مهمَّته فإنه أخذ ينظر إلى أخيه روبرت شيرلي بعدم الاهتمام. وعلى أية حال ففي سنة ١٦٠٨م أو سنة ١٦٠٩م أوفد شاه عباس روبرت شيرلي إلى أوروبا لنفس الغرض، أي: إقامة وتدعيم روابط الصداقة بين فارس والدول الأوروبية والإعراب عن رغبته في القضاء على النفوذ التركي ومد الحدود الفارسية إلى حدود الدول الأوروبية وذلك بالرغم من النتائج السلبية التي أسفرت عن مهمة المبعوث الأول.

وقد زار روبرت شيرلي بولندا وألمانيا وإيطاليا، ومن إيطاليا توجَّه إلى مدريد، حيث أعلن هناك عن مشروع لتمويل تجارة الحرير (التي كانت تنتقل عن طريق تركيا) إلى هرمز أو إلى أحد الموانئ القريبة. غير أن ملك إسبانيا

لم يحبِّذ المشروع، ومن إسبانيا سافر روبرت إلى إنجلترا وذلك في عام ١٦١١م لتسليم الرسائل التي معه من شاه عباس التي يُعرب فيها العاهل الفارسي عن تقديره العظيم وحبّه لصاحب الجلالة ملك إنجلترا مع رغبته الصادقة في إقامة علاقات وثيقة مع بريطانيا العظمى، كما تضمنت الرسائل وعدًا صريحًا بإعطاء الحرية التجارية لكافة رعايا جلالته في جميع أقاليم فارس.

كانت نتائج مفاوضات شيرلي غير مشجعة، ولقد كانت هناك شكوك حول مهمته كما كان رجال الأعمال في شركة الهند البريطانية يعارضون مشروع شيرلي. وبعد منحه لقب فارس عاد السير روبرت إلى فارس عن طريق السند وبقي في خدمة الشاه.

في سنة ١٦١٣م شعر الإسبانيون بالقلق بشأن مسألة الأمن في هرمز إذ أنه في شهر نوفمبر من ذلك العام وجه فيليب الثالث ملك إسبانيا تحذيرًا للسلطات البرتغالية في الهند عن محاولات كان يقوم بها السير روبرت شيرلي في إنجلترا للحصول على سفن لمهاجمة هرمز، وعند مغادرته إنجلترا كان يحمل تفويضًا لعقد معاهدة مع الشاه بشأن تجارة الحرير والسلع الحريرية مع فارس، كما أكَّد ملك إسبانيا في رسالته إلى نائب الملك البرتغالي في الهند على الحاجة إلى دعم وسائل الدفاع عن هرمز ضدَّ المخططات الإنجليزية، كما حثّه على اعتقال المبعوث البريطاني. وبالرغم من كل ذلك تمكَّن السير روبرت شيرلي من الإفلات والوصول إلى فارس.

تأسيس شركة الهند الشرقية:

في نفس الوقت وبنهاية عام ١٦٠٠م تمّ تأسيس شركة الهند الشرقية بموجب مرسوم ملكي (بتاريخ ١٦٠٠/١٢/٣١م) أصدرته الملكة أليزابيث بوصفها المؤسسة لتجارة لندن مع الهند الشرقية.

أما المحاولات الأولى لبريطانيا للوصول إلـى الهند بقصد التجارة فقد كانت (الممر الشـمالي الغربـي)، ثم بعد ذلك عن طريق روسـيا، وإن أول رجل بريطاني زار الهند فعلًا للتبادل التجاري هو المسـتر توماس ستيفن من أساتذة كلية أكسـفورد الجديدة وذلك سـنة ١٥٧٩م، ثم عُيِّن فيما بعد رئيسًا لكلية العبساويين في جوا.

وقد أثارت خطابات توماس إلى والده ضجةً كبيرةً وحماسًـا شديدًا في إنجلترا لإنشـاء تجارة مباشـرة مع الهند، غير أن الوثائق التي عُثر عليها في السفن البرتغالية التي استولى عليها القبطان ديرك سنة ١٥٨٧م قد كشفت (عن معلومات هامَّة حول فوائـد التجارة مع الهند، بحيـث دفعت الإنجليز على التصميم لإقامة اتصالات مباشرة مع الهند). كذلك فإن تحطيم الأرمادا سنة ١٥٨٨م قد بعثـت ثقة الإنجليز في أسـطولهم وفي قدرتهم فـي التعامل مع الإسـبان والبرتغاليين الذين كانوا سـادة البحار في ذلك الوقت، ومنذ ذلك التاريخ بـدأ تجار لندن يبتكـرون الوسـائل للحلول محـلَّ البرتغاليين في المحيط الهندي.

وعلى أية حال فإن الاحتمالات المغرية لتجارة الشـرق كانت إلى حدٍّ ما قد اكتشفت من قبل ذلك، ومن جانب أربعة تجار بريطانيين هم رالف فيتش وزملاؤه جون نوبري ووليم ديديز وجيمس ستوري، وقد غادروا إنجلترا في سنة ١٥٨٣م ومعهم رسائل من ملكة إنجلترا إلى ملك كومبي وإلى إمبراطور الصين، وكانت رحلتهم تتسـم بالمغامرة. ومن ميناء طرابلس السوري عبروا المنطقة إلى الفرات والفالوجا، ومن الفالوجا إلى بغداد، ثم عبروا نهر دجلة إلى البصرة ومن البصـرة مضوا إلى هرمز في الخليـج، وعند وصولهم إلى هرمز اعتقلتهم السـلطات البرتغالية بتهمة التجسُّس وأُرسلوا إلى جوا، حيث بقوا في السجن بعض الوقت، ويصف المستر فيتش هذا الحادث بقوله:

«هذا في هرمز وبعد وصولنا بوقت قصير تم اعتقالنا وإيداعنا السجن وصودرت السلع التي كانت في حوزتنا من جانب قائد الحامية البرتغالي ويدعى دوم متياس دي البكويرك. ومن هرمز حملتنا السفينة إلى جوا بتاريخ ١١ أكتوبر».

بعد أن قام فيتز بزيارات كثيرة لمناطق الهند وبورما وملقا وسيلان عاد إلى إنجلترا بمفرده سنة ١٥٩١م وضع تقريرًا عن رحلته الثانية، ولا شك أن التقرير المثير عن ثروات الشرق التي لا تنضب الذي وضعه ذلك الرائد المغامر قد أثار لندن، وبعث حماسًا كبيرًا في إنجلترا من أجل الحصول على نصيب من تلك الثروة التي كانت حتى ذلك الوقت حِكرًا على البرتغاليين.

كانت باكورة نشاط شركة الهند الشرقية هي إرسال أسطول تجاري إلى الشرق، ففيما بين ١٦٠٠م و١٦١٢م أُرسل ما لا يقل عن ١٢ أسطولًا من هذا النوع، وقد نجحت هذه الأساطيل في الحصول على نصيب من تجارة الهند. أما أول سفينة تجارية إنجليزية وصلت إلى سورات كانت سنة ١٦٠٨م وكانت بقيادة وليم هوكنز الذي كان يحمل خطابًا من الملك جيمس إلى إمبراطور المغول، وقد حقق هوكنز بعض النجاح في تلك الرحلة. وفي عام ١٦١٢م نجح توماس بست الذي وصل بأسطول آخَر من ثلاث سفن في عقد اتفاق تجاري مع السلطات المحلية في سورات.

وبموجب مرسوم صدّق إمبراطور المغول على ذلك الاتفاق، ثم بعد وقت قصير أنشأ مركزًا تجاريًا في سورات. وفي عام ١٦١٥م اتخذت خطوة هامّة أخرى من جانب شركة الهند الشرقية في لندن. إن تجارب شركة الهند الشرقية وعلى الأخص الإجراءات البرتغالية المعادية لكل مشروعاتها بأن مصالحها التجارية في الهند سوف تكون أكثر فائدة ومركزها أكثر قوة لو تم تعيين ممثل دبلوماسي لإنجلترا لدى بلاط إمبراطور المغول. وقد حبّذ

الملك جيمس الاقتراح وتم تعيين السير توماس روي، وكان من الشخصيات البارزة وله خبرة في السياسة والقضاء سفيرًا معتمدًا لدى إمبراطور المغول في مدينة أزمير وذلك في سنة ١٦١٥م.

وتتلخص مهمة السير توماس روي كما صدر بها المرسوم في ٢٩ ديسمبر سنة ١٦١٤م فيما يلي:

«تنص التعليمات الصادرة للسير توماس روي الذي يتمتع بلقب فارس هي أنه قد فُوِّض من قِبلنا وتحت خاتم دولتنا إنجلترا بتمثيلنا كسفير لدى إمبراطور المغول (أو إمبراطور بلاد الهند الشرقية) وتبعًا لذلك يتعين عليه أن يحافظ على شرف الملك وهيبته سواءً باعتبارنا ملكًا ذا سيادة أو كمسيحي مؤمن، وأن يعمل على تطوير تجارة شركة الهند الشرقية وهو المجال الرئيسي لوظيفته، وأن يلتزم بتعليمات الشركة ولا يحيد عنها، وإذا ما سأله إمبراطور المغول عن سبب خلاف البرتغاليين في جوا، وما يجري مجراه في تلك المنطقة لرعايا المَلِك، وبما يبدون لهم من عداء فعليه أن يرد عليه بأن البرتغاليين قوم يسعون أن تكون التجارة كلها في أيديهم ومع أن البريطانيين قادرون على رد القوة بالقوة دفاعًا عن النفس إلا أن صاحب الجلالة يرغب في الامتناع عن القيام بمثل هذه الإجراءات».

وهكذا استطعنا أن نقيم شركة الهند الشرقية على أُسس متينة كخطوة في سبيل التنمية السياسيَّة والاجتماعيَّة لإنجلترا خلال القرون من السابع عشر حتى التاسع عشر، وليس غرضنا في هذا الكتاب على أية حال أن نتتبع أعمال وتطوُّر الشركة ككل وإنما نتناول ذلك النشاط الذي اقتصر على فارس ومنطقة الخليج وبصورة تدريجيَّة.

وعند وصول المندوبين الإنجليز للشركة أمام إمبراطور المغول، وَجَدت

السِّلع والأقشمة الإنجليزية سوقًا فوريةً، إلا أنه تبين فيما بعد أن السلع التي صُدِّرت إلى هناك كانت زيادة عن الطلب، وبعد البحث تبيَّن لتوماس أن هناك سوقًا لتلك السلع في فارس؛ بسبب برودة الجو هناك وأن الفرس يستعملون مثل تلك الأقشمة لفترة تمتد لخمسة شهور كل عام.

وقد تَلقَّى توماس أولدورث تلك المعلومات من ريتشارد ستيل وهو شاب من برستول كان قد وصل إلى فارس سنة ١٦١٢م للحصول على ديون له، وعند وصوله إلى سوراث كشف عن تلك المعلومات المثيرة بشأن احتمالات التجارة في فارس، بحيث أرسلوه بصحبة تاجر آخَر يُدعى جون كروسر إلى أصفهان لجمع المزيد من المعلومات للحصول على مرسوم حكومي يضمن استقبالًا سليمًا لرجال الشركة وسفنها وبضائعها في كافة الموانئ الفارسية.

وقد زود كروسر بخطاب توصية للسير روبرت شيرلي الذي كان قد عاد لتوه من دولته كمبعوث للشاه إلى جميع حكومات أوروبا (١٦٠٨ ـ ١٦١٣م) كما طلب من المبعوثين بأن يتأكَّدوا من نجاح المشروع التجاري وأن يزوروا موانئ الساحل الفارسي لمعرفة أفضلها لرسو السفن. غير أنه يبدو أن السير روبرت شيرلي قد استقبلهم بفتور في أول الأمر إلا أن مهمتهم في النهاية قد كُلِّلت بالنجاح التام.

وفي سنة ١٦١٦م أصدر شاه عباس مرسومًا بذلك المعنى ويتضمن تعليمات بحُسن استقبال البريطانيين الذين يفدون إلى فارس. أما بالنسبة للميناء فبعد أن تفقد عددًا من الموانئ كبندر عباس وجاشك وساحل الباطنة في عُمان والبحرين وبوشهر وقع اختيارهم على جاشك التي تبعد ٩٠ ميلًا فقط من هرمز، وكان هذا الميناء يقع داخل الخليج ولا خطر عليه من البرتغاليين.

وقد أعطى ستيل وصفًا لاختياره جاشك في الخطاب الذي بعث به إلى الشركة سنة ١٦١٦م أو سـنة ١٦١٧م قال فيه: «هذه هي موانئ بلاد فارس حيث أنه يصعب أن ترسو سـفينة من حمولة ١٠٠ طن، ومع ذلك فميناء هرمز الذي كان اسمه رأس جاشـك يمكن لسـفينتين حمولة ٥٠٠ إلى ٦٠٠ طن أن ترسو فيه، كما علمت ذلك من مصدر موثوق به، كما يمكن للسفن الكبيرة حسب اعتقادي أن تدافع عن نفسـها ضدَّ أي هجوم من البرتغاليين بعكس السُّـفن الصغيرة».

إن منح ذلك المرسوم إلى سـتيل قد أثار جدلًا فوريًّا حول ما إذا كانت الامتيـازات التجارية التي منحها شـاه عبـاس تحول لصالح شـركة الهند الشرقية، وإذا كان ذلك فبأي طريقة. أما السير توماس روي فقد طلب الحذر والتروي في الأمر، واقترح إجراء تحقيـق أولًا عن الحالة التجاريَّة في فارس كما اقترح أن يزور أصفهان بنفسه بتكليف من إنجلترا؛ وذلك لكي يتأكد من الأمر شـخصيًّا، وكان يرى أن المرسـوم ليـس له أهمية خصوصًـا وأنه لم يتضمن نصًّا بوجوب إنشـاء ميناء مزوَّد بوسائل الدفاع (كردّ على ميناء هرمز البرتغالي).

كما أن المرسوم لم يتضمن تعهُّدًا بتوجيه التجارة فعلًا إلى ميناء جاشك، أو لنفس الأسـباب، إلى أي ميناء فارسـي آخَر قد يتعامل معه البريطانيون، وأما بالنسبة لفارس فلا يعرف أصحاب الشـركة ما هي التعهدات التي التزم بها. وجاشـك ليست ميناءً صالحًا لتصريف السـلع وكان من رأيه أن الوقت غير مناسـب لتنفيذ ذلك المشـروع في فارس خصوصًا وأن السـير روبرت شـيرلي كان قد عاد منذ وقت قريب إلى فارس بعد أن مثَّل شاه عباس لدى ملك إسبانيا الذي كان قد زوّد بمعلومات لعقد اتفاق مع ملك إسبانيا يقضي بأن يقوم البرتغاليون والإسبان في حالة السـماح لهم باستخدام بندر عباس

وغيرها من مناطق الساحل الفارسي بشراء كافة السلع الفارسية المعدَّة للتصدير وبإرسال أسطول كل عام إلى فارس بشحنات من التوابل والفلفل والأقمشة الهندية.

وكان هدفهم من ذلك في حالة نجاح مهمة شيرلي أن تبطل تهديدات الشركة. وعلى هذا الأساس كان السير توماس روي يحاول منع الشركة من اتخاذ أي إجراء حاسم. ومع ذلك فإنه قد وجَّه رسالة إلى شاه فارس يشكره على المرسوم الذي منحه لزميله ستيل، إلا أنه أوضح في رسالته بأن مفاوضات الشاه مع إسبانيا قد تتعارض مع نصوص المرسوم؛ لأنه يعطي حرية التجارة إلى كافة التجار المسيحيين، وأشار إلى أن منح دولة أخرى حقوق احتكار التجارة قد يدفع الإنجليز إلى استعمال القوة وتعكير صفو الأمن في الخليج.

وعلى أية حال فلقد كان لأصحاب الشركة في سوراث رأيٌ يختلف عن ذلك فقد كانوا مُصمّمين على افتتاح مركز أن مراكز لهم في فارس على الرغم من اعتراضات توماس روي، وكانت أسبابهم تتركز في:

(أ) بأن الفرصة القائمة هي فرصة نادرة خاصَّة وأن روبرت شيرلي الذي قد يثير المشاكل بعيدًا عن فارس.

(ب) بأن الحرب بين فارس وتركيا التي كانت تعرقل سير حركة التجارة مع أوروبا قد تؤدي إلى نقص في بعض الأقمشة القطنية والحريرية في فارس.

(ج) أنه لا بد من البحث عن سوق لتصريف فائض السلع الموجودة في سوراث.

(د) أن ميناء جاشك ملائم للعمليات وأن وجود سفينة واحدة يعتبر كافيًا

لتوفير الحماية للميناء من أي عدوان قد يقوم به البرتغاليون.

وهكذا تمّ تجاهل آراء روي، كما أن التجار قد عارضوها في رسالة بعثوا بها إلى الشركة وذكروا فيها أن روي غير مطلع على أمور التجارة في فارس.

اختير إدوارد كونك الذي له خبرة طويلة في التجارة مع تركيا للإشراف على المشروع وفي سنة ١٦١٦م خرجت أول سفينة إنجليزية واسمها جيمس من سوراث إلى جاشك بحمولة ضخمة من السلع إلى فارس. وقد حاول البرتغاليون الاستيلاء على السفينة؛ ولكنهم لم ينجحوا في ذلك وتمكنت من الوصول إلى وجهتها يوم أول ديسمبر بعد رحلة دامت ٢٧ يومًا، وفي يناير التالي تم إنزال السلع. ورغم عدم أهمية تلك الصفقة إلا أنها شكَّلت بداية طيبة لنصيب البريطانيين في النشاط التجاري في الخليج.

وفي سنة ١٦١٩م نجحت الشركة في إقامة مركز لها في جاشك، وكانت التجارة مع العاصمة الفارسية تتم عن طريق هذا الميناء إلا أن تم افتتاح ميناء جمبرون.

ويعود الفضل إلى حدٍّ كبيرٍ إلى السير توماس روي رغم أنه قد عارض الإجراء الذي ارتآه جماعة التجار الإنجليز في سوراث، وكان يعلّق عن موقفه هذا صراحة، ومع ذلك فقد بذل روي جهدًا كبيرًا لإنجاح المشروع، ويبدو لنا أن السير توماس روي كان يهدف إلى سوق تجارية منتظمة، رغم أنه كان يحبذ أن تكون التجارة حرة مع إسبانيا وتفاهمًا سلميًا معها إلا أن غيره كان يرى وجوب تشجيع شاه فارس على طرد البرتغاليين من بلاده وأن يتمكن الإنجليز من احتكار التجارة الفارسية لصالح شركة الهند الشرقية.

ويمكن تلخيص نشاطات شركة الهند الشرقية خلال السنوات القليلة

التالية على الشكل التالي: في سنة ١٦١٧م أقام كونك مركزًا تجاريًا في شيراز، وفي مستهل نفس العام افتتح مركزًا آخَر في أصفهان، وكان الشاه متغيبًا على الحدود التركية عند وصول كونك، غير أن الأخير استطاع مقابلة الشاه الذي احتفى به وبالـغ في إكرامه إلى حـدٍّ أنه لقب الملك جيمـس بأخيه الأكبر وشـرب نخب الملك، كما وعد بإعطاء الإنجليز ميناء جاشك أو ميناء آخَر، وهكذا حصل كونك على مجموعة أخرى من الامتيازات من الشاه.

في سنة ١٦١٨م حصلت شركة الهند الشرقية على امتيازات أخرى محددة في فارس كما تبيَّن أن الشاه كان يحبِّذ رأي توماس باركر وهو الشخص الذي عيّن كونك مسؤولًا عن شـؤون البعثة في فارس وبأن يتم بيع جميع أصناف الحرير الفارسـي للإنجليز وحدهم في المستقبل والامتناع عن إرسال أي شيء منها إلى أوروبا عن طريق تركيا أو إلى إسبانيا أو إلى البرتغال.

وبعد هـذه المعاملة التفضيلية للإنجليز تعتبر (مـن الناحية النظرية على الأقل) مرضية جدًّا.

ومن المفيد أن ندرس موقف البرتغاليين في الخليج في تلك الفترة. لقد كانوا في عام ١٦٠٠م أسيادًا في الموانئ الرئيسـة على جانبي الخليج أي: في هرمز وقشم ومسـقط والبحرين وفي البصرة أيضًا من الناحية التجارية على الأقل، غير أن علامات التفسُّـخ قـد بدأت تظهر عليهـم، ويمكننا أن ندرك بسهولة كيف أن ظهور البريطانيين في القواعد الشرقية للبرتغال قد أثار الفزع فيهم فكانوا ينظرون إلى أي حركة للسفن الإنجليزية في غِيرة شديدة؛ ولهذا حاولوا قدر المسـتطاع منـع جميع السـفن الأجنبية الأخرى من ممارسـة الملاحة في الخليج بغير تصريح من قباطنة الموانئ التي يسـيطرون عليها، وكانوا يمارسـون تلك الإجـراءات بمنتهى التعسُّـف، كل ذلـك من أجل الاحتفاظ بسـيطرتهم على التجارة. غير أن ولاء الشـركة في سوراث الذين

كانوا واثقين من تقيد ملاحيهم الإنجليز بالنظام وتحليهم بالشجاعة قد عارضوا تلك الإجراءات البرتغالية بشدَّة، وكانوا في قرارة أنفسهم مصمِّمين على انتزاع الهيمنة على الخليج من أيدي البرتغاليين عندما تَسنح الفرصة.

وفي سنة ١٦٠٢م تقريبًا نجح شاه فارس في طرد البرتغاليين من البحرين التي كانوا يسيطرون عليها منذ أن طردوا الأتراك منها في أواخر القرن السابق. وفي عام ١٦٠٤م أصبح البرتغاليون في حالة يائسة على طول ساحل الخليج؛ وذلك بسبب الغارات التي كانت تشنّها سفنهم من ناحية ولعجزهم على الحصول على المواد التموينية اللازمة من ناحية أخرى. ويذكر تيكسيرا الذي أبحر في مياه الخليج في تلك الفترة تقريبًا أنَّه:

«على طول هذا الساحل سرنا ٣٥ يومًا أمضيناها في عناء وتعب فقد نفدت مؤونتنا ولم نقدر على الحصول على مواد تموينية؛ لأن كل منطقة ذلك الساحل موبوءة بأعمال القرصنة التي يمارسها البرتغاليون مستخدمين نوعًا من السفن الصغيرة يسمَّى (فيستا). وإلى الشمال يوجد خليج سيف الدين تقطنه أغلبية عربية وهو يخضع للشاه، كما يخضع بعضهم للبرتغاليين ويحصلون على جوازات سفر منهم، وبدون تلك الجوازات يتعرضون للخطر من جانب السفن البرتغالية المسلَّحة التي تتعقَّب سفنهم غير أن هؤلاء السكان على عداء مع البرتغاليين؛ بسبب المظالم التي كانوا يتعرَّضون لها».

وفي عام ١٦١٢م وسنة ١٦١٥م مُنِي الأسطول البرتغالي بهزيمة في معركة بحرية مع البريطانيين في منطقة غير بعيدة عن سوراث كان من نتيجتها أن بدأ إمبراطور المغول ينظر إلى البرتغاليين بأنهم ضعفاء في قوتهم البحرية وكان لتلك النكسة رد فعل سيئ على سمعتهم البحرية في الخليج. وفي سنة ١٦١٢م أيضًا استولى البرتغاليون كما يبدو على جمبرون أو بندر عباس كما سُمِّيت فيما بعد وقاموا بتحصينها احتياطيًا ضدَّ أي هجوم محتمل على

هرمز. وفي سنة ١٦١٣م حاول حاكم إقليم لار استعادة جمبرون؛ ولكنه فشل في محاولته. أما البرتغاليون فقد احتفظوا ببندر عباس حتى سنة ١٦١٥م إلى أن أخرجهم منها الفرس بعد حصار طويل.

أما عن الساحل الغربي فقد كانت قبضتهم أقوى، وفي سنة ١٦١٦م قاموا بهجوم على صحار واحتلوها وقاموا بنهب الحامية وذبح أفرادها والقضاء على صحار كميناء منافس لميناءي مسقط وهرمز، كما أنهم استولوا على داخل المدينة بالقوة.

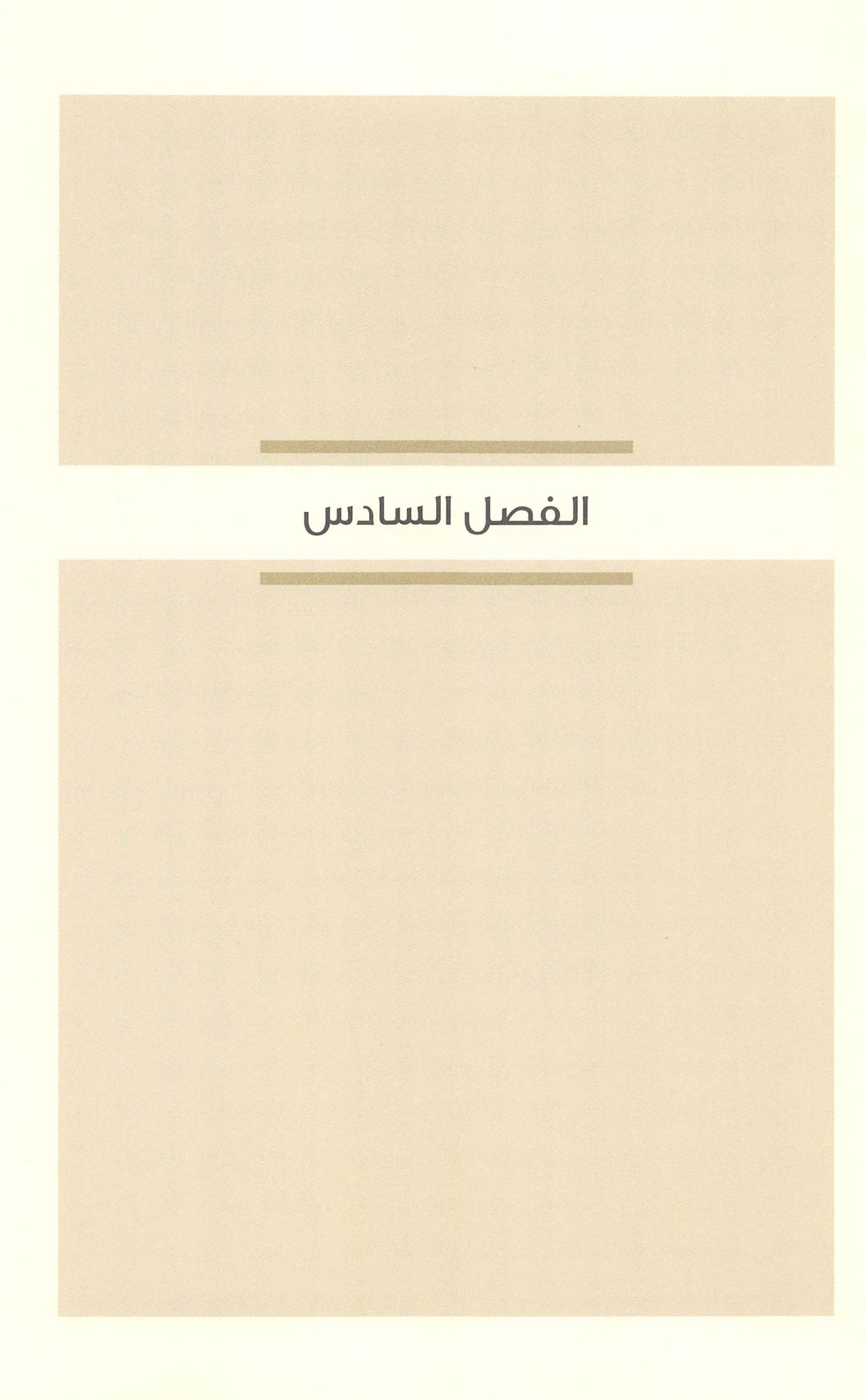
وفي الوقت الذي كانت الشركة الإنجليزية توطد أقدامها تدريجيًّا؛ ولكن بصورة أكيدة، كان البرتغاليون يقومون بمحاولات فاشلة لخطب وِدّ شاه عباس بعد أن شعروا بأنه يسعى لطردهم منها، وفضلًا عن ذلك فإن العمليات التجارية الناجحة للبريطانيين في المناطق القريبة من هرمز قد أضرَّت كثيرًا بازدهارها، وقد أحدث وصول أسطول إنجليزي مع بعض السفن التجارية إلى جاشك قلقًا شديدًا في هرمز ولهذا فقد بدأت الاستعدادات للدفاع عن المدينة.

في عام ١٦٢٠م تقريبًا نجح الفرس في طرد البرتغاليين من موقع كانوا يحتلونه على الساحل الغربي بالقرب من رأس الخيمة، وقد ساعدهم بعض العرب في ذلك الإجراء بينما كانت قوة عسكرية فارسية تعمل من داخل فارس وتهدد بشكلٍ خطيرٍ تموين هرمز للمياه، وذلك عن طريق محاصرتهم للقلعة التي شيَّدها البرتغاليون في جزيرة قشم التي كانت تزوِّد هرمز بالماء وبالمؤن.

في نهاية عام ١٦٢٠م مُنعت سفينتان تابعتان للشركة الإنجليزية من دخول جاشك؛ وذلك من جانب الأسطول البرتغالي، غير أن السفينتين عادتا إلى سوراث وهناك تم تعزيزهما بسفينتين أخريين، وبذلك استطاعت السفن

دخول جاشك بعد مناوشة بينهم وبين البرتغاليين. لقد عاد الأسطول البرتغالي إلى هرمز لتجهيزه، وعاد إلى الظهور مرة أخرى بأسطول أكبر، ونشب قتال بين الجانبين أسفر عن انتصار الإنجليز.

ويبدو أن مدفعية البرتغاليين كانت ضعيفة وبعد أن يئسوا انسحبوا من ساحة المعركة متكبدين خسائر كبيرة، ومن ذلك الوقت لم يكرِّر البرتغاليون محاولاتهم للتصدي للإنجليز. وبعد أن قام أسطول شركة الهند الشرقية بشحن ٥٢٠ بالة من الحرير الفارسي لإنجلترا عاد إلى سوراث راضيًا عن النصر الذي حقَّقوه في أول مواجهة لهم مع منافسيهم البرتغاليين في الصراع على مكان تحت الشمس في مياه الخليج.



الفصل السادس



طرد البرتغاليين من الخليج

استاء البرتغاليون كثيرًا من الخطوات التي كان يتخذها الإنجليز لتدعيم مركزهم في فارس على أُسس تجارية متينة، كما استاءوا من نشاط الفرس سواءً داخل فارس أو في الجزر المجاورة لهرمز التي كانت تزود هرمز بحاجتها من الماء والمواد الغذائية، ولهذا فقد بعث الملك فيليب في سنة ١٦١٨م برسالة إلى نائب ملك البرتغال في جوا يحثّه فيها على دعم وسائل الدفاع عن هرمز. وقد تسلم الملك ردًّا مطمئنًا على اتخاذ تلك الخطوات بالفعل.

في سنة ١٦٢١م شعر شاه عباس الذي كان يقيم علاقة سلمية مع تركيا منذ عام ١٦١٨م الذي استطاع إخضاع إقليم لار المجاور لسلطته، بأنه في وضع يسمح له بطرد البرتغاليين من هرمز، التي كان وجودها تحت سيطرتهم يتناقض مع كرامته القومية وازدهار بلده.

ومما لا شك فيه أن الشاه قد تلقّى تشجيعًا بذلك من السير أنطوني شيرلي، ويبدو أن السير أنطوني شيرلي في بداية مهمته على الأقل قد حاول منع الشاه من عقد تحالف مع الدول الأوروبية مقابل الحصول منهم على مساعدات عسكرية في حروبه الدائمة ضدّ الأتراك، وبتركيز جهوده بدلًا من ذلك في تدعيم سلطته في داخل البلاد.

في سـنة ١٦٢١م أدرك الشـاه أن الوقت قد حان فعـرض طلبه عن طريق حاكم إقليـم لار؛ ولكن الأخير ردَّ عليه بأن الجزيـرة هي جزء من إقليم لار وذلك من قبل وصول البكويرك إلى المنطقة، كما قام البرتغاليون من جانبهم بإرسـال ردّهـم بالرفض القاطـع لطلـب الشـاه، وبذلك أصبـح الفرس والبرتغاليون في حرب سـافرة غير أن الفرس كانوا أضعـف من أن يغامروا بالقيـام بعمليات حربية حتى لـو افترضنا أنه كان فـي إمكانهم أن يضغطوا بمدفعيتهم ضدَّ اسـتحكامات جزيرة هرمز، وأنـه كان يتعين عليهم أولًا حل مشـكلة الاحتفاظ بجيش لمحاصـرة الحامية في تلك الجزيـرة المقفرة في الوقت الذي كانت سفن روي فرير هي التي تتحكم في البحر.

في البداية ضرب الفـرس الحصار على قلعة جزيرة قشـم لكي يضمنوا وصول المؤن والمياه إلى هرمز. أما على الجانب الفارسـي فقد كانت هناك فرصة أمام قولي حاكم شـيراز وهو الذي كان يقود العمليات، غير أن الأمور حتى في الجانب الفارسي لم تكن تسير على ما يرام.

صادف في ذلك الوقت وصول أسطول من السفن الإنجليزية متجهًا إلى جاشـك من سـوراث، ومن الواضح أنه كان في رحلة تجارية عادية. وكان الخان فـي ميناب وعلـى الفور طلب مـن القائد الإنجليزي الاشـتراك في الهجوم على كل من قشـم وهرمز، بعـد أن وعد الإنجليز بإغـراءات كثيرة وألمح في الوقت نفسـه إلى أنه إذا مـا رفض الإنجليز مسـاعدته في تلك الحرب التي جاءت نتيجة لموقف الشاه الودي من الإنجليز، فإن الامتيازات الممنوحة لهم سوف تسـحب كما سـتصادر بالات الحرير التي كان يتوقع وصولها من أصفهان لحسابهم.

وهكذا وجد الإنجليز أنفسـهم في مأزق، ويبدو أن مجلس إدارة الشركة في سـوراث قد كلف القائد الإنجليزي بعد انتشـار أعمال التهديد والسلب

والنهب من جانب البرتغاليين بمحاولة الاستيلاء على السفن البرتغالية بل بمهاجمتها في الموانئ إذا وافق مجلس ضباط الأسطول على مثل تلك الإجراءات. غير أن شن هجوم على ممتلكات أحد الأمراء الأوروبيين الذي كانت تربطه بالإنجليز علاقات طيبة، أو توجيه السفن البريطانية ضدَّ حاميتين قويتين (ناهيك عن سفن أسطول القائد البرتغالي روي فرير) فقد كان أمرًا يختلف.

كذلك فإن المركز الرئيسي في لندن وقف موقفًا سلبيًا من تلك الإجراءات وكان من المحتمل أن يعارض القيام بعمليات عسكرية دون أن يكون هناك تهديد مباشر لأعضائها.

ومن ناحية أخرى فقد كان رفض التعاون مع الفرس يعني خسارة الشركة لحمولتها من الحرير وضياع تلك التجارة التي كلف بناؤها كثيرًا من الجهد، ولما تكتمل بعد. وعلى أية حال وبعد نقاش طويل، ونزولًا على رأي سنوكس إلى حدٍّ كبيرٍ تقرر إشراك كبير ممثلي الشركة في فارس في تلك الإجراءات ووضع حدٍّ نهائي لتهديدات البرتغاليين في الخليج.

إن الأوضاع الغريبة والاتفاق المعقود بين الفرس والإنجليز بشأن العمليات المقترحة كانت تتلخص في رأي هربرت فيما يلي:

«أن تكون حامية هرمز (إذا أمكن احتلالها) مع ما فيها من ذخيرة ومدفعية من نصيب الإنجليز: على أن يقوم الفرس ببناء حامية أخرى لهم في الجزيرة على نفقتهم إذا شاءوا ذلك. وأن تقتسم الغنائم بالتساوي، وأن يتم التصرف في الأسرى المسيحيين من جانب البريطانيين، والعرب من جانب الفرس، وأن يدفع الفرس على الأقل نصف تكاليف العمليات والأجور والذخيرة وعلى أن يتمتع الإنجليز في بندر جمبرون بالإعفاءات الجمركية من الرسوم».

بعد توقيع ذلـك الاتفاق أصبح كل طرف مسـتعدًّا للقتال، ولقد ظهرت بعض المصاعب في إقناع البحَّارة الإنجليز في الاشتراك في العملية فقد قالوا بأنها ليست عملية تجارية وأنهم لم يعينوا للقيام بعمليات كهذه، غير أنه عن طريق تهديدهم مرة وإقناعهم مرة أخرى (بما في ذلك مكافأة براتب شهري) سحبوا اعتراضهم.

وفي يوم ١٩ يناير سنة ١٦٢٢م انطلقت السفن من جاشك. وفي يوم ٢٢ منه رسـت بالقرب من هرمز، حيث كان الأسـطول البرتغالي يرسو بالقرب من الحامية هو الآخَر، وكان يتألف من خمس سـفن مسلحة وسفينتين صغيرتين وعدد من الفرقاطات.

تَوقّع الإنجليز بأن تخرج سفن البرتغاليين لمواجهتهم مباشرةً، وعلى كلٍّ فإن ذلك لم يحدث؛ ولهذا انتقل الأسطول الإنجليزي إلى قشم ورسا بالقرب من القلعة البرتغالية التي كانت تحت قيادة روي فرير؛ وبسبب الضغط الذي وقع على البرتغاليين من الفرس من جهة البر وهجوم الأسـطول الإنجليزي عليهم في البحر بعد إنزال وحدة مدفعية وإقامة بطارية على السـاحل اضطر البرتغاليون إلى الاستسـلام، وأخذ روي فرير وكبار مسـاعديه أسرى. كانت الإصابات علـى الجانب الإنجليزي في تلك العمليـة طفيفة عبارة عن ثلاثة قتلى وجريحين، غير أنه لسوء الحظ كان من بين القتلى الإنجليز وليم بافن قبطان السـفينة «لنـدن» الملاَّح البـارع والشـهير في تاريخ ارتيـاد القطب ومكتشف خليج بافن.

تم إقامة حامية فارسـية في قلعة قشـم يشـاركهم أربعة إنجليز، وبعدها انتقل الأسطول إلى جمبرون للتمهيد للعملية الكبرى بمهاجمة هرمز نفسها. أما روي فرير وغيره من الأسرى فقد أُرسلوا إلى سورات.

وفي فبراير أبحرت السفن الإنجليزية يصحبها نحو مائتي مركب فارسي

من جمبرون ورست بالقرب من هرمز. وفي اليوم التالي أنزلت إلى البر قوة عسكرية فارسية كبيرة بقيادة إمام قولي واستولت على الجزيرة وطردت البرتغاليين من القلعة التي كانت تتمركز في مكان حصين على بروز أرضي يمتد إلى داخل البحر.

وفي ٢٤ فبراير أُحرقت أكبر سفينة برتغالية وهي سان بيدرو وغرقت، أما القوات الفارسية فقد استطاعت بتاريخ ١٧ مارس تدمير خطوط دفاع البرتغاليين بعد هجوم قامت به عليها، غير أنها صدت من جانب البرتغاليين الذين قاتلوا ببسالة. وبناءً على أوامره من القائد الفارسي إمام قولي أشعلت النار في المدينة عندما تبين أن الجنود الفرس قد أخذوا يتسكعون في ملاهي البلدة وتعذَّر حشدهم للقيام بالهجوم.

وعلى أية حال فإن الجيش الفارسي تعرَّض إلى مجاعة تقريبًا، ثم الماء القليل الذي تم الحصول عليه قد نفد، حتى أنه لو تمكَّن الأسطول البرتغالي الذي كان ينتظر وصوله بين لحظة وأخرى من طرد السفن البريطانية لأصبح وضع القوات الفارسية التي كانت تحاصر المدينة دقيقًا جدًّا؛ لأنه كان عليهم أن يجلبوا المؤن والمياه من داخلية البلاد. كما كان تسليح الجيش الفارسي سيئًا، ولم يكن لديهم قطع صغيرة من السلاح وبعض السهام والسيوف، وكان لدى بعض رؤسائهم دروع. ومن ناحية أخرى كان موقف الإنجليز حرجًا من جراء تصرّف القائد الفارسي الذي نقض اتفاقه معهم أكثر من مرة، وكان يعقد اجتماعات مع البرتغاليين دون إبلاغ الإنجليز بذلك. كما أنه ارتكب مخالفات عديدة.

في بداية شهر أبريل أخذت الحامية البرتغالية تعاني من الأمراض ونقص المواد التموينية، وقد قام المحاصرون بهجمات غير ناجحة حتى يوم ١٩ أبريل عندما نجحت القوات المتحالفة في اختراق الاستحكامات الخارجية للحامية وأرغمت البرتغاليين على التراجع إلى المعاقل الداخلية للقلعة.

وفي يوم ٢١ أبريل قام البرتغاليون بمبادرة للاتصال بالإنجليز عن طريق خطاب أرسله قائد الحامية يطلب فيه وساطة الإنجليز مع القائد الفارسي. وجاء في الخطاب أنهم إذا ما اضطروا إلى الاستسلام بأسرع ما يمكن فإنهم سوف يستسلمون للإنجليز؛ لأنه كما ذكر ليس من اللائق لهم أن يتصلوا بالشرقيين مع وجود الإنجليز.

وقد أكَّد القائد البريطاني في ردّه على المحافظة على الأرواح، وتم الاتفاق على هدنة يومين لوضع صيغة للشروط. وفي يوم ٢٣ سلم البرتغاليون أنفسهم للإنجليز واشترطوا أن يتم إرسالهم إلى مسقط أو الهند، وقد تم إنزال العلم البرتغالي من على قلعة البكويرك بعد أن ظلّ يرفرف عليها أكثر من مائة عام.

على الجانب الإنجليزي، خسر الإنجليز نحو ٢٠ رجلًا، غير أن خسائر الفرس ربما بلغت ألف قتيل. أما طاقم الحامية الذي كان يتألف من نحو ٣٠٠٠ شخص بما فيهم الرجال والأطفال فقد أرسلوا إلى مسقط وصحار، وقد أصيب عدد كبير منهم بالمرض، غير أن الأكثرية كانوا يعانون من المجاعة وعلى العموم فقد كانت حالتهم سيئة نتيجة جروحهم وأمراضهم، وصراخهم يهز حتى أشدَّ القلوب تحجُّرًا وقسوةً.

بعد استسلام الحامية البرتغالية بدأت عمليات سلب ونهب لمحتوياتها، رغم أنه على حدِّ قول هربرت قد تم ختم مخازن الذخيرة والأسلحة والأموال بالشمع الأحمر بختم البلدين.

ويبدو أن عملية السلب والنهب لم تقتصر على طرف واحد، فعلى عكس الاتفاقية قد استغلت الهدنة من جانب الفرس لذبح أكثر من ١٠٠ رجل كانوا شبه موتى، كما اعتدى الفرس على الكنائس والمباني. وفي تلك الأثناء قام

أحد الإنجليز (خِلافًا للأوامر) بالدخول قسرًا إلى أحد الأديرة وعند عودته افتضح أمره.

وقد تشجع الفرس (اعتقادًا منهم بأن الاتفاقية قد فُسخت) وأخذوا يستولون على كل ما هو ثمين وغال. كذلك يذكر مونوكس بأن كُلًّا من الإنجليز والفرس أخذا ينهبون لدرجة أنه شعر بالخجل والاشمئزاز من تلك الأعمال، غير أنه لم يكن في استطاعته أن يفعل شيئًا لوقف تلك التصرفات.

والواقع أن غنائم هرمز لم يتم تقسيمها تقسيمًا عادلًا كما تنص الاتفاقية الفارسية البريطانية، فكانت النتيجة هي أن الفرس فازوا بحصة الأسد. وأما الذي حصل عليه الإنجليز كنصيب للشركة فإنهم لم يستطيعوا حتى تصريفه نظرًا لقلة المشترين.

كما لم تسلم البنود الأخرى من الاتفاقية فقد رفض الفرس اقتسام المعدات الحربية مع الإنجليز بحجة وجوب الاحتفاظ بها في القلعة للدفاع المشترك، كما عارضوا في بقاء أي إنجليزي في القلعة ما لم يتعهد القائد الإنجليزي بتخصيص سفينة للحماية، وفوق ذلك كله فقد قدمت فاتورة عن المياه والمواد التموينية التي استهلكها الإنجليز. وعلى العموم فقد كان الإحساس العام في أوساط رجال الأسطول بأن الإنجليز عُوملوا بطريقة مخجلة. وعندما طلب قائد الفرس من القواد الإنجليز استكمال مهمتهم في شأن هجوم على مسقط كان رد الإنجليز مهذبًا؛ ولكنه حاسمًا.

ولقد فعلت الأمراض فعلها في الجانب الإنجليزي أيضًا ويقول مونوكس: «أنه بعد أن أنجزنا مهمتنا بدأت متاعبنا التي كان يزيدها سوءًا شدة الحرارة التي لا تُحتمل، ثم بسبب تصرّف رجالنا وإدمانهم على الخمر وغيرها من المخالفات لدرجة أن ثلاثة أرباع رجالنا مرضوا ومات عدد كبير منهم حتى

إننا خشـينا أن يكون مرض الطاعون قد انتشـر. لكل تلك الأسـباب غادر أسطولنا هرمز عائدًا إلى سوراث في يوم أول سبتمبر سنة ١٦٢٢م».

وإذا نظرنـا إلى المسـألة من كافة جوانبهـا فإنه يكون مـن الصعب أن نكتشـف عن الفوائد التي جناها الإنجليز من تلك العملية، فقد أعادوا هرمز إلى أصحابها الذين اعترضوا حتى على مشـاركة الإنجليـز لهم في احتلال هرمز، بينما لم تعط حصيلة بيع الغنائم التي تم الاستيلاء عليها حتى النفقات الفعلية للعملية. ومـن ناحية أخرى فإن الإنجليز قد نجحوا وبشـكل منقطع النظير في خلق أعداء ألداء لهم هم البرتغاليون. وقد تحدَّث ريتشـارد بوثبي وهو أحد التجار الإنجليز عن تلك العملية وألقى باللوم على الذين سـمحوا للفرس باحتلال ذلك الموقع الهام دون عرض الموضوع أولًا على الحكومة البريطانيـة، ويضيف بوثبي بأن الحركـة التجارية في هرمز فـي تلك الأيام كانت أعظم من الحركة التجارية في لندن وأمسـتردام حتـى في عِزِّ ذروتها. وقد تحـدث عن المـرارة والكراهية التي كان يشـعر بهـا البرتغاليون تجاه الإنجليز؛ بسبب اشتراكهم مع الفرس في انتزاع هرمز من أيديهم.

غير أن مؤرخي القرن العشـرين لا يوافقون بوثبي على رأيه، صحيح أن اشـتراك الإنجليز في الهجـوم على هرمز لـم يكن له مبررات دبلوماسـية واضحة؛ لأن إنجلترا وإسبانيا كانتا على علاقات طيبة عندما عقدت الاتفاقية مع الفرس. وقد احتج العرش الإسـباني على العملية وكان من المحتمل ألا توافق الحكومة على إجراءات الشـركة، وقد تعتبر الشركة قراصنة لا تجارًا، وعلى أية حال فإن الشركة كانت مصمِّمة على الدفاع عن سلامة موقفها، كما أن مونوكس الوكيل الرسمي للشـركة (الذي كان في تلك الأثناء قد عاد إلى إنجلترا) قد قدَّم أسـبابًا عديدةً لتبرير الإجراء وعلى الأخص التفويض الذي حصلت عليه الشـركة من صاحب الجلالة ملك إنجلترا بوجوب الدفاع عن

مصالح الشركة ضدَّ الاعتداءات البرتغالية في الخليج، كما أنه أوضح أيضًا التزامات الشاه تجاه الشركة الذي كان قد هدَّد بحظر التجارة على الإنجليز في فارس إذا ما رفضوا الاشتراك في العملية.

وفي النهاية فقد تقرَّر عدم تقديم اعتذار لملك الإسبان، غير أن الشركة قد اضطرت إلى إرضاء الملك جيمس بتقديم هدية له تبلغ عشرة آلاف جنيه إسترليني، ودفع مبلغ مماثل إلى دوق باكنجهام القائد العام، كما أعطيت منحة رسمية في شكل سلع ومواد كان موظفو الشركة قد استولوا عليها في الهند الشرقية مع إصدار عفو عام عن جميع الذين اشتركوا في تلك العمليات.

إن السيطرة البرتغالية على الخليج وإن كانت لم تتحطم كليةً، إلا أنها قد ضعفت بسقوط هرمز. كما أن الإنجليز من ناحية أخرى قد وجدوا في هرمز ميناءً حُرًّا أفضل من جاشك. وعلى الرغم من أن شاه عباس قد تجاهل الكثير من بنود الاتفاق الخاص بمساعدة الإنجليز في احتلال هرمز، إلا أنه بصورة عامَّة ظلَّ مُتمسِّكًا بالمرسوم الذي منحه لكونك في عام ١٦١٧م الذي يخول للإنجليز شراء أي كمية من الحرير الفارسي قد يحتاجونها وفي أي منطقة من فارس ونقل تلك السلع إلى أصفهان دون دفع أي رسوم جمركية.

كان الفرس مهتمين بأن يتبعوا بنجاحهم في احتلال هرمز بنجاح آخَر وهو احتلال مسقط التي كانت تُعتبر آخِر المعاقل البرتغالية القوية. غير أن الإنجليز امتنعوا عن تقديم المساعدة لهم؛ نظرًا لأن موقف حكومتهم من الإجراء السابق قد حدَّ من حماسهم.

وعلى أية حال فقد استطاع الفرس احتلال صحار وخورفكان على الساحل العُماني، غير أن القائد البرتغالي روي فرير تمكَّن من الهرب من الاعتقال، بالإضافة إلى امتناع الإنجليز عن مساعدة الفرس سمح للبرتغاليين

من استئناف عملياتهم ضدَّ الفرس وتمكنوا من طردهم من صحار وخورفكان وقاموا بتدمير بعض المناطق على الساحل الفارسي فيما بين جاشك وجمبرون، كما أخذوا في اعتراض السفن الفارسية في مياه الخليج، وأخيرًا حاولوا قطع المؤن عن هرمز، إلا أنه على أية حال كانت القوات التي تحت تصرّف روي فرير أضعف من أن تتمكَّن من فرض حصار طويل على هرمز أو شنِّ هجوم مباشر عليها.

أن مدينة هرمز التي ذاع صيتها في يوم من الأيام قد جرَّدها البرتغاليون من كل مميزاتها وأمجادها وكمدينتي طيرة وبابل تحولت في سنوات معدودة إلى خرائب وأنقاض. أجل إن تلك الجزيرة الصغيرة كان ازدهارها وثراؤها مضرب الأمثال، التي كانت تتفاخر بكثافة سكانها الذين بلغوا ٤٠ ألف نسمة وكانت أكبر سوق لتجارة الشرق الجميل قد غدت الآن مكانًا مقفرًا لا يزيد سكانه على ٢٠٠ نسمة يعيشون بالكاد من بيع محصول الملح الذي يشكِّل المادة الرئيسية للتجارة ومن استخراج الأوكسيد الأحمر الذي يصدَّر إلى أوروبا.

واصل البرتغاليون احتلالهم لهرمز بحامية صغيرة إلى أن تم طردهم منها بأسطول مشترك من الإنجليز والهولنديين سنة ١٦٢٥م. منذ ذلك الوقت ازدادت سرعة تدهور المدينة. وفي وثيقة لشركة الهند الشرقية نجد ما يلي:

«بالنسبة لهرمز فإنه يبدو أن الفرس لا يميلون إلى استيطانها من جديد؛ ولكن الملك ينوي أن يجعل من جمبرون الميناء الرئيسي بعد أن أمر بهدم كل المنازل وأصدر أوامر بعدم البقاء على حجر واحد وهو لا يزال يسيطر على قلعة هرمز بنحو ٣٠٠ جندي، وكان البرتغاليون يحاصرونها بعشرين فرقاطة كما أحرقوا كل السفن التي كانت راسية في الميناء تقريبًا بحيث لم يعد المكان صالحًا لممارسة الأعمال التجارية».

أما السـير توماس هربرت الذي زار هرمز في نحو عـام ١٦٢٧م أي: بعد خمس سنوات من احتلالها ويعتبر شاهد عيان على تدهورها فيقول:

«على طرف الجزيـرة تلوح أنقاض تلـك المدينة الزاهرة التي شـيَّدها البرتغاليون وهي تخضع لملك مسـتبد، وكانت من قبل توازي مدينة اكستر في مساحتها وحجمها، ومبانيها واسـعة وجميلة وتضمُّ بعض الأديرة وسوقًا كبيـرةً، إن هذا المدينة الفقيـرة قد جردت الآن مـن كل جمالها وازدهارها، فالفرس في كل شـهر يقتلعون الأحجار وينقلونها إلى جمبرون التي أخذت هي الآخرى تبرز مـن بين الأنقاض وهي لا تبعد عن هرمـز بأكثر من ثلاثة فراسـخ. وخلاصة القول إن هذا المكان المتواضع لم يعد يستحق أن يمتلكه أحد، وكان قبل عشر سنوات الدولة الوحيدة في الشرق، إذا كان يتعين علينا أن نصدِّق ذلك».

إن شاه عباس الذي كان سـعيدًا جدًّا بالنصر الذي حقَّقه في هرمز وضع خططًا بارعة لإنشـاء ميناء بحري عظيم داخل بلده، وقد اختار لذلك القرية السـابقة المهجورة جمبرون لإنشـاء ذلك الميناء وأطلق اسـمه عليه بحيث سُـمي بندر عباس وهو المكان الذي كان مقدَّرًا له بأن يلعب دورًا بارزًا في تاريخ الخليج، وقد تم تحويل تجارة وسـكان الميناء القديم إلى هذا الميناء الجديد، وقد سمح لشركة الهند الشرقية باحتلال مبنيين في جمبرون؛ ولكن لم يسمح لها ببناء مساكن خاصَّة لهم خوفًا من أن يحولوها إلى قلعة.

على أن الإنجليز قد وجدوا في جمبرون مينـاءً يتيح لهم نقل منتجاتهم إلى فارس بطريقة أسهل من ميناء جاشـك، وإن لم يكن أقرب المناطق التي ترتبط بالعاصمة. وعلى امتـداد قرن ونصف ظلَّت بندر عبـاس مركز الثقل الرئيسي لشركة الهند الشرقية على سواحل الخليج.

الفصل السابع

«ذلكم هو النجاح الذي حققوا عن طريقه كل شيء، كان يبدو كما لو أن الدنيا قد اختارتهم ليكونوا سادة هذا العالَم كما لم يكن يبدو أنهم قد ذهبوا كرجال حرب، وإنما كمشرعين للنُّظُم والقوانين، فمن كان يظن أن أركان الكرة الأرضية سوف تهتز كلها لعدد قليل من الرجال الأبطال، كما لو كانت تقودهم أقدار سعيدة لا مجرد قواد بواسل: إنهم لم ينزلوا قط من عليائهم، ثم ألم يكن قصر نظرهم وخلافاتهم هي السبب في سقوطهم حتى أن العناية الإلهية التي رفعت من شأنهم، لم تعد تصغي إليهم. إن هذا يضطرني إلى أن أروي بعض أشياء كانت في نظري أهم من كل شيء يمس شرف بلادي كان يجب أن يظل في طي الكتمان.»

فاربا سوزا في: «آسيا البرتغالية»



الهولنديون في الخليج

إن ما بقي من تاريخ البرتغاليين في الخليج فسوف نأتي على ذكره. فبعد إخراجهم من هرمز بطريقة غير شرعية قام بها نفر من الرجال الشجعان لأحد الأساطيل التجارية البريطانية تصادف وجودها في المنطقة وتمخضت عن تدمير كامل لنفوذ البرتغاليين في الخليج، كما قد تعتبر أول خطوة في طريق القضاء على إمبراطوريتهم الواسعة في الهند الشرقية. ويقول البكويرك أن ثمة ثلاث مناطق في الهند تشكِّل سوقًا هامَّةً للسلع في هذا الجزء من العالَم، كما أنها المفاتيح الكبرى لتلك الأسواق... وهي المنطقة الواقعة عند منفذ مضيق سنغافورة... أما الثانية فهي عدن مدخل ومخرج مضيق البحر الأحمر، أما الثالثة فهي هرمز وهذه الأخيرة في نظري أهمها جميعًا. فلو استطاع ملك البرتغال السيطرة على عدن وبناء حامية فيها كتلك التي توجد في هرمز وملقا وتتحكم تمامًا في هذه المضايق الثلاثة كما أوضحت، فإنه سوف يلقب بسيِّد العالَم كله تمامًا كالإسكندر بعد أن عبر الجانجز، إذ بهذه المفاتيح الثلاثة يمكنه أن يغلق الأبواب كلها أمام كل القادمين، غير أن الفرصة للسيطرة على هذه المضايق أو التحكم في إحداها على الأقل قد فقدت في الحقيقة بشكلٍ نهائي.

لكي يعوض البرتغاليون خسارتهم اتخذوا من مسقط على الجانب الآخر

مسرحًا لعملياتهم، حيث شيَّدوا حاميات بالغة المناعة ولتكون مركزًا لنشاطاتهم في الخليج سواءً من حيث التجارة أو التعبئة البشرية. وبما أن حاميات مسقط لم تكن حاميات ملاحية كهرمز، فقد كانت معرَّضة للضرب من الخلف، أي: من شعب عُمان الثائر، وقد أثبتت تلك الحاميات بأنها مصدر كبير للخطر، كما احتفظ البرتغاليون بسيطرتهم على البصرة وإن كان بطريقة سلمية.

ويحدِّثنا فاريا سوزا: «أنه بعد أن فقد البرتغاليون هرمز، ركَّزوا نشاطاتهم التجارية في هذه المدينة وأنشأوا مركزًا للتعليم والثقافة، وحتى عام ١٦١٠م على الأقل كانوا ينافسون الإنجليز بشكلٍ خطيرٍ، كما قام البرتغاليون بمحاولة فاشلة لاسترداد هرمز في سنة ١٦٢٥م، وفي نفس العام أقاموا مركزًا تجاريًا وقلعة في كنج على ساحل فارس، وبقوا هناك على امتداد الفترة التي استطاعوا فيها إرغام السفن بالرسو فيها، وحقَّقوا قدرًا كبيرًا من الازدهار التجاري، وفي سنة ١٦٣٠م قام نائب الملك البرتغالي في جوا بعد تلقيه تعزيزات من تسع سفن وألفي مقاتل بمحاولة جديدة لإعادة احتلال هرمز، غير أن المحاولة باءت بفشلٍ ذريعٍ.

وبمضي الوقت أخذ البرتغاليون يشعرون بوطأة فقدانهم نقطة ارتكازهم الرئيسية في الخليج. وفي سنة ١٦٣١م أرسل ملك إسبانيا تعليمات إلى نائبه بأنه لا بد له من أن يصل إلى تفاهم مع حاكم هرمز حتى لو أدى الأمر إلى تقديم الرشوة إليه؛ وذلك بهدف إعادة احتلال ذلك المركز لصالح ملك البرتغال.

وفي هذا الإطار تم إيفاد فالديز للاجتماع بروي فرير قائد حامية مسقط، غير أن المبعوث فشل في مهمته واضطر البرتغاليون إلى الاكتفاء بإقامة قلعة في جلفار (رأس الخيمة) على الساحل العربي وتبعد نحو ٥٠ فرسخًا عن مسقط.

وقرابة عام ١٦٤٠م بدأت المتاعب تنهال على البرتغاليين في الخليج، فقد

أبلغ بعض موظفي الجمرك في مسقط إمام عُمان بأن القلعة البرتغالية في مسقط خالية من وسائل الدفاع لغياب أفراد عنها في مهمة بحرية. ونتيجة لذلك قام الإمام بشنِّ هجوم على القلعة إلا أنه رد على أعقابه متكبدًا خسائر فادحة، على أن ذلك الوضع كان فاتحة لسلسلة من الهجمات الخطيرة.

وفي عام ١٦٤٣م استولى الإمام على صحار التي كانت في يد البرتغاليين لفترة امتدت عشرين عامًا. غير أن الضربة النهائية لهيبة البرتغاليين قد جاءت على أية حال في سنة ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩م عندما تحركت قوة كبيرة من العُمانيين بقيادة الحاكم اليعربي وضربت حصارًا على مسقط استمر شهرين وانتهى باستسلامها، وقد تحقَّق الاستسلام للبرتغاليين بشروط صعبة هي كما يلي:

«يقوم البرتغاليون بهدم القلاع في قريات وصور ومطرح، وبالمثل يقوم الإمام بهدم القلعة العُمانية في مطرح على أن تبقى مطرح حرة لا تخضع لأي من الجانبين، وأن يكون الطرفان حرين في نقل معداتهم وأدواتهم، وأن تتمتع السفن العربية بحرِّية الملاحة في رحلاتها إلى الخارج، أما في رحلاتها إلى الداخل فيتعين عليها أن تحمل تصاريح برتغالية، وبأن لا يدفع رعاياها الإمام أية رسوم سواءً عن أشخاصهم أو عما يشترون من سلع عند مغادرتهم مسقط. وأن تكون التجارة حرة حرية كاملة وبغير قيود على الإطلاق، وبأن يرفع العُمانيون العوائق التي أقاموها خلال حصارهم لمسقط، كما لا يسمح للبرتغاليين بإقامة أية مبانٍ في المواقع التي أرسلت فيها حامياتهم».

إن هذه الشروط التي فُرضت على دوم جوليودي نورنها القائد العام لحامية مسقط تؤكِّد بوضوح على عوامل الدمار للمستوطنات البرتغالية في عُمان وانهيار سيطرتهم فيها.

غير أنه لم يكن أمام البرتغاليين من معنى لقبول الشروط. أما عن النهاية التامة للبرتغاليين فلم تأت بعد. ففي أواخر عام ١٦٤٩م تعرضت مسقط

للحصار من جديد، ونظرًا لانعـدام الرقابة على الجانب البرتغالي فقد تمكن العُمانيون من التسلل ليلًا إلى الداخل، واستولوا على أحد المراكز البرتغالية وعلى أحـد الحصون. وتحت الضغط الشـديد اضطر القائـد البرتغالي إلى التراجع إلى الحامية، وبما أن ذلك قد فصله عـن بقية القوات وعن مخازن الذخيرة والسلاح فقد استسلم في يوم ٢٣ يناير سنة ١٦٥٠م.

أما النجدة البحرية التي أرسـلها نائب الملك في جـوا فقد وصلت بعد فوات الأوان. وهكذا جلا البرتغاليون عن عُمان وفقدوا سـيطرتهم كلها على السـواحل العربية. ومن منطلق ذلك الانتصار الذي حقَقه الإمام سـلطان بن سيف، بدأت حركة جهاد شاملة، ونقل المعركة إلى داخل معسكرات الخصم وقواعده، فهاجم ديـو وغيرها من المواقع البرتغالية واسـتولى على كميات خرافية من الغنائم.

إن ضياع مسـقط من يد البرتغاليين قد حرمهم من آخِـر معقل لهم في الخليج. لقد أرسل نائب الملك أسطولًا من السفن إلى الخليج في عام ١٦٥٢م وعند اقترابه من مسقط التقى بأسـطول عربي كان يتحصن تحت مدافع قلعة مسـقط. ويعتقد البعض أنه كان في وسـع البرتغاليين تدمير السـفن العربية بسهولة، بل واستعادة المدينة، غير أن قائد الأسطول تردَّد، على ما يبدو، في المغامرة بأسـطوله، وهكذا ضيّع فرصـة نادرة لإعادة النفـوذ البرتغالي إلى مسقط، وأصبح المعقل الوحيد الذي بقي للبرتغاليين في الخليج كما أشرت آنفًا هو ميناء كنج؛ لكن حتى هذا الميناء قد ضاع من أيديهم في النهاية، كما أن نفوذهم علـى ممتلكاتهم في الهند وفي الشـرق عمومًـا بدأ يضعف هو الآخَر في وجه المنافسة الشديدة من الإنجليز والهولنديين؛ لأن وسائل هؤلاء كانت تختلف عـن وسـائل البرتغاليين من جهة، وبسـبب تصاعـد العداء والمقاومة من جانب السكان العرب وشعوب الهند من جهة أخرى.

إن تدهور النفوذ البرتغالي في الشرق يمكن أن يعزى إلى أسباب كثيرة؛ ولكنه يعود أساسًا إلى عجز منهم وسوء فهمهم في التعامل مع الشعوب الشرقية التي احتكوا بها، وإلى خلافاتهم الداخلية. أما عن نشاطاتهم التجارية التي لم يكونوا يحسنون ممارستها فإنها لم تصمد أمام منافسة التجار الإنجليز والهولنديين الذين كانوا يعملون في إطار شركات تجارية منتظمة. فقد اعتمد نفوذ البرتغاليين على القوة العسكرية وحدها، وقد تحطمت هذه القوة في نهاية الأمر بحكم افتقارها إلى النظام والزعامة الحقيقية. ومن ناحية أخرى فقد كان صعود نجم الشركات الهولندية والإنجليزية يُمثِّل انتصارًا لنظام فردي على نظام احتكاري تمارسه دولة.

أما عن مستوى النظام في الأسطول البرتغالي وأساليب البرتغاليين التعسفية في البحر، فقد ألقى عليها الضوء دلافالي الرحَّالة الإيطالي الذي بالرغم من ميوله الكاثوليكية الواضحة لم يسعه إلا أن يقارن ما رآه على السفن البرتغالية بالأوضاع التي كانت تسود السفن الإنجليزية وله هذه الملاحظة:

«في ٣١ يناير سنة ١٦٢٧م بينما كنا نبحر (من مسقط) شعرنا بريح خفيفة، وشاهدنا سفينة من على بُعدٍ، وبعد أن رأتنا أطلقت مدفعًا كإشارة لنا لكي نتوقف حتى تقترب منا، فعرفنا عندئذٍ أنها إحدى سفن روي فرير، ومن عادة السفن البرتغالية أن تفعل هذا، وبموجب ذلك فإنه يتعين على السفن التجارية أن تمتثل، أما إذا لم تفعل فإن السفن الحربية البرتغالية تقوم بإغراقها، وعليه فقد توقفنا حتى اقتربت منا. عندئذٍ لاحظت عدم الانضباط العسكري في السفينة البرتغالية وافتقار البرتغاليين إلى النظام في إدارتهم. وقد طَلَبت منا تلك السفينة ماء وبحارة فقد كان من عادة السُّفن الحربية البرتغالية أن تأخذ من السفن التجارية التي تلتقي بها كل ما تريده سواءً طوعًا أو كرهًا رغم أن

هذا تصرّف سيئ ويؤدي إلى عواقب وخيمة. وقد أعطيناهم برميلين من الماء؛ ولكن لم نعطهم بحارة لقلّة البحارة لدينا».

وقد تحدّث مؤرخوهم كثيرًا عن الدمار الذي أوقعوه بالهند في معرض تعليقهم على انهيار النفوذ البرتغالي، ولم يتردد هؤلاء الكتّاب من تأنيب البرتغاليين على الأساليب التي استخدموها ويذكر فاريا سوزا في معرض حديثه عن مشروعات البرتغاليين فيقول:

«البرتغاليون يسعون إلى جمع الثروة دون أن يؤمنوا الوسائل الكفيلة بحمايتها. إن تدهور أحوالنا ينبعث من الاستهتار بالأشياء الهامّة طمعًا في الأمور التافهة، وإن تشبث البرتغاليين بالأمور التافهة جعلهم ينسون بلادهم وكرامتهم. إن البرتغاليين يستطيعون استرداد ما فقدوه لو عرفوا الاحتفاظ بما حقّقوه الذي يشكّل جانبًا مجيدًا في تاريخهم».

بهذه الأحكام القاطعة التي لا يسع القارئ إلا أن يقارنها بالعصر الذي يعيش فيه يمكننا أن نخرج باستنتاجاتنا عن المغامرات البرتغالية الفاجعة، والآن لنتلفت إلى ما حدث من تطورات فيما بعد.

قدوم الهولنديين:

إن اختفاء البرتغاليين من ميدان الصراع لم يعف الإنجليز من النزاع السياسي والتجاري في الخليج. فقد كان عليهم أن يواجهوا العداء الخطير، تجاريًّا وسياسيًّا من الهولنديين.

ويعود الفضل في اشتراك الهولنديين في تجارة الهند الشرقية إلى المعلومات التي أدلى بها في أواخر القرن السادس عشر جان هوجين فان لنشوتن نجل أحد المواطنين من هارلم؛ لأن للهولنديين تجارة غير مباشرة

مع الهند والشرق لفترة من الزمن تسبق عام ١٥٩٥م عندما كان الهولنديون خاضعين لملك إسبانيا، وقد قام فيليب الثاني بمحاولة للقضاء على التجارة الهولندية باتخاذ إجراءات صارمة لوقف كافة أنواع التبادل التجاري بين البلدين وعن طريق الاستيلاء عنوة على السفن الهولندية في المياه الإسبانية.

وكان من السياسة الإسبانية الواضحة أن تمنع حركة التبادل التجاري بين الهولنديين والمستعمرات البرتغالية في الشرق؛ ولكن بدلًا من أن يؤثِّر ذلك الخطر على روح المغامرة في الهولنديين الذين كانوا على علم بالأرباح التي حقَّقها البرتغاليون من تجارة التوابل فعقدوا تلك الرغبة في القيام باتصالات مباشرة مع الشرق.

توجه لنشوتن إلى الهند سنة ١٥٨٣م ضمن حاشية بطريرك جوا، وأقام فيها نحو ١٣ سنة. واستطاع أن يجمع معلومات واسعة عن تلك المحاصيل التي كان تشكِّل مصدرًا عظيمًا لتجارة ووسائل النقل. وبعد عودته سنة ١٥٩٢م نشر نتائج أبحاثه ووضع لوحة عملية للملاحين كما رسم خطوط الملاحة من لشبونة إلى الشرق، وحدد التيارات البحرية والرياح التجارية والموانئ والجزر والشعب للمحيط الهندي كما أضاف خرائط لتلك المواقع.

بعد عودة لنشوتن مباشرة أوفد تجار أمستردام كورينليس هوتمان الذي سبق له أن قام بعدة رحلات إلى الهند في السفن البرتغالية إلى لشبونة لإجراء المزيد من التحريات عن تجارة الهند الشرقية. وبعد عودته إلى هولندا سنة ١٥٩٤م عرض بأن يسيِّر أسطولًا من طريق الرأس لتعريف أبناء بلده على تجارة الهند. وقد قام التجار بتوفير المال اللازم للرحلة وأرسلوا في عام ١٥٩٨م أسطولًا من أربع سفن إلى البلاد الواقعة على الجانب الآخَر من رأس الرجاء الصالح بقيادة هوتمان.

وقد عاد هوتمان سنة ١٥٩٧م بعد أن فقد ثلثي تجارته وإحدى سفنه التي اضطر إلى حرقها دون أن يحقِّق شيئًا يُذكر في ميدان التجارة. غير أنه عاد باتفاق عقده مع ملك بنتام وافق بمقتضاه على فتح الهند الشرقية للملاحة مع هولندا. كما جهز الهولنديون أساطيل أخرى كبيرة. وفيما بين ١٥٩٨م و١٦٠١م عَبر طريق الرجاء ما لا يقل عن ١٥ أسطولًا من تلك الأساطيل. وبتلك الجهود لم يحقِّق الهولنديون نصيبًا في التجارة فحسب وإنما استولوا في النهاية على عدد من المستعمرات البرتغالية في الهند (وهكذا فخلال الوحدة مع البرتغالي سنة ١٥٦٠ ـ ١٥٨٠م أصبح الهولنديون منافسين أقوياء للبرتغاليين والإنجليز ثم أخيرًا تمكَّنوا من القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند).

لقد أدَّى نجاح هوتمان إلى إنشاء العديد من المؤسسات التجارية في هولندا التي أدمجت في سنة ١٥٩٨م في (الجمعية التجارية للأقطار البعيدة). ومنذ ذلك التاريخ تقريبًا ساد نشاط الشركة التجارية الهولندية جنبًا إلى جنب مع نشاط التجار الإنجليز. وفي عام ١٦٠٢م رأت الدولة الهولندية أن تدمج مؤسساتها التجارية العديدة المتنافسة في شركة واحدة كبرى، وذلك بموجب مرسوم ملكي صادر لتأسيس (شركة الهند الشرقية الهولندية) ومنحها امتيازات خاصَّة لمدة ٢٠ عامًا. ولقد تحولت تلك الشركة إلى ركيزة قومية، وقبل مرور سنوات كثيرة ترسخت مقومات التجارة بين هولندا والشرق على الرغم من أنه لم تظهر حتى ذلك الوقت أية سفينة هولندية في مياه الخليج.

في سنة ١٥٩٩م بعد أن نجح الهولنديون في توطيد أقدامهم في تجارة الشرق الأقصى رفعوا أسعار الفلفل من ثلاث شلنات للرطل إلى ستة شلنات، ثم فيما بعد إلى ثمان شلنات للرطل؛ وذلك نكاية في الإنجليز. وقد جاءت هذه العملية في أعقاب الحوافز التجارية التي برزت نتيجة لنشر أبحاث كل من رالف فيتش ولنشوتن في إنجلترا التي رغم ضآلتها كانت أبحاثًا هامَّة؛

نظرًا لأن صدورها هو الذي شجع تجار لندن إلى اتخاذ إجراءات الحماية، وأدى إلى تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

وقبل مضي وقت طويل ظهر تناقض في المصالح بين الشركتين الإنجليزية والهولندية. فقد نشأ صراع بينهما حول تجارة التوابل والفلفل، فقد كان الهولنديون في بداية أيامهم يسعون - قدر استطاعتهم - إلى احتكار التجارة كلها بما في ذلك السلع الهامَّة، وإذا كان يمكننا أن نعول على إحصائيات الأرباح الناتجة عن استيراد تلك السلع إلى أوروبا فإنها كانت تشكِّل بالفعل أهم شحنات التجارة الشرقية، وكان البرتغاليون سابقًا هم خصوم الهولنديين ومنافسوهم في هذه التجارة، والآن جاء الدور على الإنجليز.

إن تتبُّع تفاصيل تطور الفتوحات الهولندية في الهند والهند الشرقية لا يدخل ضمن هذا البحث الذي سيقتصر على تناول نشاطاتهم السياسية والاقتصادية في الخليج باعتبارها انعكاسًا للنشاطات الأخرى، الأمر الذي ألقى بالهولنديين في معمعة الصراع مع البرتغاليين أولًا، ثم مع الإنجليز ثانيًا، اللذين كانا بدورهما خصمين أحدهما للآخَر.

وعلى أية حال فإنه من المهم للذين يدرسون القضايا العالمية في سنة ١٩٢٧م أن يتعرَّفوا على عملية التزاوج والاندماج اللذين شهدتهما الفترة الواقعة قبل ثلاثة قرون من هذا التاريخ بين الشركات التجارية الصغيرة وتحوُّلها إلى مجموعات تجارية كبيرة، ثم تحوَّلت أخيرًا وبمساندة دولها إلى مؤسسات احتكارية شاملة أدَّت إلى تعقيدات دولية وحروب سافرة.

نعود الآن إلى الشؤون ذات الطابع المحلي الأكثر. وهكذا فإن مركز المصالح قد انتقل من هرمز (بعد أن فقدها البرتغاليون ودمّرها الفرس) إلى

بندر عباس. وسنتذكر بأن أصحاب شركة الهند الشرقية قد أنشأوا مركزًا لهم في بندر عباس في سنة ١٦٢٩م، وفي بندر عباس أيضًا ظهر الهولنديون مباشرة بعد ذلك مما سـبَّبت قلقًا لوكلاء الشـركة. غير أن مجـيء الهولنديين إلى الخليج لا بـد وأن يرتبط بتلك المسـاعدة التي قدَّموهـا للإنجليز في دحر الأسطول البرتغالي في عدَّة معارك جرت على مرأى من ساحل بندر عباس. ثم بعد ذلك كرَّسوا جهودهم لانتزاع امتياز من الشاه بمنحهم حصة في تجارة الحرير. وكان في ذلك الوقت الشاه مشغولًا في حربه للدفاع عن بغداد التي كان الأتراك يحاصرونها.

غيـر أن الامتيـازات التي حصلـوا عليها سـبَّبت قلقًا حقيقيًا للشـركة الإنجليزية التي كانت تُدرك خطورة الصراع الهولندي في الشـرق وأساليب الهولنديين الخبيثة التي أدَّت إلى مذبحة أمبونيا سـنة ١٦٢٣م. ويقول الرئيس فرسلاند في رسـالة إلى شـركة الهند الشـرقية: «بأن الهولنديين يرمون إلى إغلاق كافة المناطق والأقطار التي كان يتعامـل معها الإنجليز ويحاولون أن يجعلونا مكروهين في نظر العالَم مثلهم».

لقد تحوَّل الهولنديون إلى قسـاة ودمويين واقترفوا أخيرًا أعمالًا وحشيةً بقتل كل من يصادفونه من الناس صديقـًا كان أو عدوًا الأمر الذي لا يرضى عنه الله ولا الناس وإني أرجو من سيادتكم أن تقطعوا كل علاقة لكم بهؤلاء المتوحشين. كما ذكر السـير توماس روي في رسالة إلى شركة الهند الشرقية في سـنة ١٦١٧م عن الهولنديين أنهم مجرمون ويتصرفـون بصلف وعجرفة، وفي رسـالة أخرى في سـنة ١٦٢٤م قال روي: «بأنه قد جرَّبهم شـرقًا وغربًا ويعرف حق المعرفة همجيتهم وغرورهم»».

وعلى أية حال فقد تعاون الهولنديون مع الإنجليز في سـنة ١٦٢٥م عندما اشتبكوا مع الأسطول البرتغالي بقيادة الفيرو بوتيلكو في معركة بحرية التي

كانت آخِر محاولة للبرتغال لاسترداد هرمز، وقد أصيبت السُّفن البرتغالية بأضرار فادحة، غير أن الإنجليز والهولنديين لم يتمكنوا من ملاحقتهم عند انسحابهم، وبالرغم من أن الهولنديين قد تعاونوا مع الإنجليز في تلك العملية إلا أن نواياهم على أية حال كانت موضع شك من جانب موظفي الشركة، فكانوا يتهمونهم بالتآمر مع الفرس للاستيلاء على هرمز التي أصبحت مدينة مهجورة، وكانت شكوكهم في محلِّها كما برهنت الأحداث فيما بعد.

وفي سنة ١٦٢٥م كانت التجارة الإنجليزية مع فارس في أَدنى مستواها حتى أن توماس كاوندج الوكيل الأول في أصفهان قرَّر إغلاق المركز هناك، إلا أنه بعد أن تشاور مع الوكلاء الآخَرين في بندر عباس قرَّر استئناف النشاط التجاري حتى يحدث ما يقضي بخلاف ذلك، ولم يكن ذلك مرتبطًا بالامتيازات التي تم الحصول عليها؛ ولكن لأن «الهولنديين قد تطفلوا علينا وحاولوا تشويه موقفنا من التزامات الشركة». ومن ثمّ فإن زوال البرتغاليين من الساحة لم يعف البريطانيين بأية حال من المتاعب التجارية والسياسية، وإنما على العكس، إذ أنه مع استمرار تدهور النفوذ البرتغالي تصاعد النفوذ الهولندي، وبمضي الوقت أصبح ذلك النفوذ يشكِّل خطَرًا أكبر على الإنجليز.

بعد استقرار الهولنديين في بندر عباس رفضوا دفع الرسوم الجمركية. وقد ترك ذلك الإجراء تأثيرًا مباشرًا على الإنجليز؛ لأنهم قد حصلوا على تفويض من الشاه بجمع الرسوم الجمركية من ذلك الميناء، وقد تمسَّك الهولنديون بموقفهم، الأمر الذي أصبح مصدر شقاق مستمر بين الطرفين طوال الفترة التي يتناولها هذا الكتاب.

بحلول عام ١٦٢٧م كان موقف الشركة البريطانية في فارس دقيقًا، فلقد

كان الشاه يخوض حربًا للدفاع عن بغداد ضدَّ هجوم الأتراك، بحيث أصبحت شؤون فارس في حالة من الاضطراب والفوضى ولقد استغل الهولنديون تلك الأوضاع للحصول على امتياز يسمح لهم بحصة في تجارة الحرير بشروط أفضل بكثير من الشروط التي مُنحت للإنجليز. وفي الوقت نفسه كان الهولنديون في أقصى الشرق مستمرين في اتخاذ الإجراءات لتدمير تجارة شركة الهند الشرقية في جاوا وسومطرة وحرمانهم من تجارة الصين وسيام.

وفي سنة ١٦٢٩م توفي شاه عباس وبموته فقد الإنجليز صديقًا ونصيرًا قويًا. وفي فارس تصبح جميع الاتفاقات والمعاهدات ملغاة عند موت الحاكم ما لم يثبتها خلفه، وبما أن ذلك قد استغرق بعض الوقت فقد عانت التجارة الإنجليزية كثيرًا من ذلك الوضع. أما الهولنديون فقد عمدوا إلى تقديم الرشاوى وعرض أسعار عالية من السلع الفارسية، وخلاصة القول أنهم بذلوا جهودًا مستميتةً لتجريد الإنجليز من المركز الذي حقَّقوه بكثير من الجهد والمعاناة في الخليج.

وقد كان وكلاء الشركة البريطانية مترددين في إثارة موضوع عقد اتفاق جديد مع الشاه الجديد خوفًا من منافسة الهولنديين لهم. وعلى الرغم من أنه أمكن أخيرًا الحصول على مرسوم من الشاه الجديد إلا أن الامتيازات الخاصَّة بالشركة لم يتم تجديدها أو تثبيتها قبل عام ١٦٣٢م، كما أن ذلك لم يتحقق إلا بالتعهد بتقديم هدايا سنوية من المنسوجات الفاخرة وأدوات المائدة وغيرها للشاه ومعاونيه الكبار بما قيمته تزيد على ألف جنيه إسترليني.

في هذه الأثناء تمكَّن الهولنديون من تثبيت أقدامهم فأنشأوا لهم مركزًا تجاريًّا في بندر عباس، وأصبحت تجارة التوابل كلها في أيديهم، كما حصلوا على إعفاء من دفع رسوم الاستيراد. وفي سنة ١٦٣٨م كتب منديسلو يقول:

بأن الهولنديين انفردوا بالاستقرار، وهم يزودون فارس بكل احتياجاتها من الفلفل والصمغ والقرنفل وغيرها من المنتجات. أما الإنجليز فإنهم يبيعون أو يقايضون سلعهم من الأقمشة والحرائر والقطن والحديد التي يجلبونها من الهند الشرقية.

وهكذا يبدو أن الهولنديين قد حقَّقوا بحلول سنة ١٦٣٩ ـ ١٦٤٠م تفوقًا واضحًا في الخليج. فالسفن والبضائع الهولندية كانت السائدة في بندر عباس، وفي سنة ١٦٤١م من خلال جهودهم لاحتكار تجارة الصادرات الفارسية كانوا يبيعون المنتجات الأوروبية بأسعارٍ تقل عن تكاليفها، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان البرتغاليون يبذلون جهودًا مضنيةً لإحياء تجارتهم ونفوذهم في الخليج.

في عام ١٦٣٩ ـ ١٦٤٠م أرسلت شركة الهند الشرقية إحدى سفنها في رحلة اختبارية للبحث عن ميناء غير خاضع لفارس إذا أمكن لمحاولة الرد على نشاط الهولنديين التجاري. وقد حصل الوكلاء على تصريح من باشا الأتراك لتفريغ سلعهم في البصرة بشروط ملائمةً تقريبًا، غير أن نتائج تلك العملية التجارية لم تكن مشجعة، واتضح بأنه لكي تنجح فلا بد من إقامة مركز تجاري في ذلك الميناء.

وقد تمَّ فتح ذلك المركز في سنة ١٦٤٣م. وكان الهولنديون مصممين على إحراز تفوُّق في النفوذ على غيرهم بأية وسيلة ممكنة. وحتى ذلك الوقت فإنهم قد حصلوا على نصيبهم في تجارة فارس عن طريق تقديم الرشاوي والهدايا للمسؤولين كما قلنا سابقًا؛ ولكنهم في سنة ١٦٤٥ ـ ١٦٤٦م عمدوا إلى استخدام القوة، وهو نفس الأسلوب الذي اقترحته الشركة الإنجليزية لحمل المسؤولين على منحهم حقوقًا استثنائيةً في تجارة البلاد.

فبالإضافة إلى الأسطول الكبير الذي أحضره الهولنديون إلى الخليج في

خريف سنة ١٦٤٥م، فقد أرسلوا قوة عسكرية للهجوم على قلعة قشم - وقد أدى ذلك الإجراء - إلى بث الخوف في قلب الشاه وأرغمه على طلب هدنة من الكومودور بلوك القائد الهولندي وعرض اتفاقًا للسلام عن طريق منح الهولنديين امتيازات تجارية أفضل.

وقد سمح للكومودور بلوك بالتوجه إلى أصفهان، حيث استقبله الشاه وتم التصديق على شروط السلام وتوقفت العمليات العسكرية بين الفرس والهولنديين الذين حصلوا على تصريح بشراء الحرير من أية منطقة في فارس، وتصديرها معفاة من الرسوم الجمركية. وهذا التغيير لم يؤثِّر عكسيًا على التجارة الإنجليزية في فارس فحسب وإنما أثر على التجارة الأخرى التي كانت إنجلترا تعتبرها من شؤونها بين ساحل كورا ماندل وفارس التي استولى عليها الفرس.

وقد تدهورت أوضاع المركز التجاري البريطاني في بندر عباس؛ بسبب تلك الأحداث رغم أن الوكلاء فيها ظلُّوا متمسّكين بمناصفة دخل الجمارك مع الفرس. ولكي يتفادى الوكلاء انعكاس النزاع بين الفرس والهولنديين عليهم فقد وجدوا أنه من الضروري شحن ممتلكات الشركة في بندر عباس وإرسالها إلى البصرة، حيث يتوفر لها أمن أكثر، وقد وصلت تلك الممتلكات في شهر يونيو سنة ١٦٤٥م.

وقد تشجع الهولنديون بفضل نجاح السياسة التي انتهجوها ضدَّ الفرس في قشم وأخذوا يستغلون تفوقهم بشكل فعَّال، بحيث أرسلوا فورًا ثمانية من سفنهم إلى خليج البصرة، وكادوا أن يدمِّروا المركز التجاري البريطاني فيها. وحتى سنة ١٦٤٩م كان النفوذ الهولندي في الخليج لا يزال في تصاعد، وبدأ يلوح أنهم سوف يحصلون على المزيد من الامتيازات من الحكومة الفارسية التي كانت تشعر بالخوف منهم أكثر مما كانت تحترمهم. وقد ازداد نفوذ

الهولنديين في الخليج بعد طرد البرتغاليين من مسقط. وكان الأسطول الذي وصل إلى بندر عباس في ذلك العام يتألف من إحدى عشرة سفينة وكمية كبيرة من السلع. ويعطي تافرنيير الذي كان موجودًا في بندر عباس في سنة ١٦٥٢م فكرة عن كمية البضائع التي جلبها الهولنديون فيقول:

«لقد باع الهولنديون كميات من الفلفل تقدَّر قيمتها بخمسة عشر أو ستة عشر ألف جنيه ودفعوا أثمان كل الحرير الذي اشتروه».

وفي العامين التاليين أنزل الهولنديون شحنة بضائع تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ و١٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، لدرجة أنهم اكتسحوا التجارة الإنجليزية. وحتى ذلك الوقت كان الشاه عباس الثاني الذي خلف شاه صافي يرفض طلب الهولنديين مساواتهم بالإنجليز في المعاملة. غير أن النشاط التجاري الإنجليزي رغم أنه كان محدودًا إلا أنه لم يقض عليه نهائيًا.

وفي سنة ١٦٥٢م اندلعت الحرب بين الإنجليز والهولنديين في أوروبا، ولفترة من الوقت كان التوتر يتصاعد بين إنجلترا وهولندا كنتيجة للتنافس التجاري بين الدولتين والاعتداءات التي اقترفها الهولنديون في الشرق ضدَّ شركة الهند الشرقية.

وفي سنة ١٦٥١م سُنَّ قانون الملاحة في إنجلترا، وكان الهدف منه القضاء على تجارة هولندا البحرية، ثم في سنة ١٦٥٢م أعلن كرومويل الحرب على هولندا. واستمر الصراع سنتين، وكان يقود العمليات من الجانبين في أوروبا فان ترومب ودويتر من جانب وبليك ومونك من الجانب الآخَر غير أن أحد الطرفين لم يحقِّق انتصارًا على الآخَر.

وقد ظهر الأسطول الهولندي على سواحل سورات بعد إعلان الحرب مباشرة ثم أبحر نحو الخليج. وعندئذٍ اقترح الهولنديون إقامة تحالف مع

البرتغاليين بهدف القضاء على تجارة الإنجليز. غير أن البرتغاليين لم يحبذوا الاقتراح واستولى الهولنديون على سفينتين إنجليزيتين بالقرب من ساحل جاشك.

وفي السنة التالية (١٦٥٤م) نشبت معركة بالقرب من بندر عباس، وقامت خمس سفن هولندية بإغراق السفينة الإنجليزية إنديفور والاستيلاء على أخرى اسمها فالكون، وأسروا نحو ٣٠ بحارًا مما مسّ كرامة الإنجليز، وبذلك خسر الإنجليز السيطرة على تلك المنطقة مؤقتًا. وأصبح الخليج في يد الهولنديين بشكل مطلق، بحيث توقف النشاط التجاري في بندر عباس، ورأى وكلاء شركة الهند الشرقية في البصرة أنه من الأحرى نقل مركزهم إلى منطقة يتوفر فيها أمن أكثر، أما السلام على أية حال فقد وضع حدًا لتلك الحالة في سنة ١٦٥٤م، وقد دُفِعَ مبلغ ٨٥٠٠ جنيهًا إسترلينيًا كتعويض للشركة.

وقد تلت الحرب حرب أخرى هولندية إنجليزية في سنة ١٦٦٥ ـ ١٦٦٧م غير أن انعكاسات كلتا الحربين على الأوضاع في الخليج لم تكن واضحة أو مستمرة. صحيح أن الإنجليز لم يكونوا أفضل حالًا من غيرهم، فتجارتهم في بندر عباس ظلّت في تدهور مستمر حتى عام ١٦٨٣م تقريبًا بينما كان الهولنديون هم المهيمنين على التجارة. وقد ازدادات الأحوال سوءًا بتأسيس شركة الهند الفرنسية سنة ١٦٦٤م، حيث انضمّ إلى الساحة منافس أوروبي جديد. ويمكن التعرّف على الأوضاع السيئة للأطراف المتنازعة خلال الربع الأخير للقرن السابع عشر مما كتبه العديد من الرحالة المعاصرين لتلك الفترة ومنهم تيفونوث الذي كتب في سنة ١٦٦٣م يقول:

«يملك كل من الإنجليز والهولنديين بيوتًا جميلة تقع على شاطئ البحر، وعليها أعلام دولهم ترفرف فوق سواري عالية على شرف المنازل. أما الهولنديون فإنهم السادة المطلقون في بندر عباس، ولهم مكانة مرموقة فيها

حتى أن أحد الشيوخ عندما أساء التصرف مع القائد الهولندي، أمر ذلك القائد بتمزيق العلم الهولندي، ثم أرغم الشيخ على أن يلتمس منه رفع علم جديد وتقديم هدايا إليه.

لقد مكثت أسبوعًا واحدًا في بندر عباس، ثم بعد ذلك اضطرت إلى العودة، ولم تكن الظروف تسمح لي بالتوجه من هناك إلى الهند الشرقية، ثم وجدت أنني لو أطلب الإقامة سأتعرض للخطر، وكان هناك ست سفن فقط كان مقرَّرًا أن تبحر إلى الهند، أربع منها للهولنديين وواحدة للأرض والأخيرة للفرس. أما بخصوص السفن الهولندية فلم يكن هناك احتمال للسفر عليها؛ لأن الهولنديين قد أقسموا بأنهم لن يحملوا إفرنجيًا في سفنهم حتى لا يطلع على أمورهم وأسرارهم».

وقد أشار الدكتور فرير فيما كتبه عن بندر عباس سنة ١٦٧٧م إلى ازدياد سيطرة الهولنديين على تجارة فارس فقال:

«يستقبل هذا الميناء معظم السفن الذاهبة إلى البصرة أو القادمة منها؛ لأن أسواقها تلبي جميع طلباتهم. وتأتي تجارة التوابل في المرتبة الثانية بعد الأقمشة الهندية التي يشتريها الهولنديون بجانب السكر والنحاس، وبالمقابل يأخذون حريرًا وسجادًا بما قيمته خمسون ألف ثومان، بالإضافة إلى عدد من أطنان الذهب والفضة كل عام. كما أن تجارة الهولنديين من ملقا والبحر الجنوبي كبيرة لدرجة أنه قِيل إنهم أحضروا في إحدى المرات ست سفن محمَّلة بالتوابل، كي يستفيد منها تجارهم الماكرون. وقد قام الهولنديون بتكديس تلك السلع على الساحل، وعندما لم يجدوا مشترين لها أشعلوا النار فيها».

ويقارن الكاتب هذا التصرُّف لموقف البريطانيين في بندر عباس فيقول:

«إن تجارة الشركة الإنجليزية هنا تجارة محدودة، وهي تقتصر على بعض

العقاقيـر والأصواف والبلـح والخيول، هذا علـى الرغم مـن أن الإنجليز يحرصون على تعيين وكلائهم في الموانئ».

لقد استشهدنا بما يكفي من أقوال الكتّاب المعاصرين لتلك الفترة؛ لكي نبيّن بأن وضع الهولنديين في الخليج في أواخر القرن السابع عشر كان متفوقًا بصورة شـاملة على الإنجليز. أما الآن فلنعد قليلًا إلـى الأحداث التي كانت تمر بها أوروبا. فأطماع لويس الرابع عشـر دفعت به إلى الاصطدام بكل من هولندا وإسـبانيا وتبعًا لذلك أعلنت الحرب. وفي عام ١٦٧٦م دمَّر الأسطولان الهولندي والإسباني من جانب الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط.

في البداية اتفقت إنجلترا مع فرنسـا، وفي عام ١٦٧٦م وقعت معركة غير حاسمة بين السفن الهولندية والإنجليزية في سولبي، غير أن الرأي العام في إنجلترا كان معاديًا لفرنسـا، بحيث اضطر الإنجليز إلى عقد اتفاقية سلام مع هولندا في عـام ١٦٧٤م، وفي نهايـة الصراع تقريبًا، كانـت إنجلترا تقف مع الدول الأوروبية الأخرى إلى جانب هولندا.

وفي عام ١٦٧٨م اسـتقرت هولنـدا بموجب اتفاق السـلام المعقود في نيمجين. وشـهد عام ١٦٨٨م تحالفًا إنجليزيًا هولنديًا في أوروبا للوقوف في وجه الهيمنة الفرنسـية. ومنـذ ذلك الوقـت خضعت المصالـح الهولندية للمصالح الإنجليزية واسـتمرت كذلك حتى عام ١٦٩٧م عندما توقف القتال بموجب معاهدة السـلام المعقودة في رسويك بعد أن استنزفت فرنسا قواها، بدأت مسألة الخلافة الإسبانية تشغل بال لويس الرابع عشر.

في تلك الفترة بدأ الهولنديون يفقدون مركزهم في فارس؛ وربما بسبب الأساليب المتغطرسة التي كانوا يسـتخدمونها في معاملاتهم التجارية، ومن ثمَّ فإن نهاية القرن السـابع عشر تشـكِّل مؤشـرًا لتطور الأحداث لصالح الإنجليز.

ويلخص بروس الأسباب التي أدَّت إلى نجاح السياسة الهولندية في الهند الشرقية والخليج على امتداد الفترة الطويلة على النحو التالي: بعد نجاح المشروعات التجارية والفتوحات الهولندية في الهند الشرقية والخليج أدى ذلك إلى افتقار المؤسسات البرتغالية والإنجليزية إلى وسائل الدفاع، بينما اشتد نشاط الأسطول الهولندي وزادت الاعتمادات الضخمة التي كانت تمول الشركة الهولندية، التي كان أعضاء مجلس إدارتها مرتبطين بمجلس الوزراء، عكس سياسة الحكومة البريطانية التي كانت تحد من الامتيازات الاستثنائية لشركة الهند الشرقية في لندن، وإلى الأحداث التي أثرت على تجهيزات الشركة وحالت بينها وبين توسيع تجارتها ضمن المراكز التجارية القليلة التي احتفظت بها في المنطقة، وأخيرًا إلى التكاليف الباهظة لإدارة تلك المراكز والخسائر المتعاقبة التي تكبدتها الشركة في عمليات التخزين والشحن وغيرها من الالتزامات.

ويعلِّق كاتب آخَر على هذا الموضوع فيقول: «إن التفوق الهولندي في الشرق هو حصيلة حرية التعبير الواسعة التي تحققت لهم داخل بلدهم. إن لب المشكلة هو ليس حجم الدولة الأوروبية المعنية، وإنما التضحيات التي تبذلها لدعم مركزها في الشرق...».

ففي الربع الأول من القرن السابع عشر، لم تكن قوة إنجلترا تقل عن قوة هولندا، غير أن شعب إنجلترا لم يكن على استعداد للبذل في سبيل التجارة الهندية، كما أن الملوك الإنجليز لم يكونوا مستعدين للمغامرة بشيء، أما الهولنديون وحكومة هولندا فقد كانوا على أتمِّ الاستعداد للبذل والتضحية.

لقد دخلت هولندا الصراع ومعها الخبرة التي كوَّنتها من تجارة الشرق، بالإضافة إلى الدعم الكبير الذي كان يأتيها من الولايات الهولندية، وأخيرًا تصميم الهولنديين وحكومتهم على احتكار تجارة التوابل لهم وحدهم. أما

إنجلترا فإنها لم تساهم إلا برأسـمال صغير كان مُوزعًا على رحلات بحرية وشركات مساهمة عديدة. أما من حيث الدعم الحكومي فإنها لم تكن تحصل إلا على دبلوماسـية متقلبة من جيمس الأول وشـارلز الأول. وكانت شركة لندن مؤسسـة خاصة، كما أن الأفراد البريطانيين في آسيا لم يحققوا شيئًا في وجه الإمكانيات التي عبأتها هولندا.

تطور سياسة شركة الهند الشرقية:

لعدة سنوات بعد تأسيس شركة الهند الشـرقية الإنجليزية عام ١٦٠٠ كان طابعها في معظمه تجاريًّـا، إلا أنه خلال النصف الأخير من القرن السـابع عشـر، بدأت تظهر علامات تغيير في سياسة الشـركة؛ وذلك بسبب ضغط الأحداث من جهـة وبحكم التجارب التي مرَّت بها مـن جهة أخرى، حيث بدأت الشـركة تدريجيًّا وبإصرار تأخذ الطابع السياسي الذي أخذ في النهاية يلقي بظلاله على طابعها التجاري.

ولفترة من الوقت فيما بين ١٦٥٤ و١٦٥٧م كانت نشـاطات الشركة متأثِّرة بتلك المجموعة من المؤسِّسين الذين يسـمونهم «التجار المغامرون»، وكان هؤلاء يطالبون بحرية الاتجار والاسـتقلال ورؤوس أمـوال خاصَّة. غير أنه عندما قرَّر مجلـس الدولة حظر المشـروعات الفردية انضـمَّ أغلبية التجار المغامرين إلى شـركة الهند الشـرقية التي تدعم مركزها تبعًا لذلك إلى حدٍ كبير.

وفي نحو ١٦٦٥م اقترح وكلاء الشركة في سورات تقديم طلب إلى الملك للسماح لهم بتأسيس مركز تجاري في بومباي، وهو المركز الذي تخلى عنه البرتغاليون تحت ضغط الظـروف؛ ولكن الإجراءات امتـدت إلى أبعد من ذلك الاقتراح، إذ أنه في عام ١٦٨٨م سـلمت جزيـرة بومباي من قبل الملك

إلى الشركة مقابل إيجار سنوي محدود، وخوّلت الشركة صلاحيات للاحتفاظ بجيش وإدارة مدنية. وبالفعل فقد نقل في عام ١٦٨٧م المقر العام للشركة من سوراث إلى بومباي.

بعد عامٍ من ذلك طرأ تغيير على موقف الشركة. فقد أرسلت محكمة الشركة في لندن تعليمات إلى رئيس الشركة في بومباي نسخت فيها قرار تغيير سياسة الشركة في الهند إلى أساسها النهائي، وهو السيادة الإقليمية مستفيدة من تلك العبارة المشهورة:

«إن زيادة دخلنا هو موضوع يشغل اهتمامنا تمامًا كما نشغله تجارتنا، فلا بد لنا من الاحتفاظ بقوة خوفًا من حدوث مضاعفات أو أحداث تهدِّد تجارتنا، وبدون ذلك فنحن لنا أكثر من عدد كبير من المتطفلين توجههم الوثيقة الملكية لصاحب الجلالة، ولا يمكن لهم إلا أن يمارسوا التجارة حيث لا تستطيع أية قوة أن تمنعهم من ذلك».

الفترة من عام ١٦٤٤م تقريبًا حتى نهاية القرن تميزت باضطرابات أثارها المهاراتا مما أدى إلى فقدان الأمن في مستوطنات الشركة في الهند، وتركت آثارًا سيئة على حركة التجارة. كما كانت تنشأ خلافات من حين لآخَر بين الإنجليز والمغول. كل تلك العوامل كانت لها آثارها الضارة على النشاطات التجارية في فارس.

أما في إنجلترا فقد انفجرت الغيرة بين الشركات البريطانية من الامتيازات الاستثنائية التي منحت لشركة الهند الشرقية في ممارسة النشاط التجاري في الشرق، حتى أنه في عام ١٦٩٨م استطاعت مجموعة من رجال الأعمال استصدار مرسوم برلماني لتأسيس شركة لهم تحت اسم «الجمعية العامَّة للتجارة مع الهند الشرقية» وهكذا ظهرت هذه المؤسسة إلى حيِّز الوجود لتدخل في صراع مع شركة لندن. وبدأ صراع مؤلم بين هاتين

الشـركتين كان سـيؤدي إلى فقدان الإنجليز لمصالحهم في الشـرق بل في الخليج أيضًا.

وكان هناك إدراك في لندن بأن اسـتمرار ذلك الصراع سـوف يؤدي إلى إفلاس مالي وسياسـي للجميع. وبعـد مفاوضات مضنية اتحدت الشـركة القديمة والحديثة في عام ١٧٠٨م، وأطلق على المؤسسة الجديدة اسم «اتحاد تجار إنجلترا للتجارة مع الهند الشرقية»، ولقد كان ذلك الإجراء نقطة تحوّل في شـؤون الهند، كما ظهر أثرها سـريعًا فـي الخليج. ومنـذ ذلك الوقت اكتسـبت الشـركة طابعًا قوميًا وعامًّا أكثر، وحصلت من الملك على مرسوم بتعيين سـفير بريطاني لدى إمبراطور المغول، كما خوّل رئيس مجلس إدارة الشركة صلاحيات قنصلية ومنح رتبة مدنية.

الفصل الثامن

"من بين الدول الخمس التي كانت تتنافس على العالَم الجديد، كان الفوز من نصيب الدولة التي كانت أقل ارتباطًا بالعالَم القديم..."

سيلي في (توسُّع إنجلترا)



القرن الثامن عشر
نمو النفوذ البريطاني في الخليج

قبل أن نشرع في وصف الأحداث في الخليج إبَّان القرن الثامن عشر، فإنه من المستحسن أن نلخص في إيجاز تاريخ المناطق الهامَّة المحيطة به خلال تلك الفترة، ونعني به فارس وعُمان والعراق التركية. ففي فارس كان القرن الثامن عشر محور اضطرابات وتغييرات مستمرة ـ بالأحرى كان القرن الثامن عشر قرن التواترات التي وردت تفاصيلها في العديد من المؤلَّفات، ولن نتناول إلا أهم تلك الأحداث.

ففي مطلع القرن كان يتربع على عرش فارس الشاه حسين، والسنوات العشرون من حكمه على حدِّ قول مالكولم مرَّت في ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة التي انفرجت في عام ١٧٢٠م عندما قام الأفغان تحت حكم محمود بغزو فارس، وإذا كان الأفغان قد هزموا فارس في البداية على يد لطف الله، فإنهم في كرمان حقَّقوا انتصارهم في النهاية. وهذا ما أدَّى إلى أن يتنازل الشاه حسين عن العرش؛ وبذلك انتهت أسرة صفوي، وأصبح الأفغان حكَّام فارس، فقد احتلوا أصفهان ثم أخيرًا احتلوا شيراز.

استمرت فارس خاضعة للأفغان حتى عام ١٧٣٠م. وخلال هذه الفترة من القلاقل الداخلية تعرَّضت فارس إلى غزو من الروس تحت حكم بيتر الكبير. وفوق ذلك أسرع الأتراك في عام ١٧٢٥م واستولوا على عدد من

الأقاليم الشمالية الغربية في فارس. وبموجب معاهدة عُقدت بين روسيا وتركيا تمّ تقسيم بعض أهم الأقاليم الفارسية، غير أن تلك المعاهدة لم يكتب لها التنفيذ، ثم في عام ١٧٢٦م تمكَّن أشرف الحاكم الأفغاني في دحر الأتراك الذين سبق أن وقَّع معهم معاهدة سلام. وشهد عام ١٧٢٦م أيضًا بروز حاكم إقليم خراسان تاهماسب قولي الذي اشترك بقواته مع نادر شاه ضدَّ الأفغان.

وقد أُبيد الأفغان، أما الذين تمكَّنوا من الفرار فقد أُخرجوا من فارس في عام ١٧٣٠م، وتمكن تاهماسب من انتزاع الحكم. غير أن نادر شاه عاد فاستولى على السلطة بعد وقتٍ قصيرٍ، وأعلن نفسه عام ١٧٣٦م شاهًا على فارس. وقد اتخذ من مدينة مشهد عاصمة لحكمه الذي استمر إلى أن اغتيل في عام ١٧٤٧م. وقد خلفه عادل شاه؛ ولكن هذا خُلع في عام ١٧٤٨م من جانب أخيه إبراهيم خان. بعد ذلك جاء دور شاه رح الذي دام حكمه فترة قصيرة، وحلَّ محلَّه كرم خان زند، وكان زعيمًا لإحدى القبائل البدوية من عرب فارس. وقد لَقَّب نفسه بالوكيل واستطاع بالتدريج توسيع رقعة سلطانه حتى شمل الجزء الأكبر من فارس، ثم أخضع إقليم فارس في عام ١٧٥١م، وجعل شيراز عاصمة ملكه. وخلال الجزء الأكبر من حكمه استمتعت البلاد بهدوء نسبي.

في عام ١٧٧٥م أرسل كريم جيشًا بقيادة أخيه صادق خان لمحاربة الأتراك فحاصر البصرة التي استسلمت له في عام ١٧٧٦م، وبقيت تحت الحكم الفارسي حتى وفاة كريم في عام ١٧٧٩م، وبعد وفاة كريم خان أدَّت الصراعات الداخلية إلى تمزيق وحدة فارس وتدهور أوضاعها لعدد من السنين، بل لنهاية القرن، وتبع ذلك دورات قصيرة من الحكم لعدد من الحكام، وأبرزها حكم لطف علي خان الذي وضعت وفاته في عام ١٧٩٨م نهاية لحكم أسرة الزند،

وتولَّت الحكم بعد ذلك دولة القاجار في شخص آغا محمَّد خان وخلفه علي شاه الذي نُصِّب في عام ١٧٩٩م، ثم اغتيل في خيمته في العام التالي.

في نحو عام ١٧١٧م وخلال حكم شـاه حسـين الضعيف استطاع الإمام سلطان بن سـيف انتزاع البحرين من الفرس، وفي عام ١٧٢٠م استولى عرب مسقط على بعض الجزر الواقعة غير بعيد من الساحل الفارسي بما في ذلك جزيرة قشم. غير أنه في عهد نادر شاه انعكست الآية واستطاعت قوة فارسية أُرسـلت من بندر عباس عـام ١٧٣٧م الاسـتيلاء على عُمـان وظلَّت تحت سـيطرتهم حتى عام ١٧٤٤م. أما البحرين فقد ظلت تحت الهيمنة الفارسـية اعتبارًا من عام ١٧٣٥م حتى ١٧٨٣م عندما اسـتولى عليها العتوب. وفي نحو ذلك الوقت قام الوهابيون بغزو بغداد والكويت والأحسـاء. وهكذا تطورت قوة الوهابيين كما سنرى ذلك في الفصول القادمة من الكتاب إلى حدٍّ خطيرٍ في عام ١٧٩٨م، وتمكَّنوا في عام ١٨٠٠م من احتلال الأحساء والقطيف.

أما في عُمان فقد اتسـمت سنة ١٧٩٣م بانشـقاقات داخلية. فقد انفصلت سـلطنة عُمان وقاعدتها مسـقط وأصبحت دولة بذاتها. وبذلك انغمست في تيارات الصراع السياسي في الخليج. ثم استولى حاكمها السيِّد سلطان الذي سـنتحدث عنه حديثًا مسـتفيضًا فيما بعد على بندر عباس، كما أضاف إلى ممتلكاته جواذر وشـهبار على سـاحل مكران. وفي عـام ١٧٩٧م بدأ النفوذ الفرنسي يظهر في عُمان.

بعد هذا الاستعراض العام، نعود إلى ما كان يشهده الخليج من أحداث. اختتم الفصل السابق من الكتاب بانحسار النفوذ الهولندي في الخليج. وفي عام ١٦٩٩م أظهر الشـاه حسـين بادرة طيبة تجاه الشـركة الإنجليزية بزيارته لمركزها في أصفهان وبمعيته سيدات البيت المالك. وقد أقيمت استعدادات ضخمة لاسـتقباله والاحتفاء به تكلفت ما لا يقل عن ١٢,٠٠٠ جنيه إسترليني،

غير أن النتائج كانت مجزية وعلى المستوى المنشود، إذ أن الشاه لم يعرب عن تقديره للشركة فحسب، بل أنعم بروب الشرف، وسيف ثمين، وجواد لوكيل الشركة، غير أنه قد تمّ دفع الرسوم الجمركية المتأخِّرة في بندر عباس، بالإضافة إلى منافع مادية أخرى.

وعلى الرغم من أن الهولنديين طالبوا بزيارة تكريمية مماثلة لمركزهم، إلا أن طلبهم لم يُستجب له؛ وبذلك خسروا جولة أخرى في الصراع على الهيمنة. وعندما طلبوا الإذن لهم بإقامة مركز في بندر عباس لحماية مصالحهم رفض طلبهم، كما أن الإنجليز خسروا مركزهم مؤقتًا ربما لموقفهم السلبي من القرصنة التي تفشَّت بشكل خطير خلال عامي ١٧٠٥ ـ ١٧٠٧م، بينما الهولنديون في محاولة منهم لاسترضاء الشاه ادَّعوا بأنهم مهتمون لمواجهة هذا الخطر المتزايد.

وفي عام ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥م أعلنت شركة الهند الشرقية القديمة عن رغبتها في تسليح سفنها بمجرد انتهاء الحرب مع فرنسا؛ «لتطهير البحار واجتثاث وكر القراصنة» غير أن الحرب استمرت ولم يتحقق شيء. وقد تفاقمَ الأمر كذلك نتيجة تضارب المصالح بين مختلف الشركات التجارية إلى أن تحسَّنت الأمور بعملية الاندماج التي تمَّت في عام ١٧٠٨م، وبذلك استرد الإنجليز مركزهم.

خلال عام ١٧١٨م علىَ وجه التقريب كان عرب المنطقة نشطين بصورة غير عادية. فقد هاجموا البحرين واستولوا عليها غير أن سكانها هجروها؛ وبذلك انتهى احتلالها. وبعد عام أو عامين قام عرب مسقط بالاستيلاء على بعض جزر الساحل الفارسي بما فيها قشم مستغلين الغزو الأفغاني لفارس. وقد أُرسل جيش فارس بقيادة لطف علي خان إلى منطقة قريبة من بندر عباس، إلا أن ذلك الجيش قد اضطر إلى الاتجاه نحو الشمال لمواجهة

الخطر الأفغاني دون أن ينجز شيئًا هناك؛ ولذلك فقد ظلّ العُمانيون سادة الموقف على الساحل الفارسي.

في عام ١٧٢١م نشبت اضطرابات ضدّ البريطانيين في بندر عباس، فقد اقتحمت قوة من ٤٠٠٠ آلاف بلوش من الفرسان البلدة، وتمكنت من احتلال إقليم كرمان وبلدة لار.

وخلال الاحتلال الأفغاني لفارس (١٧٢٢ ـ ١٧٢٩م) كانت الأوضاع في المناطق المجاورة لبندر عباس مرة أخرى غير مستقرة. فقد استولى شيخ رأس الخيمة القاسمي على منطقة باسيدو، والواقعة في جزيرة قشم، وخلف وضعًا يحمل علامات الخطر لتجارة بندر عباس إلى أن تحركت قوة بحرية بريطانية صغيرة في عام ١٧٢٧م للتصدي لذلك الوضع.

وفي عام ١٧٢٨م بعد أن اجتاح الأفغان إقليم فارس واستولوا على شيراز، سيَّر قائدهم زير راست خان فصيلة من قواته للهجوم على بندر عباس. وقد فرَّ الفرس عند اقتراب الجيش منهم، غير أن الأوروبيين أظهروا موقفًا عنيدًا لدرجة أن القائد الأفغاني خشي من مهاجمتهم. وقد انتهت العملية بقبول كمية صغيرة من المؤن، وانسحب الأفغان بعد أن مات بعضهم؛ بسبب رداءة الطقس. من ذلك الوقت بالذات يبدو أن الهولنديين قد انتهزوا الفرصة واستولوا على هرمز مؤقتًا، غير أن الوكيل التجاري البريطاني هناك أقنعهم بالجلاء عنها.

إن شؤون الخليج بعد تلك الأحداث لم تعد تحتل مكانًا بارزًا لعدد من السنين. فقد طرد الأفغان من فارس من جانب نادر شاه الذي تمكَّن في عام ١٧٣٦م من إلحاق الهزيمة بالأتراك؛ وبذلك أصبح سيد البلاد بلا منازع بما في ذلك الساحل بطوله من البصرة إلى مكران. ولم يكن موقف نادر شاه من

الإنجليز في البداية ودِّيًا؛ بسبب رفضهم تزويده بالسُّفن لشنِّ حملاته العسكرية من جهة، وبسبب ما قيل من مَيل الإنجليز إلى مساعدة الأتراك في الدفاع عن البصرة ضدَّ الفرس من جهة أخرى. إلا أنه بعد توليه الحكم اتجه موقفه نحو الإنجليز إلى اللِّين، رغم أنهم لم يمنحوه امتيازات من أي نوع خلال حكمه، إذا استثنينا تجديد الامتيازات الإنجليزية السابقة في فارس، بما في ذلك حقّهم في تحصيل ألف تومان كل عام من جمرك بندر عباس. ومن الرسوم الأخيرة، حول حصولهم في النهاية على ثلث عائد الجمارك عن السلع التي يتم استيرادها إلى فارس على السفن الإنجليزية، كما وعد أيضًا بمعاملة التجار معاملة عادلة ومهذبة.

كانت تراود نادر شاه فكرة واحدة وتسيطر على تفكيره كثيرًا، كان يسعى إلى أن يجعل من فارس دولة بحرية في كل من بحر قزوين والخليج، بحيث يجعل من شواطئها الداخلية بحرًا موصدًا على غرار وضع البحر الأسود بالنسبة لتركيا في ذلك الوقت. ويضيف اللورد كرزون في إعجاب بالخطوات التي اتخذها نادر شاه في هذا السبيل، ويمكن للقارئ أن يعود إلى ما كتبه اللورد في هذا الصدد. وكانت بوشهر هي القاعدة الرئيسية لنواة ذلك الأسطول، غير أن خطته لبناء أسطول كامل بأخشاب يتم تحضيرها عن طريق عمال السخرة عبر مناطق فارس كانت فاشلة.

في عام ١٧٤٧م انتهى حكم نادر شاه فجأة باغتياله، وغرقت فارس في بحر من الفوضى استمرت إلى أن نجح كريم خان زند من تدعيم سلطته، وأصبح سيِّدًا على الجزء الأكبر من فارس، ونقل عاصمته من شيراز إلى مشهد. وفي تلك الأثناء من عام ١٧٥٠م أغلق المركز التجاري الإنجليزي في أصفهان، ولم يفتح مطلقًا، وأصبح ضروريًا نقل الوكالة التجارية من بندر عباس؛ بسبب استمرار الاضطرابات والأخطار.

وقد ازداد موقف الإنجليز سوءًا في الخليج من نشوب حرب السنوات السبع في أوروبا عام ١٧٥٦م التي ظهرت تأثيراتها بسرعة في الشرق. ففي ١٥ أكتوبر عام ١٧٥٩م ظهر سرب من السُّفن الفرنسية ترفع أعلامًا هولندية بقيادة الكونت ديستان، كانت إحداها هي السفينة كوندي أمام بندر عباس، وقامت بقصف المركز البريطاني، غير أن رجال المركز تحت إشراف المستر دوجلاس كبير الوكلاء دافعوا ببسالة عن مركزهم، كما أحرق الفرنسيون الطراد سيسيدول، وقد قاموا بتصويب مدافع سفينتهم الأربعة والعشرين من على بعد ٤٠٠ ياردة من المركز. ثم أنزلوا قواتهم ومعداتهم الثقيلة وقصفوا المبنى مما اضطر أصحابه إلى الاستسلام.

وقد اعتبرهم الفرنسيون أسرى حرب إلا أنهم سمحوا لهم بحمل أمتعتهم الشخصية. وبموجب أحد البنود الثمانية من المعاهدة، تمّ الاتفاق على أن يتم تبادل الستة والعشرين مدنيًا الذين كانوا في المبنى، وكان المفروض أن القائد الفرنسي ديستان متوجهًا إلى أوروبا عن طريق البصرة، إلا أنه في الحقيقة هو الذي كان يقود العمليات. وبعد أن قام الفرنسيون بإحراق المركز أبحروا يوم ٣٠ أكتوبر بعد أن حقَّقوا لأنفسهم مكاسب مادية، ولم يحقِّقوا مجدًا من تلك العملية.

كان الأوان قد حان لإغلاق المركز التجاري البريطاني في بندر عباس باعتبارها الميناء الرئيسي في الخليج، ولقد قام وكلاء الشركة باختيار الموقع الجديد بسرعة. وكانت الفكرة في البداية هي إقامة مستوطنة في هرمز. وبعد أن قام رجال الشركة بتفقد عدد من الموانئ الفارسية، اقترح المستر دوجلاس كبير وكلاء الشركة في عام ١٧٦٢م اختيار بوشهر التي كانت في ذلك الوقت تعج بالتجار القادمين من داخل فارس، الذين كانوا يتمتعون بمطلق الحرية في شراء وبيع وتصدير البضائع كما يشاؤون... «وقال: بأن الحاكم الفارسي الحالي في بوشهر يتمتع بأخلاق عالية ويبدو أنه راغب أن نستقر هناك...».

«ولأن هناك لا يحتاج الإنسان إلى علاقات يقيمها أو يتودَّد إلى أحد فيما عدا الشيخ نفسه أي: الحاكم. كما كان البحر يحيط بالبلدة من ثلاثة جوانب، وبوجود الحائط وضع مدفع عليه فإن العملية لن تكلف كثيرًا».

وهكذا قامت الشركة في شهر مارس عام ١٧٦٣م بإخلاء مركزها في بندر عباس، وأرسلت محتوياته إلى البصرة، كما أرسلت أرصدتها إلى بومباي، وقد واجهت مقاومة خطيرة من حاكم البصرة الفارسي الذي ارتاب في ذلك الإجراء. وكان الهولنديون سابقًا قد نقلوا مركزهم التجاري من بندر عباس إلى البصرة في عام ١٧٥٩م وسوف نتطرق إلى نشاطاتهم لاحقًا.

وهكذا أصبحت البصرة مؤقتًا المركز البريطاني الرئيسي في الخليج، وضمَّت إلى سلطتها دار الإقامة البريطانية التي كانت تابعة لبندر عباس سابقًا، وفي عام ١٧٦٤م اعترف الباب العالي صراحة بمركز البصرة كنقصلية بريطانية بموجب الامتيازات الأجنبية. لقد كانت عملية نقل الوكالة البريطانية من أرض فارسية إلى أرض تركية حادثًا ذا دلالة سياسية كبرى.

في عام ١٧٦٣م عقدت اتفاقية محددة مع الشيخ سعدون حاكم بوشهر لإنشاء مركز ولممارسة أعمال تجارية استثنائية في ذلك الميناء، وفي نفس العام تمَّ التصديق على الاتفاقية بمقتضى مرسوم ملكي من شاه فارس كريم خان. وكان لهذا الحادث أهمية كبيرة في تاريخ الخليج فالمرسوم الذي أَسَّس المركز البريطاني بموجبه أعطى الإنجليز وضعًا شاذًّا وامتيازات كنتيجة لنمو نفوذهم كدولة تجارية في الهند؛ وبسبب نجاحهم في التغلُّب على خصوماتهم القديمة مع البرتغاليين والهولنديين.

وقد تمّ تسليم المرسوم إلى المستر براس «الحاكم العام لإنجلترا في الخليج» وذلك بناءً على طلب الإنجليز باسترداد الامتيازات القديمة في تلك

الممالك. وقد جاء ذلك المرسوم انطلاقًا من تقدير الشاه وصداقته للأمة الإنجليزية، ولم يمنح المرسوم حرية غير محدَّدة للإنجليز فحسب، وإنما حرية استثنائية لهم لممارسة الأعمال التجارية، فقد أعفوا من دفع الرسوم الجمركية على صادراتهم ووارداتهم، كما مُنحوا حق احتكار الأقمشة الصوفية ونص المرسوم: «بأنه إذا قام شخص باستيراد مثل تلك السلع بطريقة غير مشروعة فإنه يحق للإنجليز مصادرتها»، كما «أنه لا يُسمح لأية دولة أوروبية أخرى أن تمارس نفس الأعمال في بوشهر، طالما كان للإنجليز مركزًا فيها».

وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون هذا الانحراف عن مبدأ حرية التجارة الذي طالما دعونا إليه ونادينا به، الذي تم فرضه على الفرس قد دخل إلى حيِّز التنفيذ. غير أن المرسوم يقرر بوضوح لا لبس فيه طبيعة الوضع والامتيازات التي تقرر منحها للتجارة الإنجليزية والتجار الإنجليز. وقد منح حاكم بوشهر للإنجليز قطعة أرض لإقامة المركز عليها، كما منحهم قطعة أرض أخرى لإنشاء حديقة ومقبرة خاصَّين بهم. كما أعفى خدم وموظفي الإنجليز من تبعيتهم للسيادة الفارسية كما سمح للإنجليز باستخدام أعلامهم الخاصَّة، كما كان الوضع في بندر عباس سابقًا.

وسمح لهم أيضًا بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفع في المناسبات. ويجب ألا يغرب عن بالنا أن هذه الامتيازات قد منحت أثناء حكم ملك ضعيف في فارس، وفي فترة سادتها الاضطرابات وسوء إدارة الحكم. إلا أنه على ضوء المرسوم الذي صدر في عام ١٧٨١م من جانب ابن أخ كريم خان الذي أعرب عن رغبته في أن يتمتع الإنجليز بالأمن والثقة، فإنه يتضح أن إنجلترا في أواخر القرن الثامن عشر قد حقَّقت لنفسها في الخليج مركزًا لم يصل إليه أي من الدول التي كانت تنافسها على ذلك، ولا حتى الهولنديين الذين كان نجمهم في ذلك الوقت آخذ في الأفول.

الهولنديون في جزيرة خرج:

قبل خروج الهولنديين من بندر عباس عام ١٧٥٩م بوقتٍ طويلٍ كانوا يديرون مركزًا تجاريًا في البصرة، وكانوا يحققون منه أرباحًا طائلةً في الأصواف التي كانوا يستوردونها عن طريق حلب، وفي عام ١٧٤٧م أقاموا لهم مستوطنة جديدة في بوشهر كانوا قد أغلقوها من قبل، ثم عادوا فانسحبوا منها نهائيًا في عام ١٧٥٢م. وحتى قبل انسحابهم من بندر عباس بعد الاضطرابات التي سادتها، أصبحت البصرة المركز الرئيسي لمصالحهم التجارية في الخليج. وفي عام ١٧٥٣م تغيرت فجأة سياستهم في الخليج كنتيجة للعمل الذي قام به البارون نيفوزين الذي كان يومئذٍ رئيس البعثة الهولندية في البصرة، الذي أدى نشاطه إلى ظهور دور جزيرة خرج الواقعة على بُعد ٣٠ ميلًا شمال غرب بوشهر.

وقد تمّ إبلاغ السلطات الهولندية المسؤولة في بتافيا بشأن تصرفات نيفوزين، وتمّ إبعاده عن المنطقة؛ ولكن المذكور قام بعد ذلك بزيارة خرج وتفقد مناطق الجزيرة لاختبار صلاحيتها لإنشاء مستوطنة تجارية، ثم أقنع مير ناصر حاكم بندر رج وحاكم الجزيرة بالتنازل عنها لشركة الهند الشرقية الهولندية. وقد أبرز رسالة بهذا الشأن ثم توجَّه من خرج إلى بتافيا عام ١٧٥٢م ودافع عن نفسه بشأن التهم التي وُجِّهت إليه؛ وبذلك نجح في إقناع السلطات الهولندية بالاستيلاء على خرج وعدم تفويت تلك الفرص.

ويحدثنا فيس عن هذا الرجل فيقول: «إنه أبحر من بتافيا بسفينتين وخمسين رجلًا فقط واستولى على خرج. وكان سكانها في ذلك الوقت لا يزيدون على المائة نسمة من الصيادين الفقراء. وبما أن نيفوزين لم يحضر معه إلا معدات قليلة، وكانت الحكومة في بتافيا بطيئة في تزويده بالتعزيزات

التي وعدته بها، فقد واجه صعوبات جمَّة في إقامة المستوطنة، ثم فكَّر في إحضار عمال من فارس وشبه الجزيرة، وبمساعدة هؤلاء أنشأ قلعة صغيرة يمكنها أن تدافع بنفسها ضدَّ أية قوة من الداخل وضدَّ أية سفينة من الهند باستثناء سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

بعد وقتٍ قصيرٍ من استقرار نيفوزين في خرج نشب نزاع بينه وبين مير مهنا رئيس بندر رج بعد أن طلب الهولنديين بدفع إيجار نظير احتلالهم للجزيرة، وقد أعقب ذلك نشوب قتال دام بضع سنوات، وفي النهاية عاد نيفوزين إلى بتافيا وخلفه على إدارة الجزيرة فان درهلست الذي كان يعمل مساعدًا له في البصرة سابقًا. وقد نجح هذا باللباقة والإدارة الجيدة في خلق علاقات مرضية مع مير مهنا.

وعلى أية حال فإن قصة النفوذ التجاري للهولنديين في الخليج يقترب هنا من نهايته ففي عام ١٧٥٣م أو نحو ذلك انسحبوا من البصرة نهائيًّا، وبعد ذلك بوقت قصير انسحبوا من بوشهر أيضًا، وكذلك من بندر عباس في ١٧٥٩م. والمستوطنة الوحيدة التي بقيت في حوزتهم هي خرج؛ ولكن إقامتهم في هذه البقعة كانت قصيرة، ففي ١٧٦٥م عاد الخلاف بينهم وبين مير مهنا. وفي بداية العام التالي استولى مير مهنا على القلعة، ويذكر بارسونز: «أن مير مهنا احتلَّ القلعة وجرَّد الهولنديين من كل ما يملكون وأرغمهم على الرحيل في سفينة هولندية، ولم يسمح لهم تقريبًا باصطحاب كمية تكفيهم من المؤن للرحلة، كما أنه جرَّد السفينة من جميع أسلحتها، وهكذا فبالإضافة إلى حصوله على الجزيرة استولى على كمية كبيرة من الغنائم والأموال التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية، بل أخذ حتى الممتلكات الشخصية لموظفيها».

ونظرًا لعدم صلاحية خرج لكونها جزيرة مكشوفة، فإن الهولنديين لم

يحاولوا استرجاعها من الفرس. وبضياع تلك الجزيرة الفارسية من أيدي الهولنديين انتهى نفوذهم في الخليج من الناحية العملية، أما القلعة الهولندية في الجزيرة فلم يبق لها أي أثر وقد تمّ نقل الأحجار التي بُنيت بها إلى مناطق أخرى من فارس.

بعد رحيل الهولنديين عن خرج قام الإنجليز بالاتفاق مع كريم خان بهجوم مشترك على الجزيرة التي اتخذ منها مير مهنا مقرًا له لممارسة القرصنة التي أخذت تهدد أمن المنطقة بشكلٍ خطيرٍ. غير أن الهجوم لم ينجح. وقد أعقب انتصار مير مهنا موجة خطيرة من أعمال العنف والقرصنة من جانب أتباع مير مهنا وعصابته ولم ينج منها حتى السفن الإنجليزية لدرجة أنه استولى على إحدى سفنهم وهي السفينة «سبيدويل».

وعندما يئس كريم خان من احتلال الجزيرة عن طريق القصف؛ بسبب المدافع الثقيلة التي يضعها مير مهنا على أسوار القلعة قرَّر أن يحاصر الجزيرة وتجويع حاميتها، فقام بإنزال قوة كبيرة من الجيش والمدفعية في عام ١٧٦٩م وتمكَّن من احتلالها، وبعد أن تأكد مهنا من عدم جدوى المقاومة، فخرج تحت جنح الظلام بما كان معه من ثروة وتوجه إلى الكويت، ومنها إلى البصرة، حيث لقي حتفه هناك فيما بعد بأمر باشا بغداد. وبهذه الصورة انتهت حياة أشهر قرصان وقاتل، رَوَّع منطقة الخليج؛ وبذلك عادت خرج إلى فارس.

احتلَّ البريطانيون الجزيرة فيما بين عام ١٨٣٧م أو ١٨٤٢م بهدف الضغط على فارس، ثم مرة أخرى خلال الحرب الفارسية عام ١٨٥٦م وعام ١٨٨٧م. ثم قدمت اقتراحات فيما بعد لاتخاذها المقر العام للبريطانيين في الخليج، وكان اللفتنانت جنرال السير جيمس أوترام يحبِّذ تلك الفكرة وقد ذكر: «بأن احتلال الجزيرة لا يستدعي الاستيلاء عليها كأرض بريطانية» غير أن الاقتراح

باء بالفشل. وإذا استثنينا تلك الجزيرة باعتبارها مصدرًا لملاحي السُّفن المتجهة إلى شط العرب، وللأحجار في بناء الطرق، فإنها لا تدخل ضمن نطاق موضوعنا.

انتقل مركز النشاط التجاري والسياسي في الخليج الآن من مدخل الخليج إلى قمته أي: شط العرب، فقد أقام الإنجليز مراكز لهم في البصرة بموافقة السلطات التركية، وفي بوشهر بالاتفاق مع كريم خان.

وعلى أية حال ففي عام ١٧٦٩م؛ وبسبب المصاعب مع كريم خان انسحب البريطانيون من بوشهر إلى البصرة. وقد نتج عن ذلك الإجراء انتقال النشاط التجاري البريطاني إلى البصرة، وعلى حساب فارس. وفي ربيع عام ١٧٧٣م تعرضت البصرة وبغداد إلى موجة من وباء الطاعون لم يُعرف لها مثيل في التاريخ، مما استوجب إعادة نقل الوكالة البريطانية إلى بوشهر مؤقتًا.

وبعد أن قام وكلاء مركز البصرة بنقل الوكالة إلى بومباي في سفينتين إنجليزيتين هما تايجر ودريك، وبما أن كريم خان كان مستاءً من انسحاب الإنجليز من بوشهر فقد أمر بخروج بعض سفنه لاعتراض السفينتين البريطانيتين والاستيلاء عليهما. وقد سحبت السفينة تايجر إلى بندر رج واعتقل موظفي الشركة الذين كانوا على السفينة، وتمّ نقلهم إلى شيراز ولم يفرج عنهم إلا بعد عام. وعند زوال وباء الطاعون عاد الإنجليز إلى البصرة مرة أخرى.

في عام ١٧٧٥م نشأت خلافات بين كريم خان وباشا بغداد حول المعاملة التي لقيها التجار والحجاج الفرس في بغداد والبصرة وغيرهما من المناطق الخاضعة للأتراك. وبهذا الشأن تقدّم الشاه باحتجاج لحكومة القسطنطينية؛ ولكن تلك الحكومة لم تعبأ باحتجاجات الفرس، وردت عليها بوعود لم

تنفَّذ. ورأى الفرس إهانة لهم في ذلك الأمـر الذي أغضب كريم خان ودفعه إلى تجهيز حملة عسـكرية كبيرة في عام ١٧٥٥م بقيادة أخيه صادق خان، كما صرح في بيـان أعلنه بتلك المناسـبة لكي يوقظ الأتراك من سـباتهم. وقد استسـلمت المدينة للفرس في شـهر أبريل عام ١٧٧٦م واعتقل والي البصرة وأُرسل إلى شيراز، حيث بقي في الحِجْر إلى أن توفي كريم خان.

بعد استسلام البصرة للقوات الفارسية اضطر ممثلو شركة الهند الشرقية أثناء الحصار إلى إخلاء المركز التجاري مؤقتًا، غير أنهم سُـمح لهم بإعادة فتحه بعد ذلك، غير أن احتلال الفرس للمدينة قد أثَّر على النشاط التجاري، وكان المسـتقبل أمام المركـز يبدو مظلمًـا، بحيث اضطرت الشـركة إلى تخفيض مستوى المركز ونقل نشـاطها مرة أخرى إلى بوشهر، حيث أبدت الإدارة المحلية ترحيبًا أكثر بالشـركة. وبقيت البصرة تحت حكم كريم خان إلـى أن توفي في عـام ١٧٧٩م عندما قام صـادق خان الـذي كانت تراوده الأطماع في العـرش بإخلاء البصرة التي عادت بموجب ذلك إلى السـيادة التركية.

أثناء حصار البصرة كانت مجموعة من سفن بحرية بومباي ترسو في مياه شـط العرب قريبًا من خور المدينة. كما كان موقف التجار الإنجليز في أول الأمر موقفًا محايدًا في الصراع غير أن الظـروف أملت عليهم الانضمام إلى القوى المتصارعة، فقد تسـلَّلت من مراكب قبيلة كفـت بالتعاون مع الفرس إلى النهر. مما اضطر الإنجليز إلى إرسال بعض السفن لمواجهتهم.

وفي اليوم التالي غادر وكلاء الشـركة مركزهم في البصرة، وتوجهوا إلى السـفينة الإنجليزية سـكيس بأموالهـم وأمتعتهم تاركين القسـم الأكبر من البضائع دون رقابة أو حماية.

ومنذ ذلـك الحادث على ما يبدو بدأ اسـتخدام الأسـطول الملكي في

الخليج في مثل تلك العمليات رغم أن ذلك الأسطول كان مستقلاً عن الأسطول الهندي.

في عام ١٧٧١م طلب وكيل الشركة ومستشارها في فارس إعداد حملة عسكرية قوية لمعاقبة كريم خان على العقبات التي كان يضعها في طريق ممثلي الشركة ولقمع القرصنة، وقد رد رؤساء مجلس الإدارة في لندن على طلب الشركة بالتعليمات الهامَّة التالية:

«إذا فشلت كل الجهود لوضع حدٍّ لأعمال القرصنة التي تقوم بها فارس أو أية دولة أخرى في الخليج، والحصول على تعويضات عن الأضرار والخسائر دون اللجوء إلى القوة فيمكنكم عرض الموضوع على المقيم الذي عليه بدوره أن يعرضها على القائد العام لسفن صاحب الجلالة في الهند الشرقية، ومحاولة الحصول على الحماية والمساعدة المطلوبة بما يتطلبه الموقف».

لقد كان هو الحادث الأول الوحيد الذي استخدمت فيه سفن الأسطول الملكي، وقامت به السفن س. هورس، بقيادة الكابتن جورج فارمر، وكانت قد وصلت من بومباي إلى بوشهر في شهر مايو سنة ١٧٧٥م؛ بسبب الأحداث التي أشرنا إليها. ويبدو أن الكابتن فارمر قد تلقى تعليمات من رئيسه الكومودور لتقديم مساعداته إلى شركة الهند الشرقية في أي مكان يوجد فيه مستوطنات أو مركز للشركة وتصادف أن كان أسطوله موجودًا هناك شريطة أن يتلقى طلبًا من الشركة بذلك.

وبناءً على تلك التعليمات عرض الكابتن خدماته لمرافقة السفن البريطانية المتجهة إلى البصرة لحمايتها رغم الحصار الذي كانت تستهدف له البلدة يومئذٍ، وعلى كل فإن وكيل الشركة لم يقبل ذلك العرض، وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ أبحرت السفينة س. هورس مع سُفن عديدة أخرى تحت حمايتها من بوشهر إلى بومباي ومرَّت في طريقها بمسقط.

قبائل بني كعب:

لقد لعبت هذه القبيلة دورًا بارزًا في شـؤون فـارس من خلال الأحداث التي أشرنا إليها آنفًا التي شـهدتها المنطقة، وقد تحدَّث عن دور تلك القبيلة كثير من الكتَّاب غير أنه لا بد من إعطاء لمحة قصيـرة عن تاريخها في هذا الفصل.

يقال بأن الموطن الأصلي لهذه القبيلة هو نجد، وقد نزحت منه في القرن السابع عشر إلى عربستان وأقامت بها مستوطنات، وقد ثبتوا أقدامهم سريعًا، وانتزعوا الـوراق والفلاحية من الإنشـكاريين. ويعود نجاحهم إلى نشـاط ومقدرة زعيمهم الشيخ سـلمان الذي ظلَّ يحكمهم حتى سـنة ١٧٦٦م. وقد احتفظ الشـيخ سـلمان بسـلطته عن طريق تحريض الأتراك علـى الفرس، والفرس على الأتراك؛ نظـرًا لوقوع مناطق القبيلة فيما بيـن الدولتين، وفي نفس الوقت كان يمتنع عن دفع الجزية لأي منهما.

وفي سـنة ١٧٥٧م عندما لم تكن سـلطة كريم خان قد توطدت بعد، قام بهجوم على منطقة كعب في محاولة لإخضاعهم لسـلطته، غير أن متاعبه في كثير من أنحاء مملكته حالت بينه وبين النجاح، واكتفى بانتزاع الجزية منهم، غير أن هجوم كريم خان على قبيلة الشيخ سلمان قد أدَّى إلى ازدياد الاتجاه إلى العنف للشيخ سلمان؛ لأنه قرَّر على الفور إنشاء أسطول خاص به ونزلت أول سفينة منه إلى البحر في سنة ١٧٥٨م.

في سنة ١٧٦٥م سيَّر كريم خان حملة أخرى ضدَّ قبائل كعب بعد أن وافق الأتراك على التعاون معـه، غير أن الأتـراك لم يفوا بوعدهـم للقيام بتلك العملية. وهكذا تحرَّك الشيخ الذي أصبح لديه أسطول من اثنتي عشرة مركبًا بالإضافة إلى بعض السـفن التجاريـة، واتجه إلى الضفة الأخرى من شـط

العرب ولجأ إلى الأراضي التركية. بعد ذلك حوّل أفراد هذه القبيلة نشاطهم ضدَّ الأتراك بعد تدمير كريم خان لعاصمتهم الوراق. ومن هنا اضطر الأتراك إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة ضدَّهم. وبحكم التحالف الذي كان قائمًا بين الإنجليز والأتراك فقد وجد الإنجليز أنفسهم متورطين في ذلك الصراع. ومع ذلك فقد فشلت كل المحاولات الكثيرة التي اشتركت فيها الدولتان لإخضاع تلك القبائل.

بعد الهجوم الذي شنّه الفرس بالاشتراك مع الإنجليز ضدَّ جزيرة خرج كما أشرنا سلفًا دخل الوضع السياسي في الخليج منعطفًا مفاجئًا وجديدًا من أثر استيلاء قبائل كعب على ثلاث سفن بريطانية في شط العرب.

وعلى الفور قامت حكومة بومباي بإعداد حملة ضخمة لم يسبق أن تمّ إعداد مثلها منذ سنوات كثيرة، وكانت تتألف من أربع سفن وفصيلة صغيرة من الجنود الأوروبيين والمدفعية. وقد نشط الأتراك والإنجليز على وجهتين البر والبحر، كما بذلت محاولات لاسترداد السفن المخطوفة، غير أن السفن أُحرقت وهي في مراسيها، كما أن محاولة البريطانيين اجتياح بعض معاقل القبيلة في خور موسى مُنيت بكارثة.

في هذه الأثناء تَدخّل كريم خان بحجّة أن قبائل بني كعب من رعايا فارس، وطالب بإصرار بانسحاب كل من الإنجليز والأتراك من الأراضي الفارسية. وقد انسحب الأتراك، وهكذا انتهت الحملة، وقد فاجأ ذلك الموقف الإنجليز الذين كانوا في انتظار تعزيزات كانت في طريقها إليهم من بومباي. وعلى أية حال فقد وعد كريم خان بدفع تعويضات عن الخسائر التي لحقت بالإنجليز. وعلى أية حال فقد كان ذلك الإجراء بالنسبة للإنجليز يعني عقد اتفاق يتعهد الإنجليز بمقتضاه القيام بمطاردة مير مهنا، وبالنسبة للتعويضات فقد عهد إلى وكيل الشركة في جزيرة خرج باستلامها.

وكنتيجة لتلك الانتكاسات المتكرِّرة التي مُنِي بها الإنجليز فقد قرَّروا فرض حصار على موارد المياه التابعة لكعب وهو الحصار الذي استمر عامين، غير أنه بنهاية الحصار أصبحت سفن الأسطول الإنجليزي المحاصَر في حالة مهلهلة سواءً فيما يختص بالعاملين بها أو بالمؤن، مما اضطرّهم إلى رفع الحصار. وقد ظلَّت قبائل كعب متمسِّكة باستقلالها لفترة طويلة من الوقت بمثابة شوكة في جنب الأتراك والإنجليز معًا.

نلتفت الآن إلى المسائل الأكثر أهمية في تاريخ الخليج خلال الفترة التي تلت استقرار البريطانيين في بوشهر سنة ١٧٧٨م مباشرة، فعند وفاة كريم خان في العام التالي لم تعد فارس من الدول الهامَّة في الخليج، بل غدت بعد مرور بضع سنوات من أضعف الدول وأكثرها فوضى واضطرابًا.

فقد كان هناك الصراع الذي استشرى فيما بين أفراد أُسرة زند واستمر عقدًا كاملًا من الزمان، في نفس الوقت فإن آغا محمد خان زعيم قبيلة القاجار كان يقوم بجمع أنصاره الأمر الذي كشف عن وجود صراع آخَر فيما بين أُسرتي زند والقاجار على الحكم.

وكان لطف علي خان يمثِّل أُسرة زند؛ ولكنه كان أميرًا أرعن، وإن كان شجاعًا. وكان يؤيده ويسانده حاجي إبراهيم، غير أن هذا الأخير بعد أن اشمأز من شراسة لطف علي خان وغروره، نقل تأييده إلى آغا محمد وهو التأييد الذي شكَّل دورًا حاسمًا في مسار ذلك الصراع، الذي كانت الحلقة فيه مُحاصرة مدينة كرمان من قوات آغا محمد، الذي أسفر عن اجتياح تلك القوات للمدينة وهروب لطف علي إلى بام، غير أنه أُعتقل هناك وتمّ تسليمه إلى خصمه الذي أمر بفقأ عينه وإعدامه خنقًا.

خلال تلك المرحلة المليئة بالفوضى والمشاكل، وقع حدثان على جانبٍ

كبيرٍ من الأهمية في تاريخ الخليج. ففي سنة ١٧٨٣م سقطت البحرين في أيدي العتوب العرب الذين جاءوا من عمق شبه الجزيرة العربية، ولا يزال رجال هذه القبيلة يُعتبرون من أقوى الفئات في محيط شعبهم إلى يومنا هذا، وتربطهم صلة قرابة بالأُسرة الحاكمة.

أما الحادث الثاني الذي يُعتبر أكثر أهمية فهو بروز سلطنة عُمان. ففي عام ١٧٩٣م على وجه التقريب تمكّن السيِّد سلطان وكان شخصية تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الخُلُق ومن أُسرة الحكام الأئمة من احتلال مسقط وغيرها من موانئ الساحل العُماني، وأصبح الحاكم الفعلي للمنطقة الساحلية، بينما احتفظ الإمام بالسلطة في المنطقة الداخلية وعاصمتها الرستاق.

بعد تقلّد الحاكم الجديد للسلطة كان أول إجراء اتخذه هو احتلال جواذر على ساحل مكران، ثم استولى على شهبار وضمَّها إلى ممتلكاته، ثم بعد ذلك احتلَّ قشم وهرمز من بني معين. وقد أدَّى ذلك النجاح المتواصل إلى انتقال ميناء بندر عباس وتوابعها بما في ذلك ميناب إلى حوزة سلطنة عُمان.

قبل وقتٍ طويلٍ جدًّا من ظهور سلطنة عُمان حاولت شركة الهند الشرقية إقامة علاقات تجارية مع حكامها الأئمة، وعلى عهد السيِّد أحمد سلف السيِّد سلطان تقدمت الشركة بطلبات عديدة للسماح لها بإقامة مركز لها في مدينة مسقط، غير أن طلبها رفض.

وحتى سنة ١٧٨٥م لم يكن للشركة ممثل في مسقط فيما عدا أحد السماسرة المحليين. ولم يتحقَّق النجاح في هذا المضمار إلا بعد تطور حكم السيِّد سلطان، حيث سمح للشركة بالدخول في علاقات تجارية وسياسية مع السلطنة.

والمعاهدة الأولى التي عُقدت مع السيِّد سلطان في شهر أكتوبر سنة

١٧٩٨م كان هدفهـا الحصول علـى تأييده في مجابهة المخططات الفرنسـية والرد على المنافسـة التجارية الهولندية في المنطقة، والحصول على موافقة السلطان على إعادة فتح المركز التجاري والحامية الإنجليزية في بندر عباس. وقد مثلت تلك المعاهدة بداية العلاقات السياسـيَّة الوثيقـة مع عُمان التي تطورت مع مرور الوقت.

إن التحركات الفرنسـية في الخليج إبّان القرن الثامن عشـر تُعتبر مسألة هامَّة؛ لأنها مهَّدت لفترة من النشاط الواسع من جانبهم في المنطقة.

ففي مسـتهل القرن تمّ إغلاق المركز التجاري الفرنسـي في بندر عباس كما ذكرنا آنفًا. وفي سنة ١٧٥٥م أُنشـئ تمثيل ما للفرنسيين في البصرة، وفي سنة ١٧٦٥م أُنشـئت قنصلية هناك، وباسـتثناء ذلك بدءًا من حرب السنوات السـبع في ١٧٦٣م إلى بداية الثورة الفرنسية ١٧٨٩م لم يكن لفرنسا أي تمثيل رسـمي في الخليج، إلا أنها احتفظـت بعلاقات ودِّيَّة مـع عُمان عن طريق مورشيوس وبغداد.

وفي عام ١٧٨٥م طلبت فرنسا من سـلطنة عُمان السماح لها بافتتاح مركز لها في مسقط، إلا أن السلطنة رفضت الطلب على غرار ما فعلت مع الإنجليز سابقًا.

وبعد نشوب الحرب بين فرنسـا وإنجلترا في سنة ١٧٩٣م بدأت فترة من المؤامرات والاضطرابات تسود المنطقة المتاخمة للخليج. فقد أوفدت فرنسا العديد من البعثات إلى الشـرق الأوسـط لعـل أهمَّها بعثة عالِمـي الطبيعة بروجـري وأوليفـر، بموجب مرسـوم صدر خـلال السـنوات الأولى من الجمهورية.

وقـد زار المبعوثان تركيـا (١٧٩٣م) ومصر (١٧٩٤ ـ ١٧٩٥م)، وفي سـنة

١٧٩٥م غادرا القسطنطينية إلى فارس عن طريق حلب وبغداد ووصلا طهران في سنة ١٧٩٦م. وفي طهران أجريا سلسلة من المقابلات مع رئيس وزرائها آغا محمد خان.

وكان الهدف الأول للبعثة (إذا ما اعتبرنا أن الهدف كان هدفًا سياسيًا) على ما يبدو هو البحث عن إمكانية القيام بنشاطات فرنسية مفيدة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

وفي هذا السياق اقترحت البعثة ضرورة احتلال فرنسا لمصر. أما سفر البعثة إلى طهران فقد طرأت فكرتها فيما بعد. ومن الملاحظات التي وردت في مؤلَّف السيِّد أوليفر أحد أفراد البعثة يمكن الاستنتاج بأن الهدف من تلك الزيارة هو التمهيد لعقد حلف بين الفرس والأتراك للوقوف ضدَّ روسيا، ولاسترداد النفوذ الفرنسي في فارس.

وعلى أية حال فلم يتم شيء بالنسبة لإقامة أو إعادة إقامة مستوطنات فرنسية في أصفهان وفي شيراز وفي الخليج ولا بالنسبة للحصول على جزيرة خرج من الفرس، وهي أمور كانت كلها تدور في ذهن المسيو أوليفر.

تلقى الممثِّل البريطاني في البصرة معلومات مبكرة عن تحركات بروجري وأوليفر، فبعث بتقرير إلى حكومة بومباي يقول فيه بأن هدف المبعوثين هو التسلُّل في ثياب عالِمي الطبيعة إلى الهند عن طريق بغداد.

وبناءً على ذلك أرسلت تعليمات إلى الممثِّل البريطاني في بوشهر لكي يتعاون مع ممثلي شركة الهند الشرقية في البصرة لتتبع تحركاتهما، أو إذا أمكن إلقاء القبض عليهما وإرسالهما إلى بومباي ومعهما أوراقهما. غير أن شيئًا لم يتبلور من ذلك، وعاد أوليفر بمفرده إلى فرنسا في سنة ١٧٩٨م.

في نفس الفترة كان عدد آخَر من العملاء الفرنسيين يجوبون أقطار

الشرق الأوسط لنفس الأهداف، كما حامت الشكوك حول وجود بعض أشخاص يحملون الجنسية الفرنسية، أو في خدمة الفرنسيين.

ويبدو أن تحركات السفن الإنجليزية فيما بين الهند والخليج كانت أحد الموضوعات الرئيسية لاهتمامهم، وكانت نشاطاتهم في الواقع مقدِّمة لنشاطات أكثر خطورة سوف نتطرَّق إليها في الفصل التالي:

في عام ١٧٩٨م بدأت بما يطلق عليه بالمرحلة النابوليونية في الشرق التي امتدت منذ غزو نابليون بونابرت لمصر إلى طرد الفرنسيين من جزر مورشيوس في نهاية ١٨١٠م. وخلال هذه الفترة كان على إنجلترا أن تواجه أمورًا خطيرةً تتمثَّل في الانتهاكات التي كانت تقوم بها السُّفن الحربية الفرنسية والقراصنة الفرنسيون، كما كان الإنجليز قلقين من نشاط الفرنسيين داخل فارس.

على أن الخليج لم يشكِّل إلا مجالًا محدودًا داخل تلك الساحة الواسعة التي كان الصراع الفرنسي البريطاني يدور فيها. وكانت قاعدة الإنطلاق للفرنسيين هما جزر مورشيوس[1] (أو كما يسمونها الآن جزر القُمر) التي كانت تتفرّع منها كافة الطرق والمواصلات البحرية.

في عام ١٧٩١م استولى الفرنسيون على السفينة البريطانية فلاج ونقلوها إلى مسقط. وقد كانت هذه الحادثة هي مجرد واحدة من الغارات الفرنسية على السفن التي كانت تمر من وقت إلى آخَر، إلى أن استسلمت جزيرة مورشيوس في شهر ديسمبر ١٨١٠م بقوة بحرية بريطانية قادها الجنرال أبو كرومبي؛ وبذلك وضعت نهاية للانتهاكات الفرنسية في البحار الشرقية.

(١) الفقرة بين القوسين للمترجم.

الفصل التاسع

"لقد أوضحتُ فيما أوضحت كيف أن الحكومة الفارسية باتت تمارس على شواطئها الشمالية سيطرة أقوى وغير منازعة أكثر من أي وقت مضى منذ حكم شاه عباس، فعلى سواحلها الجنوبية يحاول الأتراك أن يحقِّقوا نفوذًا متقلقلًا في شبه الجزيرة العربية، بينما الدويلات العربية الصغيرة تحاول الاحتفاظ باستقلالها كاملًا أو جزئيًا. وفيما بين كل هذه الأطراف تتدخل بريطانيا لتقبض على الميزان بذراع ثابتة وعادلة. وليس في القول أية مبالغة. إن حياة وممتلكات مئات الألوف من الناس تلقى الحماية بفضل الوجود البريطاني في الخليج ـ ولو ضاعت هذه الحماية لا قدر الله أو سحبت فإن المنطقة سوف تغرق في فوضى مدمرة قد يصبح إنقاذهم منها عملًا مضنيًا..."

اللورد كرزون في: (فارس والمسألة الفارسية)



نشوء الدويلات العربية

نصل الآن إلى مرحلة من التاريخ خلال القرن السابع عشر، اكتسب فيها عدد من الدويلات والإمارات العربية شكلًا محدودًا من الوجود السياسي المستقل، لا بد من إدخاله في الاعتبار عند تناولنا الشؤون الخليجية.

مسقط:

كانت عُمان بما فيها مسقط تشكِّل وحدة سياسية واحدة حتى ذلك الوقت. وفي سنة ١٧٩٣م قام سلطان بن أحمد بثورة ضدَّ عمه السيِّد حمد الإمام الأسمى، وبالنجاح الذي حققه من خلال تلك الثورة تمكَّن من السيطرة على مسقط وساحل الباطنة، ثم أعلن نفسه حاكمًا مستقلًا ولقَّب نفسه بالسيِّد سلطان.

وهذا الحادث يشكِّل بداية التعامل المستقل لحكومة بومباي مع سلطنة عُمان، وهي العلاقة التي أخذت تتطوَّر مع مرور الوقت. وكانت المصالح التجارية البريطانية حتى ذلك الوقت يمثِّلها أحد السماسرة المحليين بعد أن أخفقت المحاولات لإنشاء مركز تجاري فيها كما أسلفنا.

في سنة ١٧٩٨م وقع اختيار حكومة بومباي على أحد الفرس من ذوي

النفوذ يُدعى مهدي علي خان ليتولى منصب الممثّل البريطاني في بوشـهر. ومن خلال ذلك المنصب عهد إليه فيما عهد بالتأكّد من موقف السيِّد سلطان من الفرنسيين، ومحاولة إقناعه بعدم تقديم المساعدة إليهم. كما طلب إليه بأن يعطي رأيه في نزاهة وكيل الشركة المحلي في مسقط الذي أخذت الشكوك تحوم حول تصرفاته. كذلك طلب إليه الحصول إذا أمكن على امتياز لفتح مركز تجاري بريطاني في مسقط مقابل إعطاء تعهد للسلطان في حالة موافقته على استبعاد الفرنسيين من عُمان بتزويده بطبيبٍ خاصٍ من الهند لخدمته.

وفي الوقت المناسب تمَّ التوقيع على اتفاق في سنة ١٧٩٨م تعهد السيِّد سلطان بموجبه بتأييد الحكومة البريطانية في القضايا الدولية وبالامتناع عن إعطاء أية امتيازات تجارية في ممتلكاته إلى الفرنسيين أو الهولنديين طالما استمرت حالة الحرب، وبإقصاء أي موظَّف تابع لفرنسا من خدمته، وباستبعاد السفن الفرنسية التي كانت قد اتخذت من مسقط قاعدة لأعمال القرصنة.

وفي حالة نشوب معركة بين السفن البريطانية والفرنسيين يتعهد السلطان بتقديم المساعدة الفعالة للإنجليز، وأخيرًا يتعهد السلطان بأن يسمح للبريطانيين بإقامة مركز وحامية مسلَّحة في بندر عباس إذا ما طلبوا ذلك، وكان هذا الميناء يستأجره السلطان من حكومة فارس. غير أن السلطان رفض رفضًا قاطعًا السماح بإقامة مركز بريطاني في مسقط بحجة أن ذلك سوف يورطه في حرب مع الفرنسيين والهولنديين، ورغم أنه وافق في البداية على تعيين معتمد سياسي بريطاني في مسقط إلا أنه عاد فسحب تلك الموافقة.

في نهاية عام ١٧٩٩م أوفدت حكومة الهند كابتن (السير فيما بعد) جون مالكولم في أول مهمَّة سياسية إلى حكومة فارس وزوّدته بتعليمات حول

النقاط التـي تتعلّق بالمصالح البريطانية في مسـقط، وقـد رافقه طبيب في الرحلة.

عند وصول مالكولم إلى مسقط كان السلطان في جولة بحرية على يخته الخاص؛ ولكن في شهر يناير سنة ١٨٠٠م تمكن مالكولم من مقابلة السلطان على ظهر سفينته التي كانت راسية في منطقة تقع بين قشم وهنجام.

وبعد محادثات قصيرة ومحددة وقّع السـلطان علـى اتفاقية جديدة مع البريطانيين تعزّز اتفاقية سنة ١٧٩٨م القديمة، وقد وافق فيها على تعيين معتمد سياسـي بريطاني في مسـقط، وبعد هذا النجاح غادر مالكولم مسـقط إلى بوشـهر وطهران، وعهد إلى الطبيب الـذي كان قد حاز على ثقة السـلطان بتولي منصب المعتمد السياسي البريطاني في مسقط.

في شهر سبتمبر ١٨٠٣م وصلت بعثة فرنسية برئاسة المسيو دي كافينياك، وهناك علمـت البعثة لأول مرة عـن وجـود اتفاقيتـي ١٧٩٨م و١٨٠٠م بين البريطانيين وسـلطنة عُمان. وقد ذكر السـلطان بأنه في الوقت الذي كان فيه على استعداد لمناقشـة أية أمور تجارية، إلا أنه فيما يختص بالاتفاقيتين مع البريطانيين لا يمكنه الموافقة على تعيين ممثل فرنسـي في مسـقط أو حتى مناقشة مثل هذه الموضوعات.

وهكذا انسـحبت البعثة الفرنسـية. وكان تمسك السـلطان بموقفه من التزاماته يرجع ولا شك إلى أهمية مسقط بالنسبة لتجارتها مع الهند، وليس إلى تفضيل الإنجليز على الفرنسيين. وربما قد أوعز إليه بأنه في حالة تعاونه مع الفرنسـيين. فإن الحكومة البريطانية قد تعمد إلـى فرض حصار تجاري على عُمان.

كان اتفاق مالكولم يتعرَّض أحيانًا للاختبار نتيجة لبعض التصرفات التي

كانت تقوم بها السفن العُمانية في البحر حتى ضدَّ السفن الإنجليزية نفسها، ولم يكن السلطان يتخذ إجراءات فورية لردعها.

توفي السلطان في سنة ١٨٠٤م بعد اشتباكه في معركة بحرية مع بعض زعماء المنطقة وكان وقتها عائدًا من جولة لفرض الأمن والنظام في مياهه الإقليمية، وقد خلفه ابن أخيه بدر بعد نشوب بعض الاضطرابات، غير أن بدرًا اغتيل في سنة ١٨٠٧م وانتقلت السلطة إلى السيِّد سعيد، وكان رجلًا يتميز بالمقدرة والكفاءة، واستطاع أن يدير أمور البلاد بحنكة وإدراك لفترة تقترب من نصف قرن توسعت فيها رقعة مملكته سواء على الساحل أو في الداخل.

المرحلة الأولى من حكم السيِّد سعيد استنفذت في تصدِّيه لبعض الاعتداءات الخارجية بالتعاون مع البريطانيين، ثم بعد ذلك تصدَّى لمحاولات المصريين التسلل إلى المنطقة. أما السنوات الأخيرة من حكمه فقد أمضاها في ممتلكاته الأفريقية في زنجبار مما أثَّر على الأوضاع في عُمان. وقد اضطر الإنجليز إلى التدخّل إلى جانب السيِّد سعيد في مواجهة حركات تمرد نشبت في عُمان سنة ١٨٢٩م.

في بداية حكمه مال السيِّد سعيد نحو الفرنسيين، غير أنه بعد استيلاء البريطانيين على جزر مورشيوس في سنة ١٨١٠م، هَدَتْهُ حصافته السياسية إلى السعي إلى التفاهم مع البريطانيين. كما أن التهديدات الخارجية التي كان يتعرض لها ويؤيده فيها البريطانيون من وقتٍ إلى آخَر قد اضطرته إلى توقيع معاهدات جديدة ذات أهمية بالغة مع البريطانيين، وهكذا ففي عام ١٨٢٢م وعام ١٨٤٥م وَقَّع السيِّد سعيد على معاهدتين لقمع تجارة الرقيق، وفي سنة ١٨٣٠م على معاهدة تجارية التي عززت أيضًا بنود الاتفاق الذي عقد في سنة ١٨٢٢م حول تجارة الرقيق. وفي عام ١٨٤٦م عقدت اتفاقية جمركية حددت بموجبها الرسوم بنسبة ٥٪ بينما أعفيت جميع الواردات البريطانية من الرسوم الجمركية.

سنة ١٨٥٤م تعبر بادرة السيِّد سعيد بإهداء جزر كوريا موريا إلى التاج البريطاني عن ميوله الودية تجاه الإنجليز. لقد سبق أن بذل الفرنسيون جُهودًا كثيرة للحصول على تلك الجزر، التي كانت على درجة كبيرة من الأهمية؛ بسبب وجود السماد الطبيعي فيها.

وفي سنة ١٨٦١م قضى السيِّد سعيد نحبه، وخلفه نجلاه السيِّد ماجد والسيِّد ثويني اللذان اقتسما السلطة فحَكم السيِّد ثويني عُمان، وحَكم السيِّد ماجد زنجبار. وقد تمّ التوصل إلى اتفاقية بهذا المعنى بين الأخوين في سنة ١٨٦١م بواسطة الحكومة البريطانية بناءً على مقترحات اللورد كاننج، وبموجبها استقلت زنجبار عن عُمان. وفي سنة ١٨٦١م تمّ تعيين ممثِّل سياسي بريطاني في مسقط مرة أخرى.

إن أهم اتفاقية عقدت في عهد السلطان السيِّد ثويني، هي الاتفاقية التي لم يشترك هو في التوقيع عليها. ففي شهر مارس سنة ١٨٦٢م اشتركت بريطانيا وفرنسا في إصدار بيان تعهدا فيه باحترام استقلال كل من سلطنة عُمان وسلطنة زنجبار، وجاء في البيان المذكور: «إن الأطراف المتعاقدة وقد وضعت في اعتبارها أهمية استقلال صاحب السمو سلطان عُمان وصاحب السمو سلطان زنجبار، وقد رأت من المناسب أن تعلن بالتبادل احترامها لاستقلال هاتين الدولتين» غير أن هذا البيان كان يحمل في طياته عواقب وخيمة اتضحت أبعادها في نهاية القرن التاسع عشر.

تميّز حكم السلطان السيِّد ثويني بعقد اتفاقية هامّة أخرى في سنة ١٨٦٤م، وجاء في اتفاقية: «إنني أسمح لحليفتنا الحكومة البريطانية بإنشاء خط أو أكثر من خطوط المواصلات السلكية في أية منطقة من الأراضي التابعة لدولة عُمان أو في أية منطقة يتفق شاه فارس على استئجارها». ولقد عززت هذه الاتفاقية ببروتوكول لمدِّ الخط التلغرافي عبر الأراضي الخاضعة لصاحب السمو في شبه الجزيرة ومكران.

اغتيل السيِّد ثويني في صحار سنة ١٨٦٦م، وتلت وفاته دورتان للحكم مفيدتان لم تشهد أحداثًا هامَّة في الشؤون العامَّة للخليج؛ ولكن كان هناك دائمًا كالعادة انشقاقات وثورات داخلية انتهت في سنة ١٨٧١م عندما استولى السيِّد تركي نجل السيِّد سعيد على السلطة، وقد اعترفت به الحكومة البريطانية في نفس العام.

وقد اقترنت السنوات الأولى من حكم السيِّد تركي بخلافات وتنافس بين الطوائف الدينية في عُمان، وبهجوم قام به سكان داخلية عُمان على مدينتي مسقط ومطرح وغيرهما من المدن الساحلية، وقد اقتضت تلك الاضطرابات السياسية التدخل البريطاني؛ بسبب الأضرار والخسائر التي تعرَّض لها الرعايا البريطانيون. غير أن الإنجليز لم يعودوا يتدخلوا في شؤون عُمان فيما عدا تعهد بريطاني بتأييد السلطان ضدَّ أي عدوان يقع على بلاده.

في عام ١٨٧٣م وَقَّع السيِّد تركي مع السير بارتل فرير معاهدة هامَّة جدًّا حول قمع تجارة الرقيق في المنطقة، الأمر الذي رفع من شأنه في أوساط المسؤولين البريطانيين، بينما رفض سلطان زنجبار في البداية الموافقة على عقد اتفاق مع البريطانيين حول هذا الموضوع. ولقد بذل السيِّد تركي جهودًا مخلصة لتنفيذ تلك المعاهدة غير أن ذلك الموقف أثار عليه بعض قطاعات من رعاياه. ولقد كان إخلاصه في هذا الشأن بالذات سببًا رئيسيًّا في التقدير الذي أولاه المسؤولون البريطانيون لشخصه واحترامهم له.

وفي عام ١٨٧٣م تمت تسوية موضوع هام بموافقة السلطان بشأن معاملة رعايا الهند البريطانيين على قدم المساواة مع الرعايا البريطانيين الأصليين أمام القضاء القنصلي. وقد زودت الوكالة السياسية البريطانية في مسقط بحرس عسكري للمرة الأولى سنة ١٨٨٠م، وكان السلطان يؤيد التنقلات غير المقيدة للوكلاء البريطانيين في مناطق عُمان الداخلية، مما هيأ للمعتمد

السياسي أن يقوم بزيارات متكرِّرة للمناطق التي كانت غير معروفة كالبريمي والجبل الأخضر ووادي الطائيين. وبتلك التسهيلات أمكن جمع معلومات جديدة عن الأوضاع السياسية في المناطق الداخلية من عُمان.

في سنة ١٨٨٠م عيَّنت حكومة الولايات المتحدة قُنصلًا لها في مسقط في شخص أحد التجار البريطانيين الذي أصبح في العام التالي الوكيل القنصلي للحكومة الفرنسية في عُمان.

توفي السلطان السيِّد تركي سنة ١٨٨٨م، وخلفه نجله السيِّد فيصل الذي كان يتولى خلال حياة والده منصب الوالي لإحدى مقاطعات عُمان، واكتسب خبرة واسعة في الشؤون السياسيَّة، وقد اعترفت به الحكومة البريطانية سلطانًا في سنة ١٨٩٠م، غير أنها لم تتعهد له بأي شكلٍ من أشكال التأييد في البداية؛ ولكن السيِّد فيصل قد أعرب في النهاية عن رغبته في الاعتماد على المشورة البريطانية في القضايا السياسيَّة الهامَّة وأن يدير شؤون الحكم بأسلوب يحافظ على علاقات الصداقة مع بريطانيا.

أول حادث هام بعد الاعتراف الرسمي بالسلطان السيِّد فيصل، هو عقد معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة سنة ١٨٩١م لتحلَّ مَحِلَّ معاهدة التجارة القديمة المعقودة مع والده السيِّد تركي. وتسري مدة تلك المعاهدة اثني عشر عامًا. غير أن المعاهدة الجديدة لم تنحرف في بنودها عن المعاهدة القديمة إلا أنها تضمنت بندًا جديدًا يحرِّر السلطان من التزامه بمنع تصدير أو استيراد بعض المنتجات والسلع التجارية.

غير أن ضريبة الصادرات قد أخضعت للموافقة المشروطة من جانب الحكومة البريطانية. وقبل توقيع المعاهدة الأخيرة وضع اقتراح كنتيجة للنشاط الفرنسي في المنطقة بمعاونة الإنجليز في الدفاع عن سلطنة عُمان؛ ولكن بما أن النص بذلك كان سيتعارض مع التصريح الأنجلو ـ الفرنسي

لسنة ١٨٦٢م، ولم يكن محتملًا أن ترضى عنه الحكومة الفرنسية، فقد عقدت معاهدة في شهر مارس ١٨٩١م «تعهد السلطان بموجبها بالأصالة عن نفسه ونيابة عن ورثته بألا يتخلى أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أي جزء من أراضي مملكته لأي حكومة أخرى».

في عام ١٨٩٥م نشب تمرد بين بعض القبائل في عُمان، أغلبها من الهناوية، وقيل إن لسلطان زنجبار ضِلعًا فيها. ولقد استطاع المتمرِّدون بالمفاجأة والمكر احتلال مدينة مسقط. ولقد اتخذ المعتمد السياسي البريطاني في مسقط الإجراءات اللازمة لحماية أرواح وممتلكات الرعايا البريطانيين غير أن الأوضاع اتخذت منعطفًا خطيرًا، مما دفع بالمقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى الحضور وتحذير المتمردين من أنهم إذا لم يحترموا ممتلكات الرعايا البريطانيين، فإن إجراءات هامَّة سوف تتخذ بهذا الشأن.

في شهر مارس وُضِعَ حَدٌّ للتمرد وعاد السلام بعد أن دفع السلطان مبلغًا كبيرًا من المال للمتمردين، ووعد بالعفو عن القائمين بالتمرد. بعد جهود مضنية تمَّ تعويض الرعايا البريطانيين الذين تضرروا من العملية، وقد قرَّر السلطان بعد تلك الأحداث بأن يوجه اهتمامه إلى تدعيم جبهته الداخلية. وعن طريق استيلائه على اثنين من المعاقل الداخلية وهما نزوى وإزكي نجح في تدعيم قبضته على عُمان الداخلية.

نأتي الآن إلى مرحلة هامَّة من تاريخ الخليج، فلفترة طويلة من الوقت سبقت الأحداث التي ألمحنا إليها، وكما أشرنا في فصل سابق عقدت فرنسا وروسيا اتفاقًا للحدِّ من النفوذ البريطاني في الخليج وتطوير سياسة مشتركة لهما هناك.

وقد وقع عبء مقاومة النفوذ البريطاني في عُمان على عاتق فرنسا. وفي أوائل عام ١٨٩١م شكا السفير الفرنسي في لندن، وإن لم يكن لشكواه أي

أساس من أن النفوذ البريطاني يتدخل في نظام خلافة الحكم في عُمان. وكان هذا مؤشرًا لمحاولة للاهتمام بشؤون عُمان من جانب فرنسا بعد فترة تربو على ثمانين عامًا.

وفي مجلس النواب الفرنسي وردت إشارة في سنة ١٨٩٣م إلى أن الإنجليز قد نصبوا من أنفسهم دون أدنى شك حُماةً للخليج وحكمًا في شؤون دوله، واقترح العمل على القيام لمبادرات للحدِّ من النفوذ البريطاني عن طريق تعيين قنصل فرنسي في مسقط لوضع سجل للأشخاص الذين يتمتعون بالحماية الفرنسية، كما ظهرت هناك دلائل أخرى على اهتمام فرنسي روسي مشترك بشؤون المنطقة. فقد وصل إلى مدينة صور أحد الرعايا الفرنسيين، وكان هذا الشخص قد سبق أن لفت الأنظار بتحركاته على ساحل الإمارات المتصالحة عند وصوله إليها سنة ١٨٩٣م على سفينة ترفع العلم الفرنسي، وحاول دون جدوى الحصول على الموافقة على إقامة مستودع للفحم في مسقط للفرنسيين.

بعد عام تم اعتماد نائب قنصل فرنسي في مسقط. وبتعيينه تم افتتاح السجل الذي أوصى به المسيو ديلونكل، وقد شجع ذلك بعض العرب الذين كانوا يتعاملون في الرقيق إلى تسجيل أنفسهم كرعايا يتمتَّعون بالحماية الفرنسية؛ وذلك لكي يفلتوا من عمليات تفتيش، وحجز سفنهم من جانب السُّفن البريطانية. وسرعان ما ظهرت آثار تلك الإجراءات في تردد السلطان السيِّد فيصل في الاستجابة للمطالب البريطانية.

في أعقاب التمرّد ضدَّ السلطان في سنة ١٨٩٥م رأت الحكومة البريطانية أنه لا بد من تحديد موقفها، وذلك بإصدار بيان حول تلك الأحداث، وبعد مناقشة العديد من خطط العمل تم إبلاغ شيوخ القبائل الداخلية أنه مهما كانت خلافاتهم مع السلطان فإن الحكومة البريطانية لن تسمح بشنِّ أي

عدوان على مسقط ومطرح حِفاظًا على المصالح البريطانية في المدينتين. كما تم توضيح الأمر للسلطان بأن ذلك الموقف البريطاني لا يعفيه بأي حال من الأحوال من اتخاذ التدابير المناسبة والضرورية للدفاع عن مصالحه؛ ولكن السلطان الذي أعرب في أكثر من مناسبة من أن الحكومة لم تكن تفي بالتزاماتها نحوه لم يأخذ ذلك التحذير مأخذ الجد.

وعلى أية حال ففي عام ١٨٩٦م أهدت حكومة الهند للسلطان مدفعين وكمية من الذخيرة، كإضافة لوسائل دفاعه، كما وعدته بمساعدة بحرية من أجل استعادة إقليم ظَفَار الذي تمرد عليه. وفضلًا عن ذلك فقد ساعده البريطانيون في تنظيم ميزانيته على أُسس سليمة. ورغم أنه في أول الأمر رفض العرض الخاص بظَفَار، إلا أنه (في ١٨٩٧م) طلب المساعدة البريطانية ورغم أن الحملة انتهت لصالحه إلا أن موقفه من بريطانيا لم يتبدَّل. وعلى كل حال فقد أمكن في بداية عام ١٨٩٨م عقد أول اتفاقية مع السيِّد فيصل بشأن تجارة السلاح وهو موضوع كان قد استفحل أمره.

في أعقاب هذه الأحداث تحسَّنت علاقات السلطان السيِّد فيصل بالإنجليز كثيرًا. وتلقَّى دعوة رسمية من الحكومة البريطانية لحضور حفلة التتويج في مدينة دلهي بالهند في عام ١٩٠٣م؛ ولكنه أرسل أكبر أنجاله لحضور المناسبة. وفي سنة ١٩٠٠م وكنتيجة لظهور وباء الطاعون وضعت الشؤون الصحية في موانئ مسقط ومطرح تحت إشراف الإنجليز، وفي العام التالي تم ربط عُمان بخط تلغرافي عن طريق جاشك وهو حدث هام وبالغ الأهمية.

ونظرًا لاستقرار الأحوال في الحكم والبلاد، والموقف الودِّي للسلطان تجاه إنجلترا انفتحت المناطق الداخلية من عُمان لعمليات البحث والاستكشاف. وفي هذا الإطار تمكَّن ولأول مرة الماجور كوبس (الآن السير

كوبس) من قطع المسافة برًّا من أبو ظبي في عُمان المتصالحة إلى مسقط وهي أول رحلة يقوم بها مسؤول بريطاني إلى عُمان حتى ذلك الوقت. وقد أسفرت الرحلة عن جمع معلومات قيِّمة عن عُمان والمناطق المجاورة لها. وقد استمر السيِّد فيصل في الحكم حتى سنة ١٩١٣م عندما خلفه نجله السلطان السيِّد تيمور بن فيصل.

الفصل العاشر

"إنني لا أتصور أن أحدًا ما قد اقترح أن يكون هناك أي تــراخٍ أو ضعفٍ في موقف الحكومة الخاسرة أو أية حكومة أخرى بالنسبة لمركزنا ووجودنا في الخليج... إن وضعنا في الخليج في الوقت الراهن وضع ثابت ولا يمكن النيل منه أو إضعافه."

وزير الخارجية في مجلس اللوردات

١٤ مايو ١٩٢٤م



الخليج في خضم السياسات الدولية

قد لا يكون خطأً أن نَصِف العُقود الأولى من القرن التاسع عشر بأنها كانت مرحلة الوفود والبعثات السياسية إلى ملوك فارس، الأمر الذي لا يتطلب منّا اهتمامًا كبيرًا حتى نكون في قلب صورة الأحداث في الخليج.

ثم أعقب تلك الرحلة المحاولات التي ربما لم تكن مجردة من الغرض، ولم تكن تقتصر على بريطانيا وحدها لتأمين أوضاع الدويلات والمشيخات الواقعة على جانبي الخليج، التي أَفْضَت ولو بشكٍ بطيءٍ إلى وقوع تلك الدويلات تحت وصاية - إذا لم نستخدم لفظة أخرى - عدد من الدول الأوروبية لكل منها أهدافها التي أدّت في النهاية إلى نشوب صراع وتنافس فيما بينها على تلك الدويلات.

فمن جانب بريطانيا كانت هناك بعثة مالكولم إلى فارس في عام ١٧٩٩م التي توجهت بإيعاز من الماركيز ويلسلي حاكم الهند في ذلك الوقت؛ بهدف إنشاء علاقات ومعاهدات مع فارس. وقد نجحت البعثة جزئيًا، وأبرمت معاهدة مع بريطانيا وفتح علي شاه، نصّت على استبعاد فرنسا التي كانت هي الأخرى تحاول الحصول على نصيب في السيطرة على الخليج، وليس على فارس وحدها وإنما على بعض الدول الأخرى في الخليج.

في عام ١٨٠٢م تقدَّمت فرنسا بمبادرة إلى فارس قُوبلت بفتورٍ في البداية؛ ولكن في سنة ١٨٠٣م كما سبق أن لاحظنا فشلت محاولة فرنسية لإقامة مركز تجاري لها في مسقط. أما في عام ١٨٠٧م فقد تغيَّر الحال؛ لأن الشاه الذي كان قلقًا من التهديد الروسي لبلاده وأُصيب بخيبة أمل من الحصول على المساعدات البريطانية ضدَّ الاعتداء الروسي على الأقاليم الشمالية الغربية من فارس، قام بمبادرة نحو فرنسا أسفرت عن توقيع معاهدة فنكشتاين، التي اعتبرت روسيا بمقتضاها «عدوًّا لملكَي فارس وفرنسا».

بعد بضعة أشهر ظهرت بعثة جاردين في فارس لتدريب الجيش الفارسي على ما يبدو على الأساليب العسكرية الأوروبية؛ ولكنها كانت في الحقيقة لتطبيق نصوص معاهدة فنكشتاين بين نابليون والشاه فتح علي شاه.

وقد انزعجت حكومتا بريطانيا والهند من تغلغل النفوذ الفرنسي في فارس. وعلى هذا الأساس أوفدت الحكومة البريطانية السير هارفارد جونز برديمز الذي سبق أن تقلَّد منصب المقيم في البصرة إلى فارس بصلاحيات كاملة للتفاوض مع الشاه على عقد اتفاقية مع الحكومة الفارسية، وفي نفس الفترة تقريبًا أوفد مالكولم من الهند لنفس الغرض؛ ولكن الأخير لم يصل إلى طهران، وعاد إلى الهند.

وقد تمكَّن السير هارفورد جونز من عقد اتفاق مبدئي. ففي الوقت الذي انسحبت فيه البعثة الفرنسية بعد أن فشلت في مهمتها. وبضياع جزيرة مورشيوس من فرنسا سنة ١٨١١م انتهى النفوذ الفرنسي في فارس تقريبًا.

وفي نفس عام ١٨١٠م أوفد مالكولم في مهمة ثالثة، وتمّ التصديق على المعاهدة التي عقدها هارفورد جونز، وعند استقالة مالكولم عام ١٨١١م انتقل الإشراف على العلاقات الدبلوماسية إلى السير وليم أوسلي الذي قام بإبرام

المعاهدة الفعلية مع فـارس. وكان الغرض النهائي مــن تلك الاتفاقيات هو بعث التبادل التجـاري البريطاني مع فارس بعد أن أُصيـب بالركود، وإقامة علاقات دبلوماسية أوسع وأقوى.

في الوقت الذي كانـت تلك التطورات تأخذ مجراهـا كانت فارس تواجه كارثة فـي حروبها مع روسـيا، التي انتهـت أولها بهزيمة فـارس عام ١٨١٢م، ومعاهدة جولسـتان ١٨١٣م. أما الحرب الأخرى التي فقدت فيها فارس المزيد من الأراضـي في مقاطعتها الشـمالية القريبـة، كانت بمثابـة الطامّة الكبرى، وانتهت سنة ١٨٢٨م بموجب معاهدتّي تركمنشاي سنة ١٨٢٨م، وانكيار سكيليس (١٨٣٣م). وقد اتّسمت تلك المرحلة بعداء متبادل بين إنجلترا وروسيا.

وقد فتح انتصار روسـيا ضدّ فارس وتركيا شهية أطماعها إلى المزيد من الفتوحات في الأقاليم الشـرقية. وكان المخطط العام النهائي المرسوم لها ـ حقًّا أو باطلًا ـ هو تحكيم كل من مملكتي أفغانسـتان وفـارس اللتين كانتا تشـكّلان حاجزًا في طريقها إلى الهند البريطانية، ولقد كانت أطماع روسـيا التقليدية هي الوصول إلى المياه الدافئـة، وكانت المملكتان الطريق المؤدي إلى منطقة الخليج. وعلى أية حال فليس هذا مجال الاسـتفاضة في موضوع التوسّع الروسي، فقد تناوله العديد من الكتّاب ويمكن للقرّاء الرجوع إلى ما كتبوه حول هذه المسألة.

عند وفاة فتح علـي شـاه (١٨٣٤م)، وخلافته من قِبل محمّد شـاه تغيّر موقف حكام فارس تجاه بريطانيا تغيُّرًا كليًا. وبتشجيع من روسيا شنّ محمّد شـاه غزوًا للحيرة رغم احتجاجـات الوزير البريطاني المفـوض في طهران باعتبار أن ذلك الإجراء الذي قام به صاحب الجلالة يشكّل إجراءً عدائيًا ضدّ الهند البريطانية في نظر وزراء صاحبة الجلالة الملكة، وأنه يتعارض تمامًا مع روح وأهداف التحالف القائم بين بريطانيا العظمى وفارس.

على أن الهجوم على أفغانستان كانت له انعكاساته الفورية على شؤون الخليج. وبما أن الاحتجاج قد فشل، فقد قامت قوة عسكرية بريطانية باحتلال جزيرة خرج سنة ١٨٣٨م، واستمر ذلك الاحتلال إلى أن رفع الشاه حصاره عن الحيرة سنة ١٨٤٢م، وقد تمّ نقل الممثلين البريطانيين من بوشهر إلى تلك الجزيرة مُؤقتًا. وبعد انسحاب بريطانيا من الجزيرة، وضعت فارس قوات نظامية فيها؛ ولهذا فقد نزح السكان ولم يعودوا إلا بعد انسحاب الحامية من الجزيرة.

في عام ١٨٥٦م احتلّ البريطانيون جزيرة خرج مرة أخرى خلال الحرب التي نشبت بين بريطانيا وفارس حول موضوع الحيرة أيضًا. وفي الجولة الثانية كانت العمليات العسكرية تنطلق من بوشهر. غير أن الحرب انتهت مبكرًا نظرًا لانهيار المقاومة الفارسية.

أما الأحداث الهامّة المرتبطة بالخليج فهي احتلال مدينة ريشاهر يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٦م وبوشهر يوم ١٠ ديسمبر، وهزيمة الفرس في خشاب يوم ٨ فبراير سنة ١٨٥٧م، ثم قصف واحتلال المحمرة بعملية بحرية يوم ٢٦ مارس. وللاطلاع على معلومات وافية حول هذا الموضوع فإننا نحيل القارئ إلى مذكرات اللفتنانت جنرال السير جيمس أوترام عن الحملة الفارسية عام ١٨٥٧م وهي تتضمن تقارير وتعليمات عن العمليات العسكرية في فارس ابتداءً من نزول القوات حتى توقيع معاهدة السلام في باريس يوم ٤ مارس ١٨٥٧م التي تعهدت فارس بموجبها بالامتناع عن التدخُّل في الشؤون الداخلية لأفغانستان. وعندما وضعت تلك الحرب أوزارها استؤنفت العلاقات بين بريطانيا وفارس على أُسس وديّة مما مهّد الطريق لإقامة نظام الاتصالات السلكية وغيرها من الإصلاحات.

في سنة ١٨٤٦م اعتلى ناصر الدين شاه عرش فارس، وظلّ في الحكم

حتى عام ١٨٩٦م. أما العلاقات السياسية بين فارس وروسيا خلال حكم هذا الشاه فإنها تتميز بأحداث هامَّة. غير أنه في نهاية تلك الفترة اتضح أن هناك نُفُوذًا وضغطًا متزايدين للروس في شمال فارس، رغم أنه كان نُفُوذًا تجاريًا أكثر منه عسكريًا.

وقد استمر التنافس البريطاني ـ الروسي في الخليج، وكان يحتد أحيانًا غير أن الصبغة التي اكتسبها ذلك الصراع كانت في مظهرها اقتصادية، وأن التفاهم البريطاني الروسي امتد لسنة ١٨٣٤م لاحترام استقلال ووحدة أراضي فارس الذي كان لا يزال ساري المفعول بل أكد الطرفان تعزيز ذلك الاتجاه في سنة ١٨٨٨م.

في أعقاب حرب القرم انتهجت روسيا سياسة التوسُّع في آسيا إلا أن تَقدُّمها نحو الشرق ونحو الجنوب على ما يبدو لم يكن يثير اهتمام فارس لفترة من الوقت. وعلى أية حال ففي سنة ١٨٦٩م أدَّت التحركات الروسية عبر السواحل الجنوبية لبحر قزوين إلى نشوب خلاف بين فارس وروسيا حول الحدود في تلك المنطقة، وأصبحت فارس منذ ذلك الوقت على حذرٍ شديدٍ في تعاملها مع الجارة الشمالية.

ويمكننا أن نشير إلى الإجراء الذي اتخذته روسيا من موضوع إنشاء خطوط حديدية في فارس خلال السنوات الأخيرة من حكم ناصر الدين كبرهان على موقف روسيا في المسائل التجارية والاقتصادية.

ففي عام ١٨٨٧م أَرغم الوزير الروسي المفوض في طهران الشاه على الموافقة بعدم السماح بإنشاء خطوط سكك حديدية أو قنوات مائية لأية شركة أجنبية دون استشارة مسبقة لروسيا. وقد انتزع هذا الاتفاق عن طريق التهديد بأنه في حالة منح امتياز من هذا النوع لأية جهة أجنبية، فإن حكومة

القيصر قد تنسحب من موقفها كضامن لوحدة أراضي فارس، والواقع أن ذلك الإجراء كان مُوجهًا بشكلٍ صريحٍ ضدَّ مشروع بريطاني بإنشاء خط حديدي بين الأهواز وطهران.

وكردٍّ على افتتاح نهر قارون الأسفل للملاحة سنة ١٨٨٨م الذي اعتُبر انتصارًا سياسيًّا وتجاريًّا لبريطانيا، قام الوزير الروسي المفوَّض في طهران سنة ١٨٨٩م بالحصول على تعهّد كتابي من الشاه بمنح إحدى الشركات الروسية الحق في القيام بإنشاء خطوط سكك حديدية في فارس، ووفقًا لما تمّ عليه الاتفاق فإن على فارس أن تمتنع خلال تلك الفترة من منح أية شركة امتيازًا من ذلك النوع.

أما بشأن ما استجد من أحداث في منطقة الخليج. فقد ظهرت بوادر نشاط روسي في الثمانينات. ففي سنة ١٨٧٧م زار بعض الضباط الروس العاملون مع الشاه أصفهان وشيراز وبوشهر، ومن الواضح أن الزيارة كانت رحلة لتفقد تلك المناطق. وكدليل آخَر على الأهمية الإستراتيجية التي كانت تعلقها روسيا حول المضيق المؤدي إلى داخل الخليج هو الزيارة التي قام بها أحد المهندسين الروس إلى هرمز عن طريق بندر عباس. وقد قام بمسح للجزيرة، وبعد سفره بيومين صرح بأن الجزيرة سوف تسلم إلى روسيا لإقامة مستودع للفحم.

وفي سنة ١٨٩٦م انتشر وباء الطاعون في الهند، وقد رأت روسيا في ذلك ذريعة للتدخُّل في شؤون فارس بتعيين وكلاء صحيين في سنة ١٨٩٧م بحجة دراسة حالة الوباء في بوشهر في الظاهر بينما في الحقيقة لم يكن هناك أي وجود للوباء فيها. وفي سنة ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م حَلَّ محلَّ هؤلاء مسؤولون روس آخَرون. ومن المهم في هذا الصدد أن نشير إلى نوايا روسيا في مضيق هرمز، كما سبق أن ذكرنا أن جميع هؤلاء الأطباء كانوا يقومون بزيارات لبندر عباس والبصرة.

في عام ١٨٩٨م اتخذ القنصل الروسي في بغداد إجراء فيما يخص مشروع بناء ميناء وقاعدة بحرية روسية في الخليج، كما قدّم الكونت كبنست وكان من كبار المسؤولين الروس طلبًا إلى الباب العالي لإنشاء خط سكك حديد من طرابلس في سوريا إلى الكويت، وكانت الأخيرة على ما يبدو هي الهدف من ذلك المشروع.

ويمكننا أن نسترسل في ضرب الأمثلة عن صراع المصالح بين روسيا وبريطانيا في الخليج، غير أننا تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذا الموضوع، وخلاصة القول أن العداء بين الدولتين كان عداء حقيقيًا ومستحكمًا، ولم يخف بمرور الزمن، ويمكن للمهتمين أن يعودوا إلى هذا الموضوع في عدد من المؤلَّفات التي تناولتها بالتفصيل. ونكتفي هنا إلى أن نشير إلى أنه تمّ التوصل في عام ١٩٠٧م إلى تفاهم بين الدولتين غير أن بحث هذا الاتفاق خارج عن إطار هذا الكتاب.

وقد أعرب ناصر الدين شاه شأنه شأن سلفه نادر شاه عن رغبته في امتلاك قوة بحرية في الخليج، وفي عام ١٨٦٥م فكّر في شراء ثلاث أو أربع بواخر مسلَّحة على أن يقودها ضبّاط من الأسطول البريطاني، ويديرها بعض العرب والهنود؛ وذلك للقيام بأعمال الحراسة في مياه الخليج، غير أن المشروع لم يتحقّق.

وبعد خمسة عشر عامًا من ذلك التاريخ اقترح البعض على الشاه بأنه إذا أمكن تنظيم رقابة على الساحل الفارسي وممارسة السيطرة على موانئها فإن دخل الجمارك سوف يتضاعف، وقد تقرر تبعًا لذلك أن تشتري الحكومة الفارسية سفينة في كل عام، وأن تبني أسطولًا لاستخدامه في مياه الخليج، ولهذا فقد أوصت حكومة فارس أحد المصانع الألمانية ببناء سفينتين لها، وقد وصلت السفينة الأكبر التي سُمِّيت بريسبوليس حمولة

٦٠٠ طن وقوة ٤٥٠ حصانًا، ومسلَّحة بأربعة مدافع ماركة كروب إلى بوشهر عام ١٨٨٥م.

ووصلت الثانية سوسة بعد ذلك مباشرة، غير أنها أرسلت على شكل أجزاء تمّ تركيبها في ميناء المحمرة. أما السفينة الأولى فقد استخدمت للأغراض الإدارية في الخليج بينما عملت السفينة سوسة في نهر قارون كسفينة بريد؛ وذلك بناءً على طلب حاكم عربستان. وفيما عدا ذلك فإن مشروع الأسطول الفارسي لم يتبلور على الإطلاق.

كرّسنا في هذا الكتاب حيّزًا كبيرًا لنشاط شركة الهند الشرقية، والواقع أن الجانب الأكبر من تاريخ الخليج كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتلك الشركة. وتجب الملاحظة أنه في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، مرَّ وضع شركة الهند الشرقية في الشرق عامّة بتغييرات كبيرة، فحتى ذلك الوقت كانت الشركة تحتكر التجارة البريطانية وحدها.

وفي البداية كانت الشركة مؤسسة تجارية بحتة، كما أشرنا سلفًا؛ ولكنها تطورت تدريجيًا واكتسبت طابعًا سياسيًا بعيد المدى. وفي سنة ١٧٨٤م صدر قانون في الهند تشكلت بمقتضاه هيئة إدارية للإشراف السياسي والعسكري والمالي على الممتلكات البريطانية في الهند نيابة عن الحكومة البريطانية.

ومنذ ذلك التاريخ انتقل توجيه السياسة البريطانية بشكلٍ قاطعٍ من الشركة إلى الحاكم العام في الهند وإلى مجلس الوزراء في لندن. وبعد مراحل أخرى لا تدعو الإشارة إليها هنا. وبموجب مرسوم إيرل جري سنة ١٨٣٣م جردت الشركة من احتكارها لتجارة الشرق، ولم تعد مؤسسة تجارية وأصبحت تمارس وظيفة إدارية فقط. ومثل هذا الوضع لم يكن بطبيعة الأشياء من الممكن أن يستمر، ثم إن طوفان تمرد الهند المشهور قد أعقبه

نقل الإدارة في الهند من الشركة إلى الدولة، كما صاحبه تقليص لنشاطات الشركة في الخليج نفسه، واعتباره منطقة مفتوحة لكل القادمين من أجل التجارة.

وكانت القيود التي فرضتها حكومة بومباي مطبقة في مسقط منذ سنة ١٨٠٥م، ثم جددت في سنة ١٨٠٩م، وعلى كل حال فإن خطر الاشتغال بالأعمال التجارية على جميع المسؤولين من مختلف الرُّتب والمواصفات لم يطبَّق بصورة قاطعة قبل عام ١٧٨٤م. بعد ذلك التاريخ لم نسمع عن أي إشارة إلى نشاط شركة الهند الشرقية في الخليج في نطاقها التجاري فقد اتخذ النفوذ البريطاني في الخليج تدريجيًّا طابعه السياسي.

لا بد هنا من لمحة قصيرة لدور الأسطول البريطاني في الخليج الذي لم يعد له وجود في عام ١٨٦٣م. إن هذه القوة هي من صنع شركة الهند الشرقية. ففي بداية ظهور الشركة، أي: منذ الوقت الذي ركَّزت نفسها فيه في الهند وأقامت لها مراكز تجارية في سوراث وغيرها من مدن الهند، اضطرت في عام ١٦١٥م تقريبًا إلى إنشاء وتجهيز أسطول صغير من السفن والمراكب؛ لتوفير الحماية للشركة من اعتداءات البرتغاليين وسفنهم التجارية، ومن القراصنة الذين كانت تعج بهم البحار الشرقية. ومن هذا المنطلق تمَّ تشكيل «البحرية المحلية في سوراث». وفي عام ١٦٦٨م عندما استولت شركة الهند الشرقية رسميًّا على بومباي بقرار من التاج سُميَّ أسطول الشركة الذي أصبح قويًّا من ذلك الوقت، «بحرية بومباي»، ثم بمضي الوقت تحوَّل إلى الأسطول الهندي.

وقد عاش هذا الأسطول قرنين من الحياة المجيدة، ذلك أن طبيعة العمل الذي أُوكل بها إليه، والدور العظيم الذي أدَّاه والمصاعب التي عاناها لا يوجد وصف أصدق لها مما كتبه عنه لُوْ:

«لقد كان مجال نشاط الأسطول الهندي متشعبًا، كما أن العمليات التي كان يقوم بها لم تكن هامّة دائمًا، ولهذا فإن نتائجها كانت محدودة بالنسبة لمصير العالَم. وأنه لعمل مجيد وأقل عناء أن يساهم المرء في أحد الصراعات الأوروبية العظيمة، وبكل تلك الحوافز على مرأى من العالَم. ويتلقى الثناء والإعجاب من مَلك وشعب مستعدين دائمًا لذكر المنتصرين بعبارات الإطراء والثناء والإعجاب».

«إن ذلك أجدى من الاشتراك في حروب صغيرة كالتي سنشير إليها ـ التي أصبحت الآن في طي النسيان، حروب تدور رحاها في ممر أو خليج مجهول وفي ظلِّ مناخ قاتل ضدَّ عدو متعطش للدماء، ومع الاعتقاد بأن من يبقى على قيد الحياة لا يكرمون بل يحملون معهم جراثيم الأمراض التي تفتك بهم وهم في ريعان الشباب».

كما أشاد بدور هذا الأسطول اللورد كرزون الذي قال:

«بأن الشجاعة النادرة لرجال الأسطول في عصر كان يتعين على رجال التجارة بأن يشهروا السيف كما يشهروا القلم والسلع التجارية واسم بريطانيا عاليًا إلى مناطق كانت تتطلب منهم المجازفة مما أدّى إلى وفاة الكثيرين منهم».

لقد هيأ الخليج ميدانًا جديدًا لأولئك الرجال الأشداء لإظهار الخصال والمزايا التي تعبِّر عن روح المغامرة والمهارة بنفس المستوى الذي أظهروه على السواحل الغربية للهند.

عند تسريح الأسطول الهندي انتقلت أعماله وواجباته إلى سفن الأسطول الملكي، غير أنه مضت سنوات عديدة قبل التوصّل إلى طريقة مرضية للعمال عانت خلالها المصالح السياسيَّة البريطانيّة من جراء ذلك. وأخيرًا في عام

١٨٧١م تمّت الترتيبات التي أمكن بمقتضاها إيجاد طريقة للتعاون بين الأسطول الملكي والسلطات المسؤولة في الهند.

إن أي بحث في شؤون الخليج لن يستوفي غرضه دون إعطاء نبذة عن أعمال المسح ـ البحرية والنهرية والبرية ـ التي صمّمت ونفذت خلال القرن التاسع عشر بالجهد والعمال البريطانيين. فقبل تلك العمليات كانت الخرائط الموضوعة عن الخليج غير موثوقة. ولقد قام اللفتنانت جون مكاوير بتصحيح تلك الخرائط، كما أنه أثناء قيامه بأعمال البحث وضع تصميمات للعديد من أجزاء الساحل لتسهيل الملاحة، كما كتب توجيهات مقيدة حول نفس الموضوع. وكانت النتيجة وضع خريطة كاملة للساحل الشمالي الغربي للخليج وشط العرب، غير أن الساحل الجنوبي العربي بقي في معظمه مجهولًا تقريبًا للملاحين الأوروبيين.

أكدت القرصنة التي كانت نَشِطة في المنطقة الحاجة إلى معرفة الامتدادات الدقيقة للخط الساحلي معرفة كاملة. وقد بذلت محاولات للمسح ابتداءً من ١٨١١م فصاعدًا غير أن الخطر من القراصنة حال دون تنفيذ ذلك. ولم تسمح الظروف قبل عام ١٨٢٠م بمتابعة إعداد الحملة الناجحة الثالثة ضدَّ القراصنة من القيام بمسح دقيق للسواحل الجنوبية والغربية للخليج ابتداءً من رأس مسندم.

إن إنجاز ذلك العمل في وجه صعوبات بالغة مناخية وغير مناخية يرتبط بأسماء منوهان وجيني وبروكس الذين أنهوا عمليات المسح للساحل الغربي في سنة ١٨٢٥م، ثم بدأ هينز في عمليات مسح بحر عُمان وساحل مكران امتدادًا لكراتشي وانتهت في سنة ١٨٢٩م.

إن عمليات المسح المبكرة هذه كانت شاقة ومهمة نظرًا لصغر حجم

السـفن المسـتخدمة وعدم صلاحيتها للظروف المناخية للمنطقة، بحيث أن عـددًا كبيرًا من الضبـاط البريطانيين الذين اشـتركوا فيها ماتـوا أو انهارت صحتهم؛ بسبب المناخ والإرهاق.

لقد بدأ مسـح الساحل الجنوبي لشـبه الجزيرة العربية من جانب هنز من سنة ١٨٣٣م؛ ولكنه توقف في عام ١٨٣٧م، وخلال الحرب في أفغانستان (١٨٣٩ ـ ١٨٤٤م) لم تكن هناك أعمال مسح إطلاقًا من جانب الأسطول الهندي، على الرغم من أنه أثناء احتلال جزيرة خرج تمّ إعداد تقرير عن مرفأ الكويت.

وفي سـنة ١٨٥٧م ترتب إعادة النظر في أعمال المسح العديدة (بين سنة ١٨٢٠م وسـنة ١٨٢٨م)، وقد قام بذلك أحد الضباط، وكان يسـاعده ستيف، وانتهى العمل منه في سـنة ١٨٦٠م، وكانت النتيجة خريطة عامة للخليج في لغتين، وكانت تلك الخريطة على جانب من الدقة. وفـي نفس الفترة تقريبًا قام أويش بمسح لمرفأ البحرين.

وبعد تسريح الأسـطول الهندي لم تَجرِ أعمال مسـح جديدة حتى عام ١٨٧١م. وفي ذلك الوقت وبالتشاور مع الكولونيل بيلي أوفد المقيم السياسي البريطاني فـي الخليج ضابطًا من الأسـطول الملكي بمسـح شـامل لمياه البحرين وقطر وخور الحجر وبهمشـير. وتبيّن اسـتحالة الملاحة في الميناء الأخير. وقد أُقيمت محطات بريطانية لرصد حركة المدِّ والجزر في بوشـهر ومسقط في التسعينات، كما تمت عمليات رصد تلغرافية في محطتي بوشهر وجاشك لتحديد خطوط الطول.

ولم يتم شـيء حتى زيارة اللورد كرزون للخليج سنة ١٩٠٩م التي أعطت دفعة جديدة للموضـوع، وفيما بين ذلك العام وعـام ١٩١٤م تمّ إجراء أعمال مسـح تفصيلية ذات طابع محلي؛ ولكنها كانت ذات قيمة عظيمة. والفضل

يعود إلى المبادرة البريطانية في رسم الخرائط التي وضعت عن الخليج، والمتاحة لكل الدول والأقطار التي بالرغم من أنها ليست خرائط كاملة إلا أنها لا تقل عن أية خرائط لمناطق غير خاضعة للسيطرة الأوروبية.

المواصلات في الخليج:

المشروع الذي كان يحتل الصدارة في أذهان الكثيرين خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر هو إنشاء خطوط مواصلات مباشرة بين منطقة البحر المتوسط والخليج يربطها بخطوط سكك حديدية أو مواصلات نهرية أو بكليهما، وبعبارة أخرى هو تحسن الاتصالات بين إنجلترا والهند.

وقد وردت تفاصيل المقترحات والمشروعات العديدة للمشروع في عدد من المؤلَّفات، ونكتفي بالقدر اليسير من النقاط الرئيسية في هذا المجال. في عام ١٨٣٥م غادرت بعثة على أعلى مستوى برئاسة الكولونيل أف. آر شيزني إنجلترا إلى العراق التركية للقيام باختبارات (بعد أن تمّ الحصول على الموافقة على سفرها من الباب العالي وخصص البرلمان البريطاني لها ٢٠,٠٠٠ جنيه، وساهمت شركة الهند الشرقية بمبلغ ٥,٠٠٠ لأجل الملاحة التجارية في مياه الفرات).

وفي سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦م أُنزلت سفينتان من هذا النوع في المجرى العلوي للنهر؛ ولكن إحدى السفينتين فُقدت بسبب هبوب عاصفة، أما الأخرى فقد عملت في مياه الفرات ودجلة وشط العرب وقارون.

وفي أواخر عام ١٨٣٦م أسفرت التجربة لإدخال وسائل النقل السريعة بين إنجلترا والهند عن أنها تجربة غير ناجحة، غير أن عمليات المسح التي قام الكولونيل شيزني لأنهار العراق الثلاثة كانت تشكِّل خطوة هامّة في التطور

الجغرافي للمنطقة، أما طريق البحر الأحمر فقد بقي طريقًا مألوفًا، باعتباره أصلح لنقل المسافرين وحمولات السلع الثقيلة إلى الشرق عن الطريق البري.

ولقد استمرت عمليات المسح النهرية والبرية التي بدأتها بعثة شيزني بمزيد من الإمكانيات لفترة تربو على العشرين عامًا، وكان يقوم بها ضباط الأسطول الهندي العاملون في أسطول العراق، بل قد امتدت تلك العمليات إلى عربستان وحدود فارس، ولعل أهم تلك العمليات عملية القائد فليكس جونز (١٨٤٣ ـ ١٨٥٤م) التي قام بها على المشارف العلوية لنهر دجلة، وقد أمدنا هذا القبطان برواية ممتعة وكاملة عن تجاربه في هذا الشأن.

أما تاريخ ما تم إحرازه من تقدّم من خلال ما ساهم به الرحلة من معلومات عن المناطق الواقعة على الجانب العربي للخليج حتى مستهل القرن العشرين، فقد وردت في تقارير الدكتور هوجارت ولا داعي إلى إعادة ذكرها هنا، أما في فارس فقد ساهمت عمليات المسح التي أجريت لإنشاء خطوط تلغرافية للبلاد، وفي وضع خرائط أكثر دقة لتلك المنطقة فالمسح الذي تمّ لمد تلك الخطوط وتجديد خطوط الطول التلغرافية في العديد من المناطق قد شمل مناطق جنوب ووسط فارس بشبكة من طرف المسح مرقمة بعلامات دقيقة جدًّا، وأسفرت في عام ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤م عن صدور ونشر أهم الخرائط التي وُضعت عن فارس من قبل الكابتن أو. بي. سي. سينت جون.

أما بالنسبة للملاحة التجارية المنتظمة في أنهار العراق فقد سارت الأمور ببطء شديد. وكانت السفينة سيتي أوف لندن هي أول سفينة تعمل في نهر دجلة ابتداءً من عام ١٨٦١م، وتتبع الشركة البريطانية لينش وشركاه. وكان عمل تلك البعثة هو نتيجة لبعثة شيزني في سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦م. وقد ظلّت الملاحة التجارية حتى يومنا هذا تعمل تحت اسم الشركة الملاحية لدجلة والفرات رغم معارضة الحكومة التركية سابقًا لتلك الشركة.

أما نهر قارون فقد أخذ يستقطب اهتمام بريطانيا بشكلٍ خاصٍ في الثمانينات من القرن عندما تبينت أهميته كقناة للمواصلات المؤدية إلى داخلية البلاد. وقبل ذلك بوقت مبكر جدًّا ظهرت أهمية الهند كطريق تجاري ومنفذ إلى مدن ومراكز زراعة الحبوب في غرب فارس وكمفتاح للتجارة البريطانية والتجارة البريطانية الهندية، وذلك من خلال كتابات لايارد واللفتنانت سلبي الأول بحكم صلاته الوثيقة بمحمَّد تقي خان زعيم قبائل البختياري وبتجار سشتار؛ وبذلك ضمن موافقة الحكومة الفارسية على المشروع.

وقد رفع لايارد تقريرًا إلى الحكومة البريطانية حثَّها فيه على سرعة الاستفادة من تلك الفرصة المُتاحة. غير أن الاضطرابات السياسية في فارس حالت دون تنفيذ المشروع، ولم تسمح الظروف للبدء في مناقشة مشروع افتتاح نهر قارون للملاحة بين لندن وطهران قبل مضي ٣٠ عامًا أعقبتها سبع عشرة سنة أخرى من الأخذ والرد الدبلوماسي بين الحكومتين قبل أن يصدر مرسوم بتسوية تلك المشكلة في عام ١٨٨٨م الذي بموجبه تمَّت الموافقة على فتح الجانب الأسفل من نهر قارون إلى الأهواز لسفن العالَم.

إن هذا الإنجاز بجوانبه الثلاثة الجغرافي والسياسي والتجاري قد تحدث عنه في إعجاب اللورد كرزون الذي وضع فهرسًا كاملًا بأسماء الكتَّاب والمؤلفين البريطانيين الذين أعطوا ـ من وجهات نظر مختلفة ـ آراءهم في موضوع نهر قارون والمقاطعة المحيطة به.

والشركة البريطانية الوحيدة التي استفادت من ذلك الامتياز هي الشركة البريطانية للملاحة في دجلة والفرات التي ظلَّت تمارس عملها بالفعل لفترة تزيد على ربع قرن في مياه دجلة. وقد قدمت الحكومة دعمًا للشركة لتمكينها من الاستمرار في عملها في وجه صعوبات بالغة. وقد تنوَّعت الصعوبات

فشملت عراقيل رسـمية من جانب الحكومة والتزامًا باسم الشاه بالاحتفاظ بمشـروع ثبت أنه غير مريح في الجهة العليا من نهر قـارون، بالإضافة إلى التعصب الإقليمي والطائفية.

وعلى أية حال فإن التجارة الخارجية لمنطقة نهر قارون قد تطورت ببطء وأمكن الاحتفـاظ بالمرفق بصورة منتظمة. وفي عربسـتان أُنشئت قنصلية بريطانية يرأسها نائب قنصل في المحمرة في سنة ١٨٩٠م، وإدارة بريد بريطانية في سنة ١٨٩٤م.

وعلى الرغم من أن العديد من المقترحات والمشـروعات الأولية لوضع إنجلترا في عملية اتصالات مباشرة بمسـتعمراتها الشرقية عن طريق السكك الحديدية والمواصلات النهرية قد ثبت فشلها، إلا أن الحاجة إلى مواصلات تلغرافية لتحلَّ مَحلَّ «البريد الصحراوي» البطيء عن طريق العراق أصبح أمرًا مُلحًّا في منتصف القرن التاسع عشر. فقد اتضح تمامًا خلال تمرد الهند كيف أن الحكم البريطاني فيها فـي حاجة إلى مثل تلك الاتصـالات، ولهذا فقد قرَّرت الحكومة أخيرًا أن تولـي هذا الأمر أهمية عاجلة. وتقرر في البداية مد كابل إلى الشرق عن طريق البحر الأحمر، غير أنه بعد فشل عمل ذلك الكابل سنة ١٨٦٠م أصبح من الصعب تأسيس شـركة أخرى لنفس الغرض؛ لأن ثقة الجمهور في نجاح أي مشروع قد اهتزت.

ومن ثَمَّ فقد تولت الحكومة بنفسها الأمر، وأثبتت التحقيقات وعمليات المسح المكثفة أن الخليج هو المنطقة البديلة لمد ذلك الخط. وبما أن الخط الأرضي التركي الممتد من القسـطنطينية إلى البصرة الذي يعمل بالاشتراك مع النظام الأوروبي للتلغراف، تـم توصيله حتى بغداد، وتجديده إلى منطقة الفاو في رأس الخليج، وتمديد خط آخَر من هناك إلى كراتشـي، فسوف يتم ربط الشرق باتصالات مباشرة مع الغرب.

ونظرًا لأن الخط من بغداد إلى الفاو لا بد أن يمر بمنطقة تسكنها قبائل المنتفك العربية التي كانت في حرب مستمرة مع الحكومة التركية، وعلى خلاف مع الحكومة المحلية ـ فقد تقرر مد خط من بغداد عبر كرمنشاه، وطهران، وأصفهان وشيراز إلى بوشهر، بحيث يتمّ ربطه في المنطقة الأخيرة بالكابل البحري في الخليج. وقد تم الحصول على الامتيازات المطلوبة لهذا الخط من الحكومة الفارسية بعد مفاوضات طويلة.

لقد تحدث غيري بالتفصيل عن تاريخ المراحل المتعاقبة التي قطعها مشروع إنشاء مواصلات تلغرافية فعَّالة بين أوروبا وآسيا عن طريق الخليج من كافة زواياه، ومن ثم قمت بتلخيص ما تم إنجازه في هذا المجال. أما المعاهدات والاتفاقيات العديدة التي وقِّعت مع حكومة فارس اعتبارًا من سنة ١٨٦٣م ومع سلطان عُمان ابتداءً من ١٨٦٤م التي حصلت بريطانيا بموجبها على الامتيازات اللازمة فيمكن الاطلاع عليها في «مجموعة أتيشيسون للمعاهدات».

أما فيما يختص بالكابلات والخطوط الأرضية التي كانت تديرها الهيئة الهندية ـ الأوروبية للتلغراف في سنة ١٩٢٧م فمدرجة أدناه.

١ ـ كابل تلغرافي من كراتشي إلى جاشك افتتح عام ١٨٦٨م، ومداه ٨٢٨ ميلًا ومزوَّد بمحطتين إحداهما في كراتشي والأخرى في جاشك.

٢ ـ خط أرضي بسلكين من كراتشي إلى جاشك، وتمّ افتتاح جزئه الممتد من كراتشي إلى جواذر سنة ١٨٦٤م، ومن جواذر إلى جاشك ومداه ٧٠٠ ميل وله محطات في كراتشي، وأورمارا، ويسيني وجواذر وشهبار وجاشك.

٣ ـ كابل من جاشك إلى هنجام وافتتح عام ١٩٠٤م، ومداه ١٣٦ ميلًا ومزود بمحطتين إحداهما في جاشك والأخرى في هنجام. وقد تمّ مد هذا الخط أساسًا في عام ١٨٦٩م كجزء من كابل بين جاشك وبوشهر.

٤ ـ كابل من هنجام إلى بوشهر افتتح عام ١٩٠٤م، ومداه ٣٨٠ ميلًا، وله محطة في هنجام وأخرى في بوشــهر، وهذا يشــكل جزءًا من كابل مباشــر بين جاشك وبوشهر، وتم تمديده عام ١٨٦٩م. ومن مكتب بوشهر تمتد خطوط أرضية قصيرة داخلية إلى الممثلية البريطانية ومكتب التلغرافات الفارسية في بلدة بوشهر، وإلى منزل المقيم السياسي البريطاني في سبزاباد.

٥ ـ خط كابلي مباشر من جاشك إلى بوشهر، وافتتح سنة ١٨٨٥م، ومداه ١٥٠ ميلًا، وله محطتان واحدة في بوشهر والثانية في الفاو.

٦ ـ خط كابلــي وأرضي من هنجام إلــى بندر عباس، يخترق قشــم وانتهى العمل فيه سنة ١٩٠٥م، ومداه ١٧ ميلًا، ومدى الخط الأرضي ٣١ ميلًا.

٧ ـ كابل من جاشــك إلى مسقط، وافتتح ســنة ١٩٠١م، مداه ٢٢٠ ميلًا، وزود بمحطتين في كل من مسقط وجاشك.

لقد واجه العاملون في تمديــد الخطوط وصيانتها صعوبات كبيرة كان لا بد من التغلــب عليها لتنفيذ المشــروع. فعلــى الجانب الشــرقي من دجلة والخليج، كانت هناك سلاســل مــن الجبال علــى امتداد الشــمال الغربي والجنوب الشرقي فقد كان لا بد من المرور عبرها كما كان يعترض المسطح الأرضي عدد من المرتفعات والكتل الصخرية.

وإلى جانب كل ذلك كانت درجة الحرارة على الســهل هي ما يمكن أن يتوقعه الإنســان في مناطــق قريبة من خط الاســتواء، أي: حــار وجاف في الصيف وبارد وثلجي في الشتاء.

كما يمر الخط بعدد مــن الممرات على ارتفاعات تصــل إلى ٨٠٠٠ قدم فوق ســطح البحر، حيث البرد قارس جدًّا في الشتاء، وحيث يمكن أن تشلّ الثلوج العربات المتحركة! كما لم تكن هناك طرق معبّدة والعربات المتحرّكة

لم تكن معروفة علـى الإطلاق. وأغلـب المناطق التي تمـر منها الخطوط تسـكنها قبائل هوجاء متنقلة ترى في عملية السطو واللصوصية عملًا شرعيًا لتأمين متطلباتها الضرورية.

وكانت أكبر مشـكلة واجهها العاملون هي إنزال الكابل الأول في الفاو نظرًا لطبيعة الساحل الشاذة في تلك المنطقة.

ولقد تمّ الآن إنشـاء محطات لاسـلكية في هنجام والبحرين وبوشـهر ولنجه، وأيضًا في البصرة وعبدان، وأثبتت تلـك المحطات قيمتها وأهميتها القصوى بالنسبة للسفن والتجار ورجال الأعمال.

تجارة الأسلحة:

بعد أن نجحـت بريطانيا فـي الثمانينات من تصفية تجـارة الرقيق بعد جهود مضنية وتضحيات كبيرة، وجدت نفسها أمام مشكلة أخرى أكثر خطورة ونعني بها انتشـار وتوزيع الأسلحة بين سكان سـاحل الخليج. ولقد بدأت تلك التجارة غير المشروعة ببداية متواضعة غير أنها مع مرور الوقت اكتسبت طابعًا خطيرًا جدًّا، وتخطت كل المشاكل الأخرى في المنطقة.

وخلال الحرب الأفغانية الثالثة ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م. تبيّن أن شحنات كبيرة من الأسـلحة التي تم تصديرها من الهند عن طريق فـارس وصلت إلى القوات الأفغانية فـي الحيرة، كما اكتشـفت حركة مبيعات سـلاح صغيرة في نفس المنطقة.

ورغم القيود التي فرضتها حكومة بومباي، ورغـم الحظر الذي أصدره الشاه على استيراد الأسلحة إلى فارس فإن تدفق الأسلحة قد استمر دون رادع إلى المحمرة.

وفي سنة ١٨٨١م تمّ اكتشـاف أحد المحلات التي تتعامل في السلاح في بوشهر، وكانت العمليات محدودة النطاق في البداية غير أن ذلك المحل قد حقّق أرباحًا شجعت محلات أخرى في الخليج على أن تحذو حذوه.

وقد أثبتت قوانين الحظر التي كانت تصدر في فارس عدم فاعليتها، كما أن تجارة السلاح في بوشهر كانت تلقى تشجيعًا من المسؤولين عن الجمارك الفارسـية، الذين بالرغم من رفع الرسـوم الجمركية عليها كانـوا يعتبرونها تجارة مشـروعة. وكنتيجة لذلك فقد أمكن تسـليح قبائل فارس وعربستان بأسلحة أفضل من أسلحة الجنود الفرس أنفسهم. والواقع أن تلك التجارة في مجملها كانت تجارة بريطانية، فالسـفن التـي كانت تنقلها سـفن بريطانية والمؤسسـات التي كانت تتعامـل فيها في فارس كانت مؤسسـات بريطانية أيضًا.

وكان مسـتحيلًا وغير مرغوب فيه أن تقوم الحكومة البريطانية بالضغط على مواطنيها قبل أن يتضح موقف الحكومة الفارسية من المشكلة؛ لأن مثل ذلك التدخل سـوف ينقل تجارة الأسلحة إلى الشركات الفرنسية أو الألمانية في القارة مما سوف يشكل إحراجًا دبلوماسيًا للحكومة الفارسية؛ ولهذا فقد أدركت حكومة بريطانيا أنه لا جدوى من إصدار قانون سابق لأوانه مع العلم بأنه إذا ما أقدمت الحكومة الفارسـية على حظر تجارة الأسلحة رسميًا، فإن الحكومة البريطانية تسـتطيع في تلك الحالة أن تمارس الضغط الفعّال على شركاتها دون أن تطالب حكومة فارس بأي تعويض لتلك الشركات.

بحلول عام ١٨٩٧م بلغت تجارة الأسلحة في بوشهر أبعادًا خطيرةً، بحيث قدّرت قيمة الأسلحة المتوردة إلى بوشـهر ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وبما أن ذلك الوضع قد أثار الفزع في أوسـاط حكومة فارس مما اضطرها إلى اتخاذ خطوات فعّالـة لحظرها وعقدت اتفاقـًا مع حكومتي بريطانيـا وعُمان التي

تصاعدت فيها حركة تجارة السلاح أيضًا، بحيث وصل إليها ما لا يقل عن ١١,٥٠٠ قطعة سلاح فيما بين عامي ١٨٩٠ و١٨٩٢ لقمع تلك التجارة.

وبالرغم من أن تجارة السلاح في عُمان بدأت متأخرة، إلا أنها فيما بعد تصاعدت إلى حدٍّ خطيرٍ، وأخيرًا تركزت هناك. غير أن سلطان عُمان لم يبذل جهدًا كبيرًا في تطبيق الاتفاق المعقود مع الحكومة البريطانية تطبيقًا حرفيًّا، فقد أصدر منعًا لتصدير الأسلحة من مسقط إلى أفريقيا الشرقية، إلا أنه رفض أن يوافق على تفتيش السفن والمراكب العُمانية - وهو الإجراء الفعَّال الوحيد لقمع تلك التجارة، وظلَّ القرار حبرًا على ورق.

أما تجارة الأسلحة فقد واصلت تصاعدها واتساعها حتى عام ١٨٩٧م، حيث بلغ عدد البنادق التي استوردت ٢٠,٠٠٠ قطعة، وكان يتم تصريف بعضها بين قبائل عُمان الداخلية، إلا أن القسم الأكبر كان يعاد تصديره إلى ساحل عُمان والبحرين وقطر والكويت، حيث يتم تهريبه إلى فارس والأراضي التركية حتى أصبحت المنطقة كلها مغطاة بأحدث أنواع الأسلحة الحربية.

وأخيرًا اتخذت إجراءات ردع حاسمة، فقد اضطرت الحكومة الفارسية في ١٨٩٨م إلى اتخاذ خطوات صارمة وفعَّالة لقمع تجارة السلاح في المنطقة، كما اتخذ سلطان عُمان إجراءات مماثلة.

وهكذا تصرفت الحكومة الفارسية بطريقة حاسمة، وقامت بمصادرات للأسلحة في بوشهر بصفة رئيسية، الأمر الذي أدى إلى وضع نهاية لتلك التجارة، باستثناء عمليات التهريب الصغيرة. كذلك عُهِدَ إلى الزوارق البريطانية المسلحة القيام بدوريات في مياه الخليج، وتمت مصادرة كميات كبيرة من الأسلحة في العديد من المناطق.

واعتبارًا من سنة ١٨٩٨م تركزت تجارة السلاح بشكلٍ كليٍّ في مسقط، إذ

لم يعد ميناء مسقط مركزًا لتجارة السلاح والذخيرة في عُمان فحسب، بل كانت شحنات الأسلحة تصدر منه إلى سواحل فارس وإلى أفغانستان. وكان معظمها في أيدي الفرنسيين بالاشتراك مع الألمان؛ لأن تجار الأسلحة البريطانية منعوا من الاشتراك فيها بأمر من حكومتهم.

ولاستقصاء تجارة السلاح على امتداد الخطوات التي اتخذت في أواخر القرن التاسع عشر لوضع حدٍّ لتلك التجارة تجدر الإشارة إلى الإجراءات المشددة التي اتخذت في سنة ١٩١٢م عندما تم إنشاء مستودع للأسلحة في مسقط، غير أن صفقات البيع سواء فيما يتعلق بالاستيراد أو التصدير قد أخضعت لرقابة حكومية مباشرة، وبالرغم من ذلك الإجراء فإنه لم يؤد إلى وضع نهاية حاسمة لتلك التجارة، إلا أنه حدَّ منها كثيرًا، بحيث لم يعد لها وجود الآن.

إن الالتزامات المفروضة على مؤلف هذا الكتاب بحكم علاقته الرسمية بالخليج تقتضي في كافة الأحوال، أن نختتم هذا الموجز الطويل لتاريخ المنطقة. ولعلنا نتذكر ما قاله أرسطو من: «أن العمل الدرامي له نهاية، أما الملحمة فهي بتاريخ المكان فقط».

وإنني لا أخشى أن يتصور القارئ في نهاية هذا الكتاب أن مسار الوجود البريطاني في الخليج قد تضاءل في السنوات الأخيرة بدلًا من أن يقوى.

لقد كان دورنا بهذا الشكل:

لقد حافظنا على الأمن والنظام، وبذلك ساهمنا في تنمية التجارة ورفعنا من مستوى معيشة السكان، ولهذا فقد شجعنا التعليم والثقافة، وبذلك ساهمنا في نمو الحرية الفردية والتطلع إلى النجاح في الحياة. هذا هو مفهومنا للحضارة، ولما نُسمِّيه بالتطور الكامن في تغيير البيئة الاجتماعية

الـذي تترتب عليه مثل هـذه النتائج. الإيمـان بوجود وإمكانيـة التقدم هو عقيدتنـا العلمانية والعمل على تنميتها وتطورها فـي جميع أنحاء العالم هو رسالتنا العلمانية.

وكما يقول السير جي. آر. سيلي: «إنه إذا كان التاريخ علمي في أسلوبه، إلا أن غايته عملية بمعنى أنه لا يقتصر على إشباع فضول القارئ عن الماضي فحسب، بل يدفع إلى تغيير عن الحاضر ونبوءته عن المستقبل. وإذا استلزمنا بحكمة سـيلي وافترضناها حكمة سـليمة، فإن تاريخ الوجود البريطاني في الخليج يمكن أن نُسـمِّيه بالأسـلوب الأخلاقـي. ولا بد أن ينشـأ عن هذا المفهوم اسـتنتاج عظيم في غاية العظمة؛ بذلك يتعين علـى هذا التاريخ أن يُعبّر عن الاتجاه العام للقضايا بصورة تجعلنا نفكر من خلالها في المستقبل، وعلى توزيع أدوار المصير المرسوم للشعوب.

من بين الأقطار الأوروبية التي لعبت دورًا بارزًا في سياسـات الخليج، انفردت إنجلترا على امتداد القرون الثلاثة بالمحافظة على وجودها وتطويره. كما أن بعض الـدول التي لعبت في يـوم من الأيام دورًا بـارزًا في الخليج كالبرتغال وهولندا مثلًا، عادت وأدارت ظهرها بطريقة أو أخرى إلى ماضيها وأخذت تنتهج أسلوبًا مختلفًا في تطورها.

أما الدول الأخرى كألمانيا وتركيا وروسيا، فقد اتجهت وجهات أخرى، ولم تعد تعتبر احتلالها لميناء أو مرفأ على الخليج كهدف قومي إستراتيجي، وكانت السياسـة الفرنسـية حتى عام ١٩٠٤م أيام أن كانت معاديـة لبريطانيا العظمى كانت سياسـة سـلبية، وكانت تهدف إلى إحراجنا لكي تحصل في الوقت المناسب على مكاسب لها في مناطق أخرى. غير أن النفوذ البريطاني ظلَّ ينمو باطراد. وفي مسـتهل القرن العشـرين كان هذا النفوذ أقوى من أي وقت مضى، كما خرج من الحرب العظمى قويًا يتحدى.

إنها إحدى معجزات التاريخ أن يخرج من هذه الجزيرة رجال لا من أجل خَلق شعوب حرة عظيمة وبناء إمبراطورية مستقلة فحسب، بل من أجل ممارسة نفوذ معنوي في كثير من مناطق العالم (والخليج مجرد واحد منها) غالبًا من دون دعم مادي الأمر الذي رسخ السلام في مناطق لم تعرف الأمن والأمان منذ آلاف السنين؛ وبذلك ارتفع مستوى الحياة لكل الطبقات.

ولكي يتمثل الدرس الذي يقدمه لنا عيد الميلاد «فإننا قد ضاعفنا من سكان العالم، كما ساعدنا على إشاعة البهجة بين الناس. كما سبقنا غيرنا في تطبيق المبادئ التي قامت عليها عصبة الأمم في منطقة الخليج أكثر من أي مكان آخَر.

إن عملنا هذا لا يكمن في ميزة انفردت بها طريقة الحكم في بريطانيا بقدر ما يكمن من الأجهزة التي يعمل بها نظامنا التي شكلت لتتكيف مع المهمة المرسومة. وكما يقول اللورد روزبري: «إن الإمبراطورية البريطانية قد قامت على سواعد الرجال» ولم تفتقر بريطانيا يومًا من الأيام مثل أولئك الرجال الذين كانوا يملأون مختلف الوظائف والمهام السياسية في الخليج، وعما إذا كان هؤلاء الرجال سوف يستمرون في العطاء تحت الظروف المستجدة في الهند، فإن ذلك موضوع يقتضي اهتمامًا شديدًا من رجال وزارة الخارجية البريطانية الذين يقع على عاتقهم مسؤولية ملء هذه المناطق بتلك المسؤوليات التي كانت قبل اليوم من اختصاص حكومة الهند. أما أن ذلك الفراغ فسوف يتم ملؤه باستمرار من الأكفاء من الرجال فإنها حقيقة لا يرقى إليها الشك.

وإيمانًا بهذه العقيدة وباستذكار السجل الحافل لأولئك الذين أدُّوا عملهم في هذا المضمار قرابة ثلاثمائة عام فإننا نردد في صلاة صامتة كلمات رجل من أعظم الرجال الذين خدموا صاحب الجلالة في الخارج: «بالنسبة لي فإن رسالة هؤلاء محفورة في صخرة من الجرانيت ومنسوجة في صميم القدر بأن ما قمنا به كان عملًا حقًّا، وأنه سوف يبقى خالدًا».

الفهارس العامة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس الطوائف والجماعات

أ

ر

ز

س

ش

فهرس الأماكن والبلدان

ن

فهرس المصطلحات الغامضة

ح

س

ش

ق

م

ن

هـ

الفهرس

